

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1

كلية اللغة والأدب العربي والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها



الفنون النثرية في آثار البشير الإبراهيمي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد منصوري

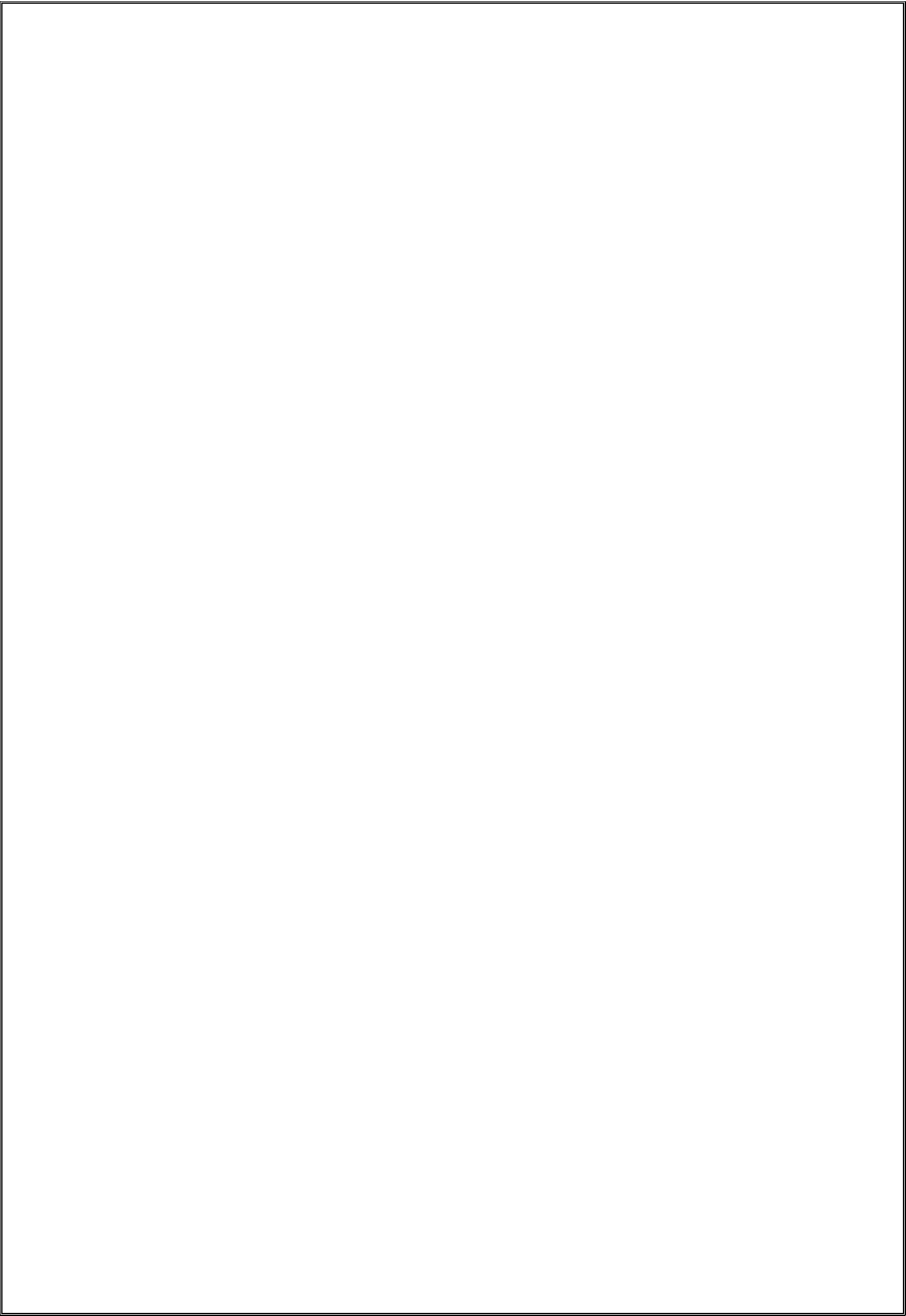
إعداد الطالبة:

لبنى دلندة

لجنة المناقشة			
الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة	الصفة
العربي دحو	أستاذ التعليم العالي	باتنة	رئيسا
محمد منصوري	أستاذ التعليم العالي	باتنة	مشرفا ومقررا
معمر حجيج	أستاذ التعليم العالي	باتنة	عضوا مناقشا
محمد العيد تاورته	أستاذ التعليم العالي	قسنطينة	عضوا مناقشا
أحمد بن لخضر فورار	أستاذ التعليم العالي	بسكرة	عضوا مناقشا
حورية رواق	أستاذ محاضر	خنشلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2016/2015

الموافق لـ: 1437/1436 هـ



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 1

كلية اللغة والأدب العربي والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها



الفنون النثرية في آثار البشير الإبراهيمي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري الحديث

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد منصوري

إعداد الطالبة:

لبنى دلندة

لجنة المناقشة			
الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة	الصفة
العربي دحو	أستاذ التعليم العالي	باتنة	رئيسا
محمد منصوري	أستاذ التعليم العالي	باتنة	مشرفا ومقررا
معمر حجيج	أستاذ التعليم العالي	باتنة	عضوا مناقشا
محمد العيد تاورتة	أستاذ التعليم العالي	قسنطينة	عضوا مناقشا
احمد بن لخضر فورار	أستاذ التعليم العالي	بسكرة	عضوا مناقشا
حورية رواق	أستاذ محاضر	خنشلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2016/2015

الموافق لـ: 1437/1436 هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ٢٥ وَيَسِّرْ لِي

أَمْرِي ﴿ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ ٢٧

يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿ ٢٨ ﴾

سورة: طه الآية 25-28

□ شكر وعرفان

بكل شرف وافتخار أرفع آيات الشكر
والعرفان إلى أستاذي الدكتور محمد
منصوري شاكرة له حرصه الشديد
على تثمين القيمة العلمية، وتفانيه في
عمله ووفائه لمهنته.

كما أشكر له صبره معي في هذه
الأطروحة، وسعيه لإخراجها في
أحسن صورة، فكان نعم المرشد طيلة
إنجازها .

مَقْدَمَةٌ

استطاع الشعر أن يكون سيد فنون القول قديماً، وهي حقيقة سجّلها التاريخ، ووقعها كبار الشعراء عبر حقبة زمنية متعددة، إنّه الفنّ العريق الذي تمكّن من هزّ كيان الأمة بيت واحد، فحمّل همومها وأفراحها في طياته، وقد ظل على تلك الحال على الرغم من خروج فنون أدبية أخرى إلى الساحة الفنية، ولعل ذلك ما يفسر ميل الإنسان بفطرته إلى كل ماله وقع على الأذن، وفي المقابل لم يحظ النثر باهتمام يماثل الاهتمام بالشعر لفترة ليست بالقصيرة على الرغم من كونه هو الآخر يتمتع بقدره الاحتواء الشاملة لجميع سياجات الحياة الإنسانية، ومع ذلك فقد استطاع -على الأقل- أن يرسم صورة الأدب في العالم العربي عامة وفي الجزائر خاصّة خلال زمن غير قصير.

فالمطلّع على النثر الأدبي الجزائري الحديث يجده فسيح الأرجاء، ثري المعادن يستجلب الدارسين لاستنطاق موارده واكتشاف كنوزه والوقوف على قيمته في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، وإحياء الروح الوطنية والقومية، وذلك بإحداث تغيير شامل في جميع الأصعدة.

وبدءاً من الثورة التغييرية التي وقفت في وجه فرنسا الاستعمارية، تألّق نجم الكثيرين من رواد الإصلاح الإسلامي وعلى رأس هؤلاء النجوم الساطعة " محمد البشير الإبراهيمي " الذي أدى دوراً سجله التاريخ وحفظته الأجيال، ما جعل حقّه علينا قائماً في دراسة نثره الثري، فقد فرض فكره بمنطق لا ينكره الماضي ولا يتنافى مع المستقبل، ولذلك استحق هذا الفكر الموسوعي المتنوع الخلود.

من هذا المنطلق، جاء اختياري لهذه الشخصية الجزائرية الغزيرة الإنتاج، المتنوعة المصادر، فكان وقوفي عند آثاره الأدبية كشفا لجهود بطل عايش الثورة وسايرها، واكتوى بنيرانها. أمّا الموضوعات التي استقاها من واقعه المرير، وعالجها في قوالب فنية متنوعة بأسلوب متفرد يتمتع بخصائص فنية تعكس عبقريته في التحكم في تقنيات اللغة التي حملها منطلقاته الفكرية والفنية، وكلفها برسم مساره الكتابي والفني الملتحم بالواقع، والمتأصل بروح إسلامية عريقة فهو ما سنفصّل فيه في مواطن مختلفة من هذا البحث.

وبناء على ما سبق جاءت الأطروحة موسومة: "الفنون النثرية في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي"، وهو موضوع يعالج - في نظري - جانبا مهماً من الجوانب المتعددة والمتنوعة لشخصية هذا المصلح الأديب، متعدد المواهب، متنوع المعارف، موسوعي الأفكار. أمّا عن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار البحث في فنون النثر الإبراهيمي فأذكر:

أولاً: إعجابي الشديد بشخصية "الإبراهيمي" القوية، وبأسلوبه الجزل الذي كلّما وقفت عنده انبهرت لسحر بيانه، وأحسست أنه الأديب العبقرى الذي يتقن تسخير اللغة لتكون ترجمانا لأفكاره ورؤاه وخواتمه، فينجلي سحرها وبيائها على لسانه.

ثانياً: أنّ "الإبراهيمي" من الشخصيات الإصلاحية البارزة في تاريخ الجزائر، وعلى الرغم من هذه المكانة المرموقة، لم يحظ - في اعتقادي - بالاهتمام الذي يليق بعظيم مكانته ليس في الأدب الجزائري فحسب، بل على مستوى الأدب العربى ككل. وقد سجلت هذا النقص خاصة فيما يتعلق بالمحتوى الفنى لرؤاه الإصلاحية في حدود ما اطلّعت عليه من الدراسات. خاصة وأنّه يُنظر إليه على أنّه من أكبر

أعلام النهضة الإصلاحية، ومَن حملوا على عاتقهم هموم الأمة الإسلامية قاطبة؛ ولذلك جاءت هذه الدراسة -على تواضعها- لتكون خطوة إحيائية لذلك المجهود الفكري الجبار الذي يحمل بين ثناياه جمالية أسلوبية فنية رائعة، فقد أفنى الشيخ سنوات من عمره في جهاد فكري وروحي يستحق كل الإجلال والدراسة والاهتمام.

ثالثاً: ارتقاء "الإبراهيمي" بفكره الإصلاحي وأسلوبه الأدبي إلى مجامع كبار رجال التجديد في العالم الإسلامي حقيقة لا يصل إليها إلا ذلك القارئ والدارس المهتم بآثاره القيمة، ومع بقاء بعض هذه الحقائق غائرة ضمن آثاره، وبحاجة إلى الكثير من الدارسين لإجلائها، فقد دفعتني الرغبة لأن أكون واحدة من القارئ الكاشفين والمفسرين لها.

رابعاً: عطفاً على السبب السابق؛ فالوقوف عند آثار الإبراهيمي يفتح آفاقاً قرائية واسعة، ويكشف عن أفكار إصلاحية نيرة، لا يزال صيتها قويا عند عشاق الحركة الإصلاحية قبل الثورة التحريرية وفي أثنائها، وقد رأيت أن وقفة مطولة عند هذه الآثار في دراسة لمحتواها الموضوعي والفني قد تبعث في نفوس شبابنا ما كان يتمتع به الإبراهيمي الثوري الإصلاحي من قوة وحماسة وحب الوطن والغيرة على كل مقوماته بنفَس جديد، وفكر أصيل، كما قد تكشف عن تلك المعاناة المبررة التي عاشها الشعب الجزائري، وواجهها بصبر لا يوصف وعزيمة لا تقهر.

وأمام القيمة الموضوعية والفنية لآثار الإبراهيمي، والتي رفع بها مقام الأدب الجزائري راودني جملة من الأسئلة مفادها:

كيف صاغ كاتبنا أفكاره للنهوض بمصلحة البلاد والإنسانية قاطبة؟ وما هي أهم الأشكال الفنية التي دبح ضمنها رؤاه الإصلاحية؟ وما هي القيمة الفنية لهذه الأشكال الثرية؟ وما هو سر هذه الفصاحة التي يتمتع بها لسان الإبراهيمي وإلى أي مدى استطاع بفضلها أن يسهم في إنجاح خطته الإصلاحية؟ وفيما يتجلى فكره الموسوعي الضخم؟ وإلى أي مدى يمكن لصداه أن يمتد من الماضي نحو الحاضر، نحو المستقبل؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة المرتبطة بعنوان الرسالة حتم علينا رسم خطة تكونت من بابين بعد مقدمة ومدخل وأخيرا خاتمة، وقد وردت بالشكل الآتي:

الباب الأول: خصصته لتبيان الأنواع الثرية في كتابات الإبراهيمي ومجالاتها، وقد قسّمته إلى فصلين بينت في الفصل الأول بعض الأشكال الثرية التي ضمّنها الإبراهيمي رؤاه الفكرية في محاولة لإعطاء صورة عامة حول هذه الفنون، ثم بينت مختلف المجالات التي وردت ضمنها أكبر موضوعاته.

فورد العمل بالطريقة التالية:

الفصل الأول: الأنواع الثرية، وتتمثل فيما يلي:

أولا المقال: خصصته لدراسة المقال عند الإبراهيمي، وأبرزت أهم خصائصه الفنية.

ثانيا الخطابة: وقفت عند فن الخطابة عند الإبراهيمي، ثم أبرزت خصائصه العامة، كما بينت أهم

أنواع هذه الخطب التي وردت ضمن آثاره.

ثالثا الرسالة: عاجت فيه فن الرسالة، وذلك بتخصيصها عند الإبراهيمي.

رابعاً المقامة: تحدثت فيه عن المقامات بصفة عامة في التوطئة، ثم خصصت دراسة هذا الفن عند

الإبراهيمي.

خامساً فن السير وأدب الرحلات: خصصته لمعالجة فن السيرة وأدب الرحلة، وذلك لعلاقة

القرب الموضوعي والفني بينهما، فتناولت أولاً فن السيرة والتراجم بإعطاء صورة شاملة حول هذا الفن، ثم

خصصته بالدراسة لدى "الإبراهيمي"، وتناولت ثانياً أدب الرحلة بإعطاء صورة شاملة عنه، ثم وقفت

عند أهم رحلات الإبراهيمي.

الفصل الثاني: يدور الحديث فيه حول أهم القضايا والموضوعات التي دمجها الإبراهيمي عبر فنونه

النثرية، حيث تناولت فيه ما يلي:

أولاً المجال الاجتماعي: وفيه عرض لأهم القضايا التي عالجها الإبراهيمي ضمن هذا المجال، وقد

اخترت منها قضايا الأسرة وقضايا التعاون الاجتماعي وقضية المرأة.

ثانياً المجال الديني: وفيه بيان لأبرز الرؤى الفكرية الدينية التي شيدها الإبراهيمي عبر فنونه، وقد

اخترت من ضمنها فهمه للقرآن الكريم، وتجديده لفهم العقيدة الإسلامية، ووصفت ثورته الجائحة ضد

البدع والخرافات.

ثالثاً المجال السياسي: تناولته بصورة موسعة، بحيث بينت في الجزء الأول منه أهم القضايا الخارجية

التي تناولها قلم الإبراهيمي، وقد اخترت منها القضية الفلسطينية، وقضايا المشرق الإسلامي، ثم قضايا

المغرب العربي، كما خصصت الجزء الباقي لتوضيح أهم القضايا الداخلية التي صورها الإبراهيمي عبر

فنونه، وقد وقفت عند قضية الاستعمار باعتبارها القضية الجوهرية التي تدور حولها معظم الفنون النثرية عند الإبراهيمي، كما تناولت أيضا إحدى أهم هذه القضايا السياسية والتي تتمثل في قضية فصل الدين عن الحكومة.

رابعاً المجال الثقافي والتربوي: وقد وقفت عند آرائه حول قضية التربية والتعليم، كما بينت رأيه في قضية التعليم العربي الحر.

الباب الثاني: خصصت هذا الباب لدراسة المحتوى الفني لنشر الإبراهيمي، حيث تناولت فيه معظم القضايا الفنية الكبرى التي تحيط بإبداعه الأدبي مستهلة هذا الباب بتمهيد عام ثم قسمته إلى ثلاثة فصول كما يلي:

الفصل الأول: تناولت فيه روافد اللغة الإبراهيمية ومكوناتها، ثم وقفت عند البناء اللغوي لفنون الإبراهيمي، حيث تحدثت عن طبيعة لغته الكتابية ثم وصفت موسوعية معجمه، مفردات وتراكيب وبناء جمل اسمية وفعلية، ثم خصصت جزءاً كبيراً من الدراسة للوقوف عند أسلوبه المتنوع في آثاره، فتحدثت عن نماذج من هذه الأساليب بما فيها السخرية والتعريض والاستهزاء والتهكم وغيرها...

الفصل الثاني: خصصته للبناء البلاغي لدى الإبراهيمي، ووقفت عند مفهوم الصورة عند القدماء والمحدثين ثم تحدثت عن أهم أنواع الصور البيانية من تشبيهية واستعارية وكنائية.

الفصل الثالث: فيه بيان للذوق البديعي الإبراهيمي حيث وقفت عند أهم القضايا البديعية التي

وشّحت فنونه، فتناولت المحسنات اللفظية مركزة على جانب الاقتباس من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف، وكذلك السجع، ولزوم ما لا يلزم.

كما تناولت أيضا المحسنات المعنوية معتمدة في ذلك على دراسة الطباق والتكرار كنماذج للدراسة.

وخلصت في خاتمة هذا البحث إلى ملاحظات ونتائج استقيتها من فنون النثر الإبراهيمي بشكل عام.

وعلى الرغم من الثراء الذي يطبع كتابات الإبراهيمي إلا أن ما كتب حوله يعد في مجمله غير كاف للإحاطة بهذا الفكر الموسوعي وحتى أصل بالبحث إلى المبتغى فقد عمدت إلى مجموعة من المصادر والمراجع، تمثلت في مدونة البحث: "آثار الإبراهيمي"، و"عيون البصائر"، و"الإبراهيمي في قلب المعركة". والمراجع غير المباشرة وهي المساعدة، أذكر منها على سبيل التمثيل: "الحركة الوطنية الجزائرية"، و"دراسات في الأدب الجزائري الحديث" لأبي القاسم سعد الله، و"بناء النسق الفكري عند البشير الإبراهيمي" لأحمد بوقرورة، و"أدب النضال في الجزائر" لأنيسة بركات درار، و"نثر الإبراهيمي" لمحمد العيد تاورته وغيرها من الأبحاث والدراسات التي تمّ ثبوتها في قائمة المصادر والمراجع.

أما عن المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فقد استعنت بالمنهج التحليلي الاستقرائي للغوص في أفكار الإبراهيمي، ووصف رؤاه الفكرية ثم تحليلها وفق معطيات المنهج التاريخي الذي يكشف الظروف الزمانية المؤثرة في كتاباته، وبالتالي يوضح انعكاساتها على أفكاره ومواقفه.

وفي كل ذلك اعترضتني كباقي الباحثين عراقيل، سواء من حيث المراجع أم من حيث تفسير بعض القضايا الغامضة في آثار الشيخ، برغم محاولاتي شرحها ولكنها وجدت طريقها إلى الحل بكثرة البحث والتنقيب، ولم أكن أشعر بالضيق منها لإدراكي أن أسلوب الإبراهيمي في الكتابة هو أسلوب فاخر يتطلب قارئاً مستفزاً وصبوراً يعيد القراءة مرات عديدة ليحيط بفكره خُبراً.

وأشير في الختام أنني لم أتناول بالدراسة كل الفنون النثرية التي وقَّعها الإبراهيمي عبر آثاره؛ فقد أدرجت بعض ما سماه تصديراً أو تمهيداً أو تعليقا ضمن فن المقال لاحتوائها على منهجيته من مقدمة وعرض وخاتمة، كما أنني لا أدَّعي أنني أحطت بكل الجوانب المكونة لقوالبه الفنية على اعتبار ضخامة الموضوع.

أخيراً هذا جهدي، إن نال القبول فبتوفيق من الله، ثم بفضل من أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور **محمد منصوري** الذي رعاه منذ أن كان فكرة حتى استوى في صورته الأخيرة فله مِتي كل الشكر، على نصحه، وتوجيهه، وتبصيري بأخطائي، كما أتوجه بأخلص عبارات الشكر والتقدير إلى كل من قدم لي يد المساعدة والنصح.

والشكر موصول إلى كل أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة على ما بذلوه من جهد في سبيل إخراج الأطروحة في صورة أحسن، فلهم مني جزيل الشكر وجميل العرفان.

والله من وراء القصد.

مدخل

لمحات من عصر الإبراهيمي

فترة الاحتلال الفرنسي (1954-1962)

- أولا: الوضع السياسي في الجزائر
- ثانيا: الوضع الاجتماعي في الجزائر
- ثالثا: الوضع الثقافي في الجزائر

لمحات من عصر الإبراهيمي:

عندما يشتد ليل الأمة، ويتأزم حالها يرسل الله إليها نورًا خفيا يحو ظلامها بعبقرية خالصة، وينير دربها بحكمة وثبات العلماء والمصلحين من عظماء الإنسانية سواء كانوا أنبياء أو رجال فكر أو قادة شعوب، يظهرون في عصور الاضطراب الفكري عندما تختلط السبل، وتتضارب المفاهيم وتشتد الأزمات، وينتشر الظلم والظلال والنفاق، ولذلك بات ظهور العظماء مرتبطا بما يسبقهم من إرهابات وتحركات، وبما يصاحبهم من وعي في سير حركة التاريخ⁽¹⁾، ومن ثمّ نخوضهم لتقديم الحلول التي تليق بمستوى الوضع القائم للأمة في شتى المجالات.

ولأنّ لا تكاد تنجو أمة من تأثيرات مصائب عصرها مهما أحيطت بسياج العباقة، فذلك لأن عوائق الدهر مصاحبة للإنسان منذ نشأته الأولى؛ ولذلك يتطلّب الوصول إلى تحديد سياسة واضحة لإيقاظ وعي الأمة وفكرها، وتعبئتها قراءة تأملية عميقة لواقع المجتمع، ودراسة شاملة لكل عناصر هذا الواقع، وتتبع لكل الأحداث التي مرت وتمر بها الأمة في مختلف مجالات الحياة⁽²⁾.

وعليه فإن التفتن لروح العصر، هو أسلم الطرق لإبراز عظمة الشخصية التي تسعى لقلب الواقع إلى شكله اللائق، وهذا ما يدفعنا إلى رسم صورة شاملة لعصر الإبراهيمي وما يحيط به من ظروف لكي نصل -على ضوءها- إلى إبراز قيمة الإبراهيمي في تغيير واقع بلاده إلى الأحسن،

(1) ينظر محمد الملي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طح، الجزائر، 1980، ص 36.
(2) ينظر، عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد 2، 2010، ص 45.

ومن ثم نقف عند عظمة وعبقريّة هذا الرجل الذي «لم يعيش لنفسه وإنما عاش لدينه ووطنه ولغته وبني ملته، وتلك هي العظمة، وذلك أبرز مظاهرها في حياته وبعد مماته»⁽¹⁾.

فتحليل عصر الإبراهيمي، ومعرفة أهم الظروف التي شكلت مناخه، والإحاطة بمختلف المشاكل التي كان يتخبط فيها شعبه يكشف لنا عن أهم القضايا التي سال لأجلها حبره، وتأملت لها نفسيته ومشاعره، وانعكست في آثاره، لأن جوهر الأدب يكمن في كونه «عطاء حضاري يتفاعل مباشرة وباستمرار مع البيئة التي يعيش فيها فيتبناها ويقودها»⁽²⁾، كما يتفاعل أيضا مع العصر الذي يولد فيه فيسايره ويحتويه، ولذلك يعد الأدب انعكاسا للواقع، وصورة للحياة وتعبيرا عنها يؤثر فيها ويتأثر بها⁽³⁾، فالمجتمع بكل ما يحيط به من ظروف هو الأرض التي بني فيها الأدب، ولذلك يعد الاعتناء بالشجرة وإهمال أصلها الذي تنبت فيه ضربا من الظلال⁽⁴⁾، ولا نعجب إذا عندما نقرّ بأن أدب الإبراهيمي كان مرافقا لواقع الجزائر وبخاصة أثناء الثورة التحريرية وما قبلها فسجل أحداثها، ونقل مآسيها، وسرد ثوراتها، ومجد بطولاتها، وصور وحشية فرنسا وأساليبها القمعية تجاه الشعب الجزائري.

وتأسيسا لكل ذلك يجدر بنا أن نقف وقفة شاملة لهذا الواقع الذي تمخض عن أحداث ولدت عباقرة فأنجبت آثارا لا يستهان بها في مكتبة الأدب الجزائري ونخص بالذكر في هذا الموقف

(1) مسعود فلويسي، مقياس الرجولة والعظمة في نظر الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 28.

(2) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرقص والتحرير، دار العلم للملايين ببيروت، ط1، 1981، ص 13.

(3) ينظر، محمد الطاهر يحيوي، أحاديث في الأدب والنقد، شركة شهاب، الجزائر، ط1، د ت، ص 13.

(4) ينظر، عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1983، ص 23.

الشيخ "البشير الإبراهيمي" الذي يعد نعمة ربانية أنعم بها الله سبحانه وتعالى على الجزائريين في أصعب فترات تاريخهم؛ لأنه عاش أغلب حياته في ظل الاحتلال الفرنسي.

ويجدر بنا في هذا الموقف أن نرسم صورة مختصرة لواقع الجزائر في عهد الإبراهيمي مركزين على فترة الاحتلال الفرنسي باعتبارها الفترة الأكثر سوادًا في حياة الجزائريين، وذلك في بعض مجالات الحياة إذ لا يمكننا الإحاطة بكل الأحداث والوقائع في هذا المدخل، وإنما نهدف إلى رسم صورة جد مختصرة لظروف الجزائر في بعض الميادين، ونحسب بأنها أرضية صالحة لإنبات ثمرات الإبراهيمي في عيون القراء عبر متن الأطروحة، ولذلك نتفادى الخوض في تفاصيل الجزئيات ونرسم الصورة باختصار شديد في شكل ومضات خاطفة.

أولاً: الوضع السياسي في الجزائر

الوقوف على الواقع السياسي في فترة الاحتلال الفرنسي يوحي بمدى الظلم الذي تعرض له الشعب من قبل الاستعمار، فقد دخلت الجزائر حينها «مرحلة قائمة من الظلم والجبروت والوحشية، وأصبحت مرتعا لعملية تقتيل وتعذيب جماعية»⁽¹⁾، ووجد الشعب نفسه محاصرا في أرضه يواجه الموت في كل لحظة، فالطيران الفرنسي كان يلقي آلاف القنابل على الصخور وعلى المواطنين معا، فيحرق القرى والسكان والأشجار⁽²⁾، ويهدد الكبار والصغار دون رحمة ولا شفقة.

(1) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، قسنطينة، ط1، 1987، ص 16.

(2) ينظر، عبد الله ركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 1982، ص 9.

لقد اتّسمت الحياة السياسية في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي «بالاضطراب والعنف المستمرين، فالجزائريون ما رقا لهم جفن، ولا هدأ لهم بال، طول هذه الفترة الزمنية المظلمة»⁽¹⁾، فقد عاشوا حياة هائجة اتسمت بالقلق والتوتر والألم والتدمير، فالمستعمر كان يهدد حياتهم وكيانهم واستقرارهم، بطغيانه وجبروته وظلمه، ووجوده في بلدهم هو «محور هذا الاضطراب السياسي المستمر»⁽²⁾.

وقد انتهج المستعمر سياسة الظلم والجور ضد الشعب الجزائري، وكان يفرض سلسلة من القوانين الجائرة^(*) في عالم التشريع الإنساني، طمس بها حقوق الإنسان الجزائري طمسا محابها شخصيته وقضى على كيانه، فلم يترك له مجالا للحرية حتى في قضاء أبسط حاجاته، إذ عليه أن يأخذ الإذن حتى في تحركاته الخاصة، ناهيك عن سلب ممتلكاته، وإغلاق مساجده وتحويل العديد منها إلى كنائس، وتخريب مدارسه التي «استحالت إلى أطلال كأنها لم تغن بالأمس شيئا»⁽³⁾.

وقد عُرف عن الشعب الجزائري نخوته وحماسه وتعلقه الشديد بمبادئه وقيمه، لذلك كانت له ردة فعل أعنف مما يتصور الاستعمار خاصة حين يتعلق الأمر بعرضه وشرفه، فهناك مبادئ كالإسلام والأرض المقدسة والقومية عندما تتردد تجعل الشعب مستعدا للثورة⁽⁴⁾، ولدفع الأرواح في سبيلها، وقد استنكر الشعب بأكمله هذه السياسة الظالمة، وعارض هذه القوانين الجائرة التي

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ص 10.

(2) المرجع نفسه، ص 11.

(*) نذكر من هذه القوانين الجائرة مصادرة الأراضي الجزائرية، وتجريد الشعب من مقوماته الشخصية وأرزاقه وممتلكاته...

(3)، (4) ينظر، محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص 38.

(4) ينظر، محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص 38.

تأثر لجبروتها العديد من الفرنسيين أنفسهم واعتبروها ضغطا على الرعايا يشابه بقايا العصور الوسطى⁽¹⁾.

وفي ظل هذه الظروف القاسية وجد الجزائري نفسه خاضعا لسلطتين: «سلطة قانونية وهي سلطة باريس، وسلطة فعلية وهي الجزائر، أما سيدنا المعمّر فإنه يمارس كلا السلطتين: فهو فرنسي في باريس وجزائري في الجزائر، أما الجزائري فلا حول ولا قوة ولا سلطة لا هنا ولا هناك، في باريس غائب محجور، وفي الجزائر قاصر محجور»⁽²⁾.

وأمام هذا التدمير العام الذي كان يديه الشعب الجزائري جراء هذه السياسة القمعية، كان الشعب يعبر عن رفضه المطلق لها بإشعال ثورات ملتبهة «لا يكاد الاستعمار يخمد واحدة منها هنا، حتى تضطرم له أخرى هناك»⁽³⁾ بزعامة أبطال أدركوا أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فانفجرت الثورة التحريرية التي فرضتها الأحداث وسياسة الاستعمار الخبيثة، واشتد ظلام الجزائري يصاحبه نور الأمل في تخليص البلاد من الاستعمار، ودخل الطرفان معارك حاسمة اتبعت أثناءها فرنسا سياسة العناد التي كانت تحول دون أن يسمع الاستعمار الفرنسي «صرخات الوطنيين والمصلحين المدوية»⁽⁴⁾، وكانت فرنسا توهم الجزائريين بحسن نواياها في التكفل بهم، وهو في حقيقة الأمر تصرف لا يغدو أن يكون مراوغة من أجل ربح الوقت للتوغل في الاستيطان، وامتصاص غضب الجزائريين من جهة أخرى.

(1) ينظر، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، الجزائر، طو، 1983، ص 90-251.

(2) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، د ط، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د ت، ص 125.

(3) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأبي في الجزائر، ص 11.

(4) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 296.

ومجمل القول فإن الوضع السياسي في فترة الاحتلال الفرنسي التي عايشها الإبراهيمي كان وضعاً متميزاً مضطرباً مظلماً ومزرباً في شتى المجالات، وكلّ الأساليب المستخدمة من قبل فرنسا تُعد مشاريع لذرّ الرماد في الأعين تلجأ إليها السلطات الاستعمارية لتحقيق أغراضها، وفرض هيمنتها، وقد أدى هذا الوضع المتأزم إلى تدهور الحياة في شتى مجالاتها.

كل هذه الظروف والأوضاع المزرية نلمس صورها في آثار الإبراهيمي بشيء من التفصيل؛ لأن الإنسان ابن بيئته وقد تأثر الإبراهيمي بهذه الظروف القاهرة التي مرّت بها بلاده فحارب بقلمه وكان عضواً فعالاً نشطاً في شتى مجالات الحياة، وسنكشف عن أهم مداخلاته في هذا المجال في باب المحتوى الموضوعي بالتطرق لأهم ما ورد في آثاره في المجال السياسي، وأيضاً في بقية المجالات.

ثانياً: الوضع الاجتماعي في الجزائر

لقد كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي منقسماً إلى عدة فئات، تختلف كل فئة حسب طبيعتها الاجتماعية ومكانتها من حيث الامتيازات، ولكن تتفق كل الفئات في تكملة بعضها البعض من حيث ممارسة نشاطاتها المتعددة، وكانت هذه الطبقات تختلف في مستواها المعيشي باختلاف المدن والأرياف حسب مداخل كل مجموعة سكانية⁽¹⁾.

(1) ينظر، صلاح العقاد، المغرب العربي، المكتبة الأنجلومصرية، طو، 1969، ص 160-161.

أما بعد الاحتلال فقد انقسم المجتمع الجزائري بفعل السياسة الفرنسية قسمين هما المجموعة الأوربية والجالية اليهودية، والفئة الجزائرية المسلمة، وتبعاً لهذا التقسيم كانت الطبقة الأولى تتمتع بحقوق وامتيازات على حساب أصحاب الأرض⁽¹⁾ وذلك بدعم من السياسة الفرنسية التي كانت تمنحهم أراض جزائرية مسلوقة عمداً من أصحابها، وتمكنوا بمرور الزمن من السيطرة الكاملة على المصالح الاقتصادية والحيوية في البلاد⁽²⁾، ويؤكد ذلك ما ورد في تقرير لجنة التحقيق البرلمانية في نوفمبر على لسان أحد المستعمرين المتمردين الذي اعترف -بكل جرأة- قائلاً: «ونحننا الممتلكات التي وعدنا باحترامها كما وضعنا أيدينا على الممتلكات الخاصة من غير أن نعطي لأصحابها أي تعويض، بل لقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك في بعض الأحيان، فأجبرنا أصحاب الأملاك التي استحوذنا عليها على أن يدفعوا ثمن تهديم ديارهم، بل وحتى ثمن تهديم المساجد، لقد اعتدينا على حرمة المساجد والمقابر والمنازل والأماكن المقدسة عند المسلمين، لقد قتلنا رجالاً يحملون رخص المرور التي أعطيناها لهم، كما أننا ذبحنا كثيراً من الجزائريين لشبهة عارضة، لقد أبدنا قبائل بأكملها تبين بعد أنها بريئة، لقد حاكمنا رجالاً يقدسهم السكان الجزائريون لا شيء إلا لأنهم تجرؤوا على التعرض لغضبنا»⁽³⁾.

إن هذا الاعتراف الخطير يعكس همجية فرنسا في التعامل مع السكان والمجتمع، ويصور الحالة السيئة التي كان عليها الشعب إبان الثورة، فقد ضيق المستعمر الخناق على الجزائريين

(1) ينظر، بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، ج1، جامعة منتوري، 2009-2010، ص 54.

(2) ينظر، عبد الكريم بوصفصاف، الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية في حركتي محمد عبدو وعبد الحميد بن باديس، دكتوراه دولة، ج1، جامعة تونس الأولى، 1996-1997، ص 62-63.

(3) مجلة المقاومة الجزائرية، عدد 18، 1957، ص 4.

وخاصة في الأرياف بتجريدتهم من أراضيهم، وإتقال كواهلهم بالضرائب وتعجزهم اقتصاديا بكل الوسائل، إضافة إلى جميع محاولات المسخ والتدوين لكل الركائز التي تجمع الجزائريين وتلم شملهم، فقد حاول المستعمر القضاء على الدين الإسلامي، وقام بتجزئة القضاء، وإحالة الخصومات إلى القاضي الفرنسي لطمس الشخصية الجزائرية، كما غرس فكرة التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي وفرضها على الجزائريين لتفكيك شمل الشعب نتيجة الهجرة الجماعية الواسعة⁽¹⁾.

واستمرت سياسة التشريد من قبل فرنسا لطمس كل فئات الشعب الجزائري، ففي الريف تم تفجير السكان وتجهيلهم ونفيهم إلى الجبال والفيافي والقفار حتى تحول الفلاحون إلى بؤساء ومشردين⁽²⁾ فانتشر الفقر والجوع والحرمان والمجاعة والموت بشكل واسع، وهذا الوضع المؤلم مشابه لما حدث يوم 8 ماي 1945 والذي ارتكبت فيه مجازر فاقت في وحشيتها حدود التصور ضدّ أبرياء عزل خرجوا بكل براءة إلى الشوارع يهتفون بطريقة سلمية مذكرين فرنسا بوقفتهم إلى جانبها خلال الحرب، فكافأهم بقتل أكثر من 45 ألف جزائري رجالا ونساء وبإحراق الديار، وانتهاك الحرمات الإنسانية⁽³⁾، فكانت الحياة الاجتماعية في هذه الفترة مضطربة مؤلمة وهائجة، وأصبح الفرد الجزائري يبحث عن الهروب من هذا الوضع المزري نحو الأفطار العربية والإسلامية وحتى نحو أوروبا غير أن لعنة المستعمر لحقتهم حتى في هجرتهم «فالمهاجرون الذين دفعهم الفقر

(1) ينظر جولييان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، تونس، الدار التونسية، دط، 1976، ص 127.

(2) ينظر، بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، ج1، ص 56.

(3) ينظر، نفسه، ص 57.

والاضطهاد إلى البحث عن مصدر للرزق خارج وطنهم بعد نهب ثرواتهم والاستيلاء على أراضيهم يتعرضون للظلم والاضطهاد في فرنسا خاصة»⁽¹⁾.

أما وضع المرأة فقد كان مزريا في شتى الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بسبب الوضع العام للبلاد الناجم عن السياسة القهرية الفرنسية حيث يندر وجود امرأة مثقفة، وهذا الحرمان يتصل بوضع الرجل نفسه وتأثره بالسياسة الاستعمارية⁽²⁾، وقد عالج الإبراهيمي قضية المرأة في آثاره وعمل على دعمها والحفاظ على حقوقها بما يتصل بالشرع ويمنحها مكانتها اللائقة.

وعموما فقد تأثر الإبراهيمي بكل هذه الأوضاع المزرية وسال حبره طويلا في تحليلها وعلاجها والبحث عن حلولها، فحث على التعاون الاجتماعي وعالج قضية المرأة والعديد من القضايا الاجتماعية التي سنعرض لها بشيء من التفصيل في مواقعها من هذا البحث.

ثالثا: الوضع الثقافي في الجزائر

يتفق الباحثون والمؤرخون الذين عالجوا فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر على أن «الثقافة العربية كانت مزدهرة نسبيا، وأن معظم السكان الجزائريين - فترة الاحتلال - كانوا يتقنون القراءة

(1) جولييان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسير، ص 57.

(2) ينظر، أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى، 2010، ص 46.

والكتابة! والحساب وأن عدد المدارس كان يفوق ألفي مدرسة»⁽¹⁾ منتشرة عبر الأرياف والمدن على حد سواء.

أما بعد الاحتلال الفرنسي في الجزائر فقد تغيرت الأوضاع بفعل سياسة الاضطهاد للثقافة واللغة الوطنية واعتماد التجهيل والفرنسة والإدماج والتغريب⁽²⁾، فقد فرض المستعمر لغته منذ الاحتلال متجاهلا اللغة العربية، بل واعتبرها لغة أجنبية في عقر دارها⁽³⁾، واتخذت فرنسا لأجل ذلك إجراءات سياسية، فحرمت المراكز الثقافية من مواردها المالية المخصصة، واستولت على بنايات التدريس، وفرضت لغتها في ميدان التعليم والقضاء⁽⁴⁾، وأصبح فتح مدرسة في نظرها «أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخائر»⁽⁵⁾.

إن هذه الرغبة القوية في طمس الثقافة العربية الإسلامية تنبع عن إدراك واع بأن هذه الثقافة هي العائق الرئيس الذي يمكن أن يتصدى لسياستها القامعة والمشوهة والماسخة⁽⁶⁾، ولذلك وجب طمسها مهما كان الثمن، فهي تهدف إلى إحداث تحول جذري في الفكر القومي لتقطع صلة الشعب الجزائري بثقافته وتاريخه وتربطها في الآن ذاته باللغة والفكر الفرنسيين⁽⁷⁾، وتحاطلت بذلك القرارات والقوانين لتجسيد هذا الطمس للثقافة العربية وامتدت حتى إلى سجن كل من يحاول أن ينشأ مدرسة للتعليم مع المجرمين واللصوص «فلقد شهدت الجزائر مناظر مخجلة

(1) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ص 60.

(2) ينظر، رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1913-1956، الجزائر، د ط، 1981، ص 104.

(3) ينظر د أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، ص 33.

(4) ينظر، نفسه، ص 33.

(5) الفضيل الورثيلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط، 1992، ص 90.

(6) ينظر، أحمد محساس، التعليم والثقافة في الجزائر، خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، الجزائر، ع 85، 1985، ص 57.

(7) ينظر، أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، ص 33.

يساق فيها معلمو اللغة العربية في موكب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد»⁽¹⁾.

وقد اقتنعت فرنسا بأن بعث الشخصية الجزائرية وارتباطها بتاريخها ولغتها ودينها سيفك كل قيودها، ويفتح لها آفاقا واسعة عبر جميع مجالات الحياة، ويصاحب هذا الانفتاح تأثيرات عديدة خاصة في الجانب السياسي نفسه، وهو الأمر الذي أدركته الإدارة الفرنسية منذ بداية الاحتلال مما دفعها إلى اضطهاد اللغة الوطنية وطمس معالمها⁽²⁾، وقد خططت لكل ذلك فسمحت بالتعليم في المدارس الفرنسية من أجل خلق نخبة ثقافية وسياسية مفرنسة، تستعملها كأداة هدم لمقومات الشخصية الجزائرية⁽³⁾.

وفي الوقت الذي حارب المستعمر اللغة العربية واعتبرها أجنبية في دارها شجّع تعلّم اللغة الفرنسية، وكان هدفه في ذلك إنشاء طبقة من الجزائريين تتقن لغته وتتشبع بآدابه وتحمل معه لواء الدعوة إلى الفرنسية والتّعلق بحضارة المستعمر⁽⁴⁾، وكان يهدف في كل ذلك إلى إحداث فتنة بين أبناء الجزائر ليدفعهم للتّزاع فيما بينهم، وقد نجح في ذلك إلى حدّ كبير، فأصبح المتخرجون من معاهده «لا يرون الحياة إلّا في ظلّه، ولا التقدم إلّا في السّير في ركابه»⁽⁵⁾، ولكنهم تفتنوا بمرور الزمن لهذه السياسة القاتلة، وأدركوا أن المستعمر يظلّ عدوا مهما تعددت المواقف.

(1) الفضيل الورثياني، الجزائر الثائرة، ص 90.

(2) ينظر، أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، ص 34.

(3) ينظر، أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 198.

(4) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا دراسة فنية تحليلية، ص 32.

(5) نفسه، ص 32.

وأما عن الظروف التي كانت محيطة بالمتعلمين فكانت غير مناسبة تماما نتيجة الوضع الاجتماعي المزري والذي انعكس على جميع المجالات خاصة في الأرياف، واستمر المستعمر في نشر سمومه وقوفا ضدّ التعليم العربي، فاستولى على المكتبات العمومية، ونهب مخطوطاتها وكتبها وأحرق معظم آثارها⁽¹⁾، وامتدت يده إل كل ما يمت بصلة للوضع الثقافي، ودخل في صراع مع النّخبة الواعية، وحارب حركات التعليم الحرّ التي سعت إلى فتح مدارس حرّة، وتوعية الشعب بضرورة التشقّف والخروج من دائرة الجهل، غير أن نتائج هذه الحركة ظلت ضئيلة بسبب اضطهاد الحكومة الفرنسية وطمس كل محاولة لإنقاذ الأبناء من الجهل⁽²⁾.

وأما عن الصحافة الجزائرية فقد ظهرت باللغة العربية في مطلع القرن العشرين، ولكنها ظلت تحت الرقابة الاستعمارية، واستهدفتها في مضمونها واتجاهها، وتعرضت للضغط والتوقيف والمصادرة، «فما أن تصدر أعداد قليلة من صحيفة عربية لا تتملق الاستعمار، ولا تبارك مساعيه، حتى يلاحقها ويضيق عليها الخناق، ثم لا تلبث -نتيجة صمودها وتحديها- أن تخر شهيدة بفعل قرار التعطيل»⁽³⁾، وقد عانى الإبراهيمي الكثير من الويلات من وراء هذه السياسة الفرنسية، ولكنه تصدى لها بحكمة وثبات.

عموما ما يمكن استخلاصه عن الوضع الثقافي في عصر الإبراهيمي أنه كان وضعاً متأثراً بكل السلبات التي نجمت عن الاحتلال الفرنسي، فقد كادت الحياة الثقافية أن تنعدم بسبب سياسة الاستعمار تجاه الثقافة العربية، وقد برز ذلك من خلال قلة الإنتاج الفكري الذي كان

(1) ينظر، رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ص 94.

(2) ينظر، الإبراهيمي محمد البشير، عيون البصائر، ج2، القاهرة، دار المعارف، د ط، 1963، ص 225.

(3) يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا دراسة فنية تحليلية، ص 33.

محاطا بسياج من القيود المفروضة على المثقفين، إلا أن الإبراهيمي وأمثاله ممن يدركون قيمة الثقافة في تنوير العقول، والنهوض بالبلاد في جميع الميادين - نذكر على رأسهم بن باديس - لم يسمحوا بهذا الوضع المزري، بل وعملوا ما في وسعهم من أجل بعث الوعي والحفاظ على ركائز الوطن ومقوماته السياسية، وسنحاول تغطية هذا الجانب من الدراسة في باب المحتوى الموضوعي لنشر الإبراهيمي في المجال الثقافي بالتطرق لأهم نشاطات الإبراهيمي في هذا الميدان.

وإجمالاً لعبت كل هذه الأوضاع الثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها دوراً كبيراً في حياة الإبراهيمي وانعكست آثارها عبر قلمه، فترك أفكاراً في التوعية لا يزال صداها قائماً إلى يومنا هذا.

الباب الأول:

الأنواع النثرية ومجالاتها في كتابات

الإبراهيمي

الفصل الأول: الأنواع النثرية

– أولاً: فن المقال

– ثانياً: فن الخطابة

– ثالثاً: فن الرسالة

– رابعاً: فن المقامات

– خامساً: فنّ السّير وأدب الرحلات

أوّلا : فنّ المقال

– توطئة

1- المقال عند الإبراهيمي.

2- خصائصه.

توطئة

يعد الأدب بالنسبة للإبراهيمي وسيلة فنية لتبليغ رسالته الإصلاحية؛ لأنه كان بالدرجة الأولى عالما مصلحا، ومجاهدا متألقا بعلمه وقلمه، وفي الوقت نفسه كان يدرك جيدا أن الأدب صورة للحياة وتعبر عنها، يؤثر فيها ويتأثر بها، فهو ببساطة تعبير عن الإنسان في هذه الحياة⁽¹⁾، وعن كل ما يحيط به من مؤثرات؛ ولذلك يعد سبّاقا في فهم أوضاع الأمة وتشخيص أمراضها ورسم مستقبلها، فكانت الثورات غالبا ما تسبقها نهضة أدبية وفكرية تدل عليها وتقود الجماهير إلى طريقها⁽²⁾ من أجل الوصول إلى وعي حضاري يتماشى مع مقتضيات العصر.

وقد دعا الإبراهيمي إلى ذلك بكل ما أوتي من براعة في القول، وعبقريّة في الفكر، وإرادة في التغيير، متخذا من الأدب وسيلة لتبليغ دعوته وأداة لبلوغ مقصده، فوجد نفسه مجبرا على أن يكون صحفيا ماهرا، وخطيبا بارعا، يستعمل القلم البليغ في تدييج المقالات الصحفية المتنوعة، ويستعمل اللسان الفصيح في إلقاء الخطب والمحاضرات، ويستعمل فنّ الرسالة لإدارة بعض شؤون جمعية العلماء، كما ينقّس عن روحه ببعض الروايات والقصص، وله محاولات مختلفة في السيرة وأدب الرحلات.

(1) ينظر، محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، شركة شهاب، د ط، د ت، ص 13.

(2) ينظر، سعدون حمادي، الأدب والوعي القومي آراء فيما يجب أن يكون، مركز دراسات الوحدة العربية، مجلة دور الأدب في الوعي القومي، بيروت، ط1، 1980، ص 31.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نسلط الضوء على أهم هذه الأشكال النثرية في صورة مختصرة مكثفة، نهدف من خلالها إلى إعطاء صورة عامة حول هذه الفنون النثرية التي صبّ فيها الإبراهيمي عصارة فكره العبقري ونستهلها بفن المقال.

فن المقال:

لا مشاحة في أن فن المقال من أرقى فنون التعبير والتأثير في الأدب العربي؛ لأنه يعبر بجلاء عن نوازع وجدانية عميقة بإمكانها أن تعكس معاناة شعب بأكمله؛ ولذلك «طغى فنّ المقالة في أدب الإبراهيمي طغيانا بارزا على ما سواه من فنون النثر، ويرجع هذا إلى ما كانت تمثله الصحافة في عهده من أهمية وما تؤدّيه من دور، فقد كانت الوسيلة الوحيدة لنشر الإنتاج الأدبي وحفظه من الاندثار»⁽¹⁾ الذي يهدده.

ولأن الإبراهيمي رجل مصلح فإن المقالة هي الفن الأنجع لتبليغ رسالته الإصلاحية والأنسب للتعبير عن عواطفه المتأججة وتفجير طاقاته الإبداعية⁽²⁾ التي تفيض شوقا لخدمة الوطن، وقد كان الإبراهيمي من هواة الصحافة التي دفعته إلى الإبداع خاصة في جريدة البصائر التي تعتبر بحق تراثا زاخرا لا يجب أن يستهان به؛ لأنه لعب «دورا كبيرا في تطوير الأدب العربي»⁽³⁾ من خلال جريدة "عيون البصائر" التي تزخر بأروع ما أبدعه الإبراهيمي في مجال المقال الذي حمله رسالة الإعلام والإصلاح والتربية والإرشاد، وتنوير البصائر وإيقاظ الهمم، وجعله

(1) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص35.

(2) ينظر، نفسه، ص 36.

(3) أنيسة بركات درار، أدب النضال في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1984، ص 170.

وسيلة فعالة للقيام بهذه الرسالة النبيلة التي تستقي من واقع المجتمع الجزائري بصفة خاصة والمجتمع الإسلامي والعربي بصفة عامة⁽¹⁾.

كان الإبراهيمي يتتبع الأحداث ويصوغها في قالب فني بأسلوب راق يجمع بين الرزانة في المواقف والبراعة في التحليل بأسلوب يقف القارئ أمامه موقف المبهور من جودته العالية، وأفكاره الثيرة التي مسّت قضايا متعددة في مجالات مختلفة، وقد تميز الإبراهيمي بنشاطه الواسع في هذا الفن وأسلوبه الساحر فكان بذلك رائدا لهذا الفن في الجزائر⁽²⁾، وعليه سنحاول إعطاء صورة واضحة حول هذا الفن وأهم خصائصه.

1- المقال في أدب الإبراهيمي.

لقد خاضت جمعية العلماء صراعا عنيفا مع الاتجاهات الفكرية المناهضة لها مما أدى إلى تطور فن المقال وازدهاره حيث أن فترة ما بعد تأسيس جمعية العلماء كانت «فترة ازدهار فن المقالة الأدبية في الجزائر»⁽³⁾ وذلك نتيجة لعدة عوامل أهمها انتشار الصحافة العربية في الجزائر، فكان الإبراهيمي الفارس الذي وقف في وجه هذا الصراع بمقالاته المميزة، فأبدع إبداعا أنار به النثر العربي إنارة بالغة، ويؤكد عبد الملك مرتاض ذلك بقوله: «لقد أتيح للنثر العربي الحديث أن يفيد من هذا الصراع الحاد فائدة ما كانت لتقع له فيما لو ظل السكون الفكري قائما، والاتفاق

(1) ينظر، عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 39.

(2) ينظر، نفسه، ص 35.

(3) نفسه، ص 35.

في الرأي سائدا، إن أجمل المقالات الأدبية وأنقاها أسلوبا، وأحرّها عاطفة، وأقواها حجّة، وأوضحها محجة، نتجت عن هذا الصراع الفكري العنيف»⁽¹⁾.

وقد برز إلى الساحة أدباء استلهموا المواقف البطولية، وأبدعوا بأفكارهم النيرة «فظهرت المقالات ذات النفس الطويل، والأسلوب الأنيق والتحليل المنطقي العميق»⁽²⁾ ليس حبا للصراع في حد ذاته وإنما تعبيرا عن الآراء حول هذا الصراع الذي حرك فنّ المقال عند إبراهيمي حركة كبيرة نحو الأمام جعلت فن المقال في أدبه يطغى طغيانا بارزا على ما سواه من بقية الفنون، فاتخذ منه «وسيلة وأداة للاتصال الفكري بقرائه حول أوضاعهم، وأداة تبصرهم بسبل تعبير واقعهم»⁽³⁾ الذي أنهكه الاستعمار وطغت عليه ظروف الحياة وملابساتها، فكان المقال هو الفن الأنسب لتفجير طاقات النفس المتأججة بمشاعر حب الوطن والغيرة عليه، فجاءت عيون البصائر حاملة أروع ما أبدع إبراهيمي في فن المقال بأسلوب مميز ضمن صورة إنسانية عامة تصلح في كل مكان وزمان، كما هو الحال في مقاله "الإنسان أخو الإنسان"⁽⁴⁾ الذي لا يمحو أساسه زمان ولا يطمس عماده مكان.

والمتمعن لمقالات إبراهيمي يجد أن معظمها يصب في المجال الإصلاحي والسياسي والاجتماعي والديني وسنعرض لمحتواها بشيء من التفصيل في الباب الموالي، أما المقالات التي كتبها عن شخصيته وتناولت حياته الخاصة فقد أبدع في تصويرها بأسلوب مميز مركزا في ذلك

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 89.

(2) نفسه، ص 89.

(3) محمد العيد تاورتة، نثر الشيخ محمد البشير إبراهيمي في الفترة (1929-1939)، رسالة ماجستير، معهد الأدب والثقافة العربية، 1970-1980، ص 593.

(4) إبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 291.

على «الفكرة»، وارتقاء أسلوبه الأدبي، وبلاغة لغته الشعرية، وجمال تصويره الفني، وعنايته البالغة بالجرس اللفظي والإيقاع الموسيقي العام للمقالة»⁽¹⁾ التي ضمّنها زفراته وآهاته، وصبذ فيها أفراحه وأحزانه وآماله، ولعل مقالاته في محنة فلسطين وخواطره عن الشباب الجزائري من أحسن النماذج لذلك.

2- خصائصه:

لا يتعذر على القارئ المدقق في مقالات الإبراهيمي أن يستخلص جملة من خصائص هذا الفن، وأن يهتدي إلى آفاقه بعد التأمل وإمعان النظر، ذلك أن الإبراهيمي هو «المبدع الذي يشحن اللغة بطاقات حية تستمد ظلالها وخطوط ألوانها من تناسقها وتوازنها، وبخاصة حين تتأمل التوزيع الموسيقي، والأضواء النفسية على رقعة المقال»⁽²⁾، فإذا به يعكس شخصية الإبراهيمي المفكر الرصين، صاحب النظرة الثاقبة والفكرة الصائبة والصورة الصادقة، يلامس الواقع بمرارة ويصبه في مقالاته بحرارة توصل لهيها إلى القارئ فيندمج في واقعها ويعتق أفكارها التي يصبها الإبراهيمي بمنهجية المقالة الأدبية، فتأتي حاوية للتقسيمات الأساسية للمقال من مقدمة يمهّد بها للقضية التي هو بصدد تناولها، ثم عرض يتوسع به في أفكاره مدعماً آراءه بكل الأدلة والبراهين والشواهد ثم خاتمة يصل بها إلى تحقيق الهدف الذي سطره، فتأتي «مقالاته منظمة مرتبة كحبات اللؤلؤ التي تنتظم في عقد واحد، إذ نجد لكل مقالة عنواناً يتناسب ومحتواها، تعرض عرضاً فنياً متسلسلاً من المقدمة إلى العرض إلى الخاتمة، فضلاً عن تقسيم الموضوع إلى

(1) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 36.

(2) محمد زغينة، المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1926-1953)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2005، ص 80.

فقرات تيسر على القارئ متابعة الفكرة والإحاطة بأجزائها»⁽¹⁾ التي تتوالد فيما بينها لتجسيد صورة كاملة يتعانق فيها جمال التعبير بروعة الفكر، وإذا باللغة مطاوعة للفكرة بقوة الإقناع وحسن التحليل ووضوح الرؤية بأسلوب ساخر، لأن السخرية واللهجة العنيفة سمة واضحة في مقالات الإبراهيمي خاصة عندما يتعلق الأمر بمنكر من المنكرات، أو الرغبة في الإطاحة بالعدو وكسر شوكته.

وخير نموذج لذلك حلقات "تعالوا نُسائلكم"⁽²⁾ التي يصور فيها حالة ادعاء الطرفين للجنة النبوية فيقول: «إن الحق فوق الأشخاص وإن السنة لا تسمى باسم من أحيائها»⁽³⁾، فيرسل أفكاره في أسلوب ساخر ساخط، لأن الإبراهيمي رجل مقدم لا يخشى أحداً، فهو «حين يناقش خصمه يرميه بالفاظ حداد كأنها شفرات ماضية، أو شظايا محرقة... وكأن حروف ألفاظه لهب، وجمله جمر، وعباراته الجارحة سيّاط من عذاب»⁽⁴⁾، وهذا الأسلوب يبرز بقوة مع الاستعمار والطريقين وغيرهم، وهذه السخرية تزيد أسلوبه جمالا بما يبدعه من سجع، كما يصل وقعها في نفس العدو فيستفزه، غير أن «السخرية عند الإبراهيمي لا تفارق الجدّ، لأنها ليست مقصودة لذاتها من أجل الترفيه والإضحاك وإنما هي وسيلة لإبراز الفكرة وتدعيمها من جهة، وإقحام الخصم وكسب أنصاره من جهة ثانية»⁽⁵⁾، وهو ما يسعى الإبراهيمي إلى تحقيقه، وبالإضافة إلى ذلك فهو يلجأ إلى أسلوب التعميم في معالجة مقالاته حتى تصبح صالحة في كل

(1) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1988، ص 139.
(2) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، ط1، الجزائر، 1987، ص 40.
(3) نفسه، ج1، ص 53.
(4) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 376.
(5) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 142.

زمان ومكان، معتمدا في كثير من الأحيان على محفوظه الواسع من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث العربي، فلا يكاد حديث يخلو من هذه الأسس المتينة التي تكسبها صفة البقاء والخلود.

تلكم إذن بعض الخصائص العامة للمقال عند الإبراهيمي، هذا الفن الذي أخذ حصة الأسد في أدب الإبراهيمي، والذي تألق به إلى مراتب النجومية، فعد مكسبا ضخما ليس فقط ضمن إطار الأدب الجزائري فحسب بل على مستوى الأدب العربي ككل.

ثانيا: فنّ الخطابة

– توطئة

1- أنواع الخطابة عند الإبراهيمي

2- خصائصها عند الإبراهيمي

توطئة

الخطابة فن أدبي قديم لا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، فمنذ أن اجتمع الناس في مكان واحد وتفاهموا بلسان واحد عرفوا الخطابة؛ لأن الرؤى والأفكار تختلف فيما بينهم، ومتى حاول الفصيح منهم أن يستميل من يخالفه فهو خطيب؛ ولذلك نجد «أن الناس في حياتهم القديمة تسلّحوا بأسلحة مادية للدفاع والعدوان وتسلّحوا بالسلاح المعنوي»⁽¹⁾ المتمثل في اللسان، ولا تزال الخطابة إلى الآن سلاحاً مرهفاً للأمم تتباهى به في المجالس العلمية وعلى المنابر وفي المعارض وغيرها، وقد استعملها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في نشر رسالاتهم وتبليغ دعوتهم فأذابوا بها الجليد المتحجر في النفوس، ونفذوا بها إلى قلوب الناس فاستعطفوها، وأقنعوها وأثروا فيها.

وبمجيء الإسلام ودعوته إلى توحيد الخالق ونبد الوثنية، برز هناك «صراع عنيف بين الدعاة وبين المتمسكين بالقديم، وانضم هذا الصراع إلى الحرية فانتعشت الخطابة»⁽²⁾، ومنذ ذلك الحين إلى عصرنا هذا وهي تتفاوت قوة وضعفاً في مختلف المناطق العربية.

وبرز في الساحة الجزائرية خطباء كثيرون وعلى رأسهم البشير الإبراهيمي الذي أبدع في هذا الفن إلى حد البراعة مما أكسب خطبه سمة الخلود.

(1) ديل كارنيجي، فن الخطابة، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص 7.

(2) نفسه، ص 8.

1- أنواع الخطابة عند الإبراهيمي

تعد الخطابة من أكثر الفنون الأدبية التصاقا بالواقع المعيش؛ فهي «تتناول جميع نواحي الحياة، العلمية والأدبية والفنية والفلسفية والاجتماعية والسياسية والدينية والقضائية»⁽¹⁾، واختلاف هذه النواحي وتعددتها أدى إلى تعدد أنواعها، فجاءت الخطب الدينية والخطب السياسية والخطب الاجتماعية...

وقد تناولت في معظمها مشكلات المجتمع بعامة، كما أعلنت في محتواها الإجمالي عن الرغبة في التغيير نحو الأفضل ويتجلى المقصد نفسه في اهتمام الإبراهيمي «باستجلاب العبر والعضات من مباحث التاريخ وسير أجداده مع الحث على ضرورة إحيائها، ويتوقف نجاح تلك الجهود على تطهير النفوس من الأمراض الاجتماعية والنفسية»⁽²⁾ الخطيرة التي يعد الجهل من أكبر الأسباب لظهورها، فتبرز قيمة الخطابة عنده في محاربته لكل البدع وتزكية النفوس وإنارة دروبها، حيث كان يخطب هو شخصيا في كل مناسبة صغيرة أو كبيرة، عامة أو خاصة، ثم كان يدفع أصحابه إلى الخطابة وتوجيه الشباب في هذا المجال للتدرب على امتلاك ناصية القول فيها، ملحا على العلم في خطابه لأبناء أمته: «إنكم لا تكونوا أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونوا أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله»⁽³⁾، إنها نظرة واعية لمكانة العلم في حياة الفرد لأنه الأساس الذي يسير في جميع المجالات نحو الأمام، ولذلك فالإبراهيمي يربط قوة العمل بقوة العلم، ويركز على ضرورة التفرغ له تفرغا تاما.

(1) علي بوملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة العربية للطباعة والنشر، صيدا، لبنان، 1970، ص 135-136.

(2) محمد بن قاسم بوحجام، من أساليب السخرية في أدب الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 72.

(3) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 284.

ويسعى الإبراهيمي إلى توعية الفكر في مختلف ميادين الحياة، ولذلك تنوعت خطبه بتنوع هذه الميادين، فجاءت الخطب الاجتماعية التي تعالج قضايا المجتمع وتهدف إلى إصلاح حاله وتوعية فكره، كما جاءت خطب السياسة لإصلاح المجال السياسي الذي يعد من ركائز صلاح الوطن، أما الخطب الدينية فتهدف إلى تصحيح العقيدة وغرس الإيمان الصحيح في النفوس من أجل بعث فرد صالح بتفكير سليم، وتهدف الخطب العلمية لإنارة الفكر وتوسيع الثقافة، وله «خطب أخرى كثيرة في مناسبات مختلفة في فتح مدارس جديدة لجمعية العلماء في شتى أنحاء الوطن، أو حين تبنى المساجد التي كان الشعب يؤسسها بماله الخاص، وكذلك له خطب كثيرة في رحلاته وجولاته داخل الوطن وخارجه شرقا وغربا مثل خطبته التي ألقاها في نادي القلم ببغداد عام 1953 ويومها قالت عنه صحف العراق أنه يشبه قس بن ساعدة»⁽¹⁾ وغيرها من الخطب التي أبدع فيها الإبراهيمي أيما إبداع فسجلها للزمن ووقع الدهر خلودها.

وهكذا أثبت الإبراهيمي زعامته لهذا الفن، ووقع اسمه ضمن قائمة أكبر الخطباء في العالم العربي، وأكثرهم ارتباطا في إلقاء القول على الناس «فقد كان يسحرهم ببيانه، ويأخذهم بعذوبة لسانه، ويملك عليهم نفوسهم وقلوبهم وعقولهم بما كان يصدر عنه من زخرف القول البليغ»⁽²⁾ الذي يأسر النفوس ويستميلها للخضوع تحت أهدافه المسطرة.

(1) عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 30.
(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 282.

2- خصائصها عند الإبراهيمي

إن الخطابة هي الوسيلة الكلامية المؤثرة التي يلجأ إليها المصلحون لتبليغ رسالتهم، وبلوغ مقاصدهم، وهي الأداة الفعالة التي «لا يستغني عنها حاكم ولا زعيم ولا قائد ولا مصلح ولا نائب ولا معلم ولا كاتب ولا ممثل»⁽¹⁾؛ لأنها ترمي إلى غاية إنسانية هي إصلاح ما فسد من أحوال الناس؛ ولأن الإبراهيمي من أبرز رواد الإصلاح في الجزائر، فقد أبدع في هذا الفن إلى حد البراعة بفضل ما يتصف به من صفات في الخطيب البارع، فقد كان «شديد العارضة، فصيح لساناً، ساعده على ذلك محصول من اللغة وفير، وإلمام بالأمثال وبراعة في حسن إجرائها في مضاربها، ومعرفة عميقة بطرائق الكلام، وقدرة على التصرف فيه»⁽²⁾ حسب ما يقتضيه الحال، مرتجلاً في كثير من الأحيان هذه الخطب ارتجالاً «مما جعل الأكثرية الغالبة منها تضيع فيحرم فن الخطابة العربي من إنتاج جميل وفير»⁽³⁾ لتبقى حسرة في نفوس هواته، ويبقى المصدر الوحيد هو أقوال الذين استمعوا إليه وهو يخطب؛ لذلك فالحكم على خطبه يبقى رهين ما جادت به ذاكرة المستمعين لتلك الخطب التي أبهرت الحضور، فقد ألقى ذات يوم خطبة مرتجلة في الخمسينات تحت عنوان ((الله والذرة))، ولم يكن الحديث عن الذرة مألوفاً على الأسماع في تلك الفترة، وكان بين الذين حضروا الخطبة لفيف من العلماء، وقد استمرت الخطبة أكثر من ساعتين، والشيخ ما يزال واقفاً يتناوب الراحة بين رجليه وعصاه، والناس من حوله مشدوهون إليه، وكأنهم ينظرون إلى ألعاب ساحر، وما انتهى الشيخ من خطبته حتى قام من وسط الحاضرين -الأستاذ علم الدين

(1) طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، دار المعارف، مصر، ج1، ط2، 1968، ص 7.

(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص282.

(3) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 46.

عز الدين التنوخي-، وكان من العلماء المتفتحين، يكره شيوخ العمائم كما يكره الكتب الصفراء، وطلب من الإبراهيمي أن يسمح له بتقبيل عمامته تقديرا لشخصه، واعترافا بعلمه وسمو مقامه⁽¹⁾، وعلو مقصده الذي كان سببا في توجيهه الفكري، وتوحيد المعتقد، وتربية الذوق الأدبي والفني الذي تألق على مدى الزمان، فصار فنا رائقا، وإبداعا شائقا⁽²⁾ يخدم الإنسانية جمعاء عبر سائر العصور.

وقد ملك الإبراهيمي «ناصية القول واستوعب البيان العربي وتبحر في اللغة العربية وآدابها وامتاز بالقدرة على توليد الكلام، وامتاز بالموهبة الأدبية وعرف بالارتجال»⁽³⁾ الذي هو أول سمة تمتاز بها خطبه، كما أن المتمعن في تلك الخطب يلحظ عدة مميزات أخرى لا تختلف كثيرا عن تلك التي أوردناها في المقال من حيث المضمون، والمنهجية السليمة، والارتباط بالواقع، والبعد عن المجاز، والخيال، والاستناد إلى الشواهد المنطقية والبراهين العقلية والاستنارة بكتاب الله -عز وجل- والسيرة النبوية الشريفة دون التفريط في التراث العربي والإسلامي، فإذا به يبدع «بنسق مميز أكسبه القدرة على رؤية الأشياء، والأحوال بما بلائم الأزمنة ماضيا وحاضرا ومستقبلا»⁽⁴⁾، وبهذه الميزة الزمنية كتب لخطبه الخلود، فلا الزمن ولا معطياته يكتسبان القدرة على محو أفكاره الخالدة، ومعتقداته الراسخة، وهو في كل ذلك لا يستعرض قدراته على القول، وإبراز فصاحته في اللغة بقدر ما يؤكد على أغراضه الإصلاحية، وأهدافه الوطنية على الرغم من امتلاكه لناصية القول، واستيعابه للبيان العربي وتبحره في اللغة العربية، وامتيازه بالقدرة على توليد الكلام إلى

(1) ينظر، محمد مهدي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 151.

(2) ينظر، د. مبروك زيد الخير، الإمام الإبراهيمي في شعر محمد العيد آل خليفة، مجلة الوعي، ع2، ص 32.

(3) عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 27.

(4) عمر أبو أحمد بوقرورة، خصوصية الفكر عند الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 58.

درجة الارتجال⁽¹⁾ وخلق المتعة في النفوس، بأسلوب ممتع يجمع بين الإيقاع والإيجاء بلغة قوية مثيرة للعاطفة، وهي سمة تمتاز بها خطب الإبراهيمي؛ لأن التأثير في المستمع هو هدفه الأول والأخير، فهو يستهلها بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم وبالثناء على الصحابة والتابعين، وكل ذلك في جمل قصيرة مسجوعة بوقع موسيقي يشد بها ذهن المستمعين ويجلب انتباههم ويدعم ذلك بعبارات تتخلل كلامه مثل: أيها الإخوة الكرام، وأيها الناس... وهو أسلوب يتبعه لجلب الاهتمام وكسر الشroud الذهني.

أما فيما يخص نهايات خطبه فهو يشحنها بطاقة لغوية مكثفة تبعث في النفس رغبة قوية في الانسياق نحو ما سطره الإبراهيمي من أهداف، فينتهي المستمع إلى أفكار حديثة بأنفس جديدة تبعث على الرغبة في الحياة برؤية أفضل يصاحبها الأمل والتفاؤل، ولذلك كان حريصا على انتقاء الكلمات انتقاء ذكيا، وما ذلك «إلا دليل على معرفة بالغة بأن النفوس والأذهان لاتصفو إلا إذا صفت الكلمات من الشوائب»⁽²⁾، فتستوي في الذهن كأنها لآلئ من الأحجار الكريمة، وتتناسق لتشكّل عقدا فريدا يزيده كتاب الله لمعانا وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- إشراقا، كما تزيده نفحات من التراث العربي والإسلامي قوة وبهاء.

ويسمو الإبراهيمي بخطبه سموا يجعلك تشعر بالروعة تلامس السمع والأبصار، فتسري في النفس هينة لينة لتبث فيها روعة انتقاء المفردات واستواء التراكيب والجمل⁽³⁾، فتخرج من معانيها المعجمية إلى دلالتها الإيحائية؛ لذلك نلاحظ تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء،

(1) ينظر، عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، ص 26.

(2) عبد الحفيظ بورديم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 76.

(3) ينظر، نفسه، ص 75.

وطريقة الإلقاء، وإن كنا نعجب للغة فالعجب الأكبر في أفكاره التي بثها عبر لغته، فكان بحق من أعظم الخطباء واستحق -بحق- أن «ينحني له العقاد إجلالا وتقديرا، وأن ينتزع من أقرانه وأترابه لقب جاحظ عصره»⁽¹⁾.

تلكم بعض الخصائص العامة لفن الخطابة عند الإبراهيمي.

(1) محمد بلقاسم بوحجام، من أساليب السخرية في أدب الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 72.

ثالثاً: فنّ الرسالة

— توطئة

— فن الرسائل عند الإبراهيمي

- توطئة

يعتبر فن الرسالة من أبرز الفنون التي اهتم بها قلم الإبراهيمي، وأسهم في ارتقائها بشكل كبير إيماناً منه بأنها «ألصق بالنفس من غيرها من الأنواع الفنية والأدبية الأخرى»⁽¹⁾؛ ولذلك عُدت من أهم الوسائل الأدبية التي ميزت الأدب العربي عن الآداب الأخرى «لأن الآداب الغربية نشأت، ونمت، ونضجت قبل أن تعرف على نطاق واسع هذا النوع من الأدب»⁽²⁾، وقد تبوأ مكانة كبيرة في النثر العربي، وسجل حضوراً قوياً في ميادين الحياة المختلفة «سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافية ؛ ولهذا فإنه يعد الوسيلة الفعالة أكثر من غيره من الفنون الأدبية الأخرى سواء كانت نثرية أم شعرية فهو يعبر عما يجول في خاطر الأشخاص من آراء وأفكار»⁽³⁾ والتنفيس عن مكنوناتهم النفسية ومشاكلهم الاجتماعية.

والمتتبع لتطور هذا الفن يلحظ أنه «بدأ يزدهر في الأدب العربي منذ عصر التدوين وخاصة حين أنشأت المكاتبات الديوانية واتسعت رقعة الخلافة العربية الإسلامية، فكان لابد من كتاب ينقلون أوامر الخلفاء إلى الولاة أو يشرحون شؤون السياسة والاجتماع»⁽⁴⁾، فبدأت العناية بهذا الفن، وبرز كتاب استعرضوا مهاراتهم اللغوية وقدراتهم الفكرية، وفتحوا المجال لآرائهم ومشاعرهم فأبدعوا فيه وعلى رأسهم ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وغيرهم، وقد عرف هذا الفن «نقلة نوعية منذ مجيء الإسلام، فعُدَّ الوسيلة الفاعلة في تبليغ المقاصد وبخاصة بعد اتساع رقعة الخلافة

(1) محمد العيد تاورتة، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 615.

(2) أنطيوخ بطرس، الأدب تعريفه -أنواعه- مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2011، ص 103.

(3) الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 79.

(4) عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، ص 34.

الإسلامية⁽¹⁾، وبلغ هذا الفن ذروته في الصياغة اللفظية، فاتسم بالملاءمة بين الموضوع والأسلوب وكثرة السجع لتحقيق المتعة الأدبية⁽²⁾، غير أن تراجع الأدب العربي في عصر الانحطاط أدى إلى تراجع هذا الفن أيضاً، فقد عمّه التكلف وطغى عليه السجع⁽³⁾، غير أن مجيء الأمير عبد القادر قد حرك هذا الركود ودفع بالنثر الجزائري إلى التحرر من قيود التكلف، فأصبح التعبير عن الأفكار وكل القضايا التي تحدث في الواقع بشكل أوضح⁽⁴⁾ لكن دون مغالاة؛ لأن فن الرسالة استعاد كثيراً من أصالته، فبرز في صورة أرقى من حيث اللغة والعبارة في ظل الحركة الإصلاحية⁽⁵⁾.

- فن الرسائل عند الإبراهيمي:

لقد أسهم الإبراهيمي في تطور هذا الفن بشكل كبير، فقد تمكن «بما عُهد فيه من جمال في التعبير، وقوة في التفكير، وموهبة في التصوير، وبراعة في فن الكتابة الأدبية بوجه عام، أن يمنح هذا الفن قيمته، وبيئته مكانته في الجزائر، فينطلق به من لا شيء إلى منزلة حسنة، يرفع بذلك رأس النثر الأدبي في الجزائر إلى السماء في شيء من الاعتزاز والافتخار»⁽⁶⁾، ومن أروع النماذج لذلك نذكر رسالته "مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة"⁽⁷⁾ و"رسالة الضب"⁽⁸⁾ وغيرها.

(1) ينظر، عيسى مدور، الخطابة في النثر الجزائري (موضوعاتها وخصائصها) (1931-1954)، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2005/2004، ص 17.

(2) ينظر، عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، ص 34.

(3) نفسه، ص 34-35.

(4) ينظر. عيسى مدور، الخطابة في النثر الجزائري (موضوعاتها وخصائصها) ص 19.

(5) ينظر، عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، ص 44.

(6) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 310.

(7) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 652.

(8) الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج2، ص 40.

وتشكل الرسائل الأدبية في آثار الإبراهيمي جزءاً ضئيلاً من مجمل نثره، فقد وصل إلينا من رسائله عدد قليل جداً نجا من الضياع، وعلى الرغم من قلته إلا أنه يعد مكسباً كبيراً لما يتضمنه من براعة في الكتابة، وقوة في التصوير، ولعل أحسن مثال لذلك رسالته المعنونة بـ: "مناجاة مبتورة، لدواعي الضرورة"⁽¹⁾، فهي «تعد حقاً درة غالية من درر الأدب العربي، ونادرة عزيزة من عيون الرسائل الأدبية، استطاع الإبراهيمي فيها أن يجتاز حدود اللغة ليسبح في آفاق الخيال، ويترفع عن بساطة التعبير ليملاً الرسالة بمختلف ألوان الصور»⁽²⁾ بلغة جميلة موحية، وقد كتبها وهو منفي بقرية آفلو، وعندما جاءه نبأ وفاة صديقه الحميم ابن باديس بقسنطينة أراد الشيخ أن يذهب إلى هناك ليشارك إخوانه في هذا المصاب الأليم، فلم يفلح في إقناع السلطات الاستعمارية بذلك، فاستعاض عن الذهاب برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بث فيها حزنه للمصيبة.

وتبدو الرسالة في قمة الإبداع الفني المشحون بكل أنواع الانفعالات النفسية لهذا المصاب الجلل؛ لأن ابن باديس كان صديقاً حميماً وفيّاً للإبراهيمي، يتخذ منه رداء لأعماله السياسية والإصلاحية في حياته فقد فيه الأخ والأب والصديق⁽³⁾، فجاءت الرسالة تأييناً لأعز الناس، وحسرة على الفراق الأبدي بأسلوب ساحر، فيه من عذوبة اللفظ، وصدق الشعور وقوة العاطفة، وكرم المعاني ما يهز النفوس ويدمع العيون، ولعلنا نزداد اقتناعاً بهذا الرأي حينما نقرأ

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 652.

(2) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 50.

(3) ينظر، عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 311.

مطلعها: «سلام يتنفس عنه الأفاح بأزهاره وإيراقه، ويبتسم عنه الصباح بنوره وإشراقه، وثناء يتوهج به من عنبر الشجر عبيره، ويتبلج به من بدر التمام على الركب الخابط في الظلام، منيره.

وصلوات وتحيات زكيات تنزل بها -من الملائكة الأعلى- الملائكة والروح، ونفحات ذكيات تعدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدق برهان الحق قولها الشارح بفعل المشروح وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادر الوعود، لا تخلف ولا تمين، وسحائب من الرحمت تتحمل عزاليها، و لوافح من الزفرات تسابق أواخرها أوليها على الجذث الذي التأمت حافظه على العلم الجرم، والفضل العد، وواري ترابه جواهر الحجار والذكاء، والعزم والجدة، وطوى البحر الزخر في عدة أشبار فأوقف مالا حد له عند حدا»⁽¹⁾.

بهذه العبارات المؤثرة الزاخرة بمعاني الكرم والوفاء افتتح الإبراهيمي رسالته التأبينية لنجم ملاء الدنيا وشغل الناس بما قام به من مقامات حسان أنار بها الكون بعلمه الواسع وفكره النير فمحا الجهل كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام، فالقارئ للرسالة يجد نفسه متأثرا لمرارة الفراق ومشاركاً في ذلك الجو الحزين الذي بكت له مظاهر الكون من أزهار ورعود وسحائب، ويمضي الإبراهيمي في هذه الرسالة مشيدا بما قدمه ابن باديس من مفاتيح لأبواب ومدارس في مجالات متعددة ومخاطبا قبره في صورة مؤثرة فيقول: «ياقبر! عز على دفينك الصبر! وتعاصى كسر القلوب الحزينة على من فيك أن يقابل بالجبر، ورجع الجدال، إلى الاعتدال، بين القائلين بالاختيار والقائلين بالجبر.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 652.

- يا قبر! ما أقدر الله أن يطوي علما ملأ الدنيا في شبر!

- يا قبر! ما عهدنا قبلك رمسا، وأرى شمسا! ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم

تلتهم فلكا دائرا، وتحبس كوكبا سائرا!...»⁽¹⁾.

إنها قمة الروعة في التصوير فلا يشبه بالكوكب إلا من تعجز الأقلام عن وصف قوته وشخصيته وعلمه وجاهه وفصاحته.

لقد كانت رسالة فريدة في نسيجها الفني، سخر فيها الإبراهيمي «أسلوبه القوي، ومحصوله اللغوي الوفير، وخياله المديد وعواطفه الجياشة المثقلة بهذا الوفاء الكبير»⁽²⁾ كما سخر لها طاقاته الفكرية ومشاعره القوية، فإذا بنا أمام إبداع نادر ومتميز في فن هذه الرسالة.

التي «جمعت خصائص المقالة في طولها ومنهجيتها، وخصائص المقامة في إيقاعها وجناسها، إلى خصائص الرسالة الأدبية في ذاتيتها وطابعها الخطابي»⁽³⁾.

وقد كتب الإبراهيمي رسالة أخرى بعنوان "رسالة الضب"⁽⁴⁾ وهو منفي في آفلو وسببها أن أحد أبنائه -وهو أحمد طالب الإبراهيمي- زار "الشيخ قصيبة" في عطلة أسبوعية، ولما أراد أن يؤوب الفتى إلى قرية آفلو، اشترى له (قصيبة) هدية صغيرة ليتسلى بها في الحافلة أثناء الطريق، وقد تمثلت في ضبّ وضعه الإبراهيمي على موقد في غرفته وأخذ يتأمله فأبدع رسالة سماها رسالة

(1) المصدر السابق، ص 657.

(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 314.

(3) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 50.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 266.

الضرب وقصد بها الشيخ "قصية"، ويمكن تصنيفها ضمن الرسائل العلمية الأدبية؛ لأنها جاءت «أشبه ببحث علمي أدبي، تتخذ من الضرب مطية لبث معلومات أدبية ولغوية ونحوية وعلمية، وهي بذلك تمثل لونا آخر من ألوان الكتابة النثرية في أدب الشيخ يختلف عن الرسالة الأدبية التي تغوص في الذاتية إلى حد كبير»⁽¹⁾ وهو يقول في مطلعها «وما زلت أنعتكم في رسائلي إليكم بالفيلسوف تنادرا ومباشرة وتظرفا وأنا لا أجهل أنكم تنطوون على شمائل فيلسوف أو تحملون روحه بالتعبير العصري حتى جاءت هديتكم لأحمد على ידי وهي عبارة عن ضرب»، وهو مطلع يصف لنا مناسبة الرسالة، وسبب تسميتها بالضرب، ويسترسل في الحديث بلغة راقية وأسلوب ساحر يقول: «فوا الذي خلق الضرب والدب وأنبت النجم والأب وخلق النوى والحب: لقد أذكرني ضبكم بما كنت أحفظه عما قيل في الضرب وعلى لسانه، وما ضرب من الأمثال المتعلقة به ما لو خلعت عليه أيام الصبا جددا ونفضت عليه ماء الشباب مدادا ومددا لم أكن لأذكره»⁽²⁾.

ويعضي في حديثه منتهجا نهج القدماء كالجاحظ في كتابه (الحيوان) حيث قسمها إلى ثمانية فصول مع مقدمة وخاتمة و«شحنها بمعلومات غزيرة في علوم الحيوان والنبات والفلك والفلسفة واللغة والأدب، مستعرضا بذلك ثقافته الواسعة»⁽³⁾؛ لأنه لم يأخذ مكتبته معه في منفاه وإنما اعتمد على ما تحمله ذاكرته من معارف أخذها من أمهات الكتب.

(1) محمد مهدي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 176.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 266.

(3) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 53.

ويختتم الإبراهيمي رسالته بشكر "قصيدة" الذي أهدى لولده هذا الضب الذي دفعه لهذا الإبداع الذي ورد غزيرا في معلوماته سخيا في أفكاره، عاليا في مكانته.

إن رسالة الضب متميزة في صياغتها في الأدب العربي بعامة، وهي امتداد واضح للأسلوب العربي القديم بمنهج حديث، وأفكار خالدة لا يمكن للزمن أن يلغيها أو أن يتجاهل قيمتها.

وقد ركزنا في تناولنا لفن الرسائل عند الإبراهيمي على رسالة "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽¹⁾، و"رسالة الضب"⁽²⁾ باعتبارهما من أجمل ما قدم الإبراهيمي في هذا المجال، فقد بلغتا مكانة عالية في مجال الكتابات، وهذا لا يعني أنه لم يكتب غيرهما، فقد وردت له أيضا رسائل عديدة منها "تحية غائب كالآيب"⁽³⁾ وهي لا تختلف عن سابقتها في قوة التعبير وحسن الصياغة ودقة العاطفة بالإضافة، إلى رسائل أخرى تعالج -في معظمها- قضايا دينية وأخرى رسائل إخوانية وتؤكد في مجملها أن الإبراهيمي قد وثب بهذا الفن إلى مراتب العز والافتخار بالفصاحة العربية الأصيلة.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 652.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 281.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 480.

رابعاً: فنّ المقامات

—توطئة

فن المقامات عند الإبراهيمي

توطئة

المقامة فن من الفنون النثرية المتميزة بمحتواها وشكلها، و«يعود الفضل في وضع أسسه وترتيبه على نحو يغد فيه شبيها بالقصة إلى بديع الزمان الهمداني^(*)»⁽¹⁾ الذي تتلمذ على يد أستاذه ابن فارس^(***)، وأعجب بمقاماته، فكتب على منوالها مقاماته التي بلغت أربعمئة مقامة، وعرفت بالمقامات الهمدانية، اشتهر بها حتى اعتقد «أنه أول المنشئين والمبدعين لهنها»⁽²⁾، فقد امتلك من الفصاحة والبلاغة وقوة التعبير ما جعله يبدع في فن المقامات إلى حد كبير، وقد كانت لحياته البائسة وظروفها القاهرة من -فقر وحرمان- الفضل الكبير في هذا الإبداع الذي ترعرع في القرن الخامس، وتطور على يد أبي محمد الحريري^(***) الذي قرأ مقامات الهمداني وتأثر بها وعمل على احتدائها في كتابة مقاماته التي كتبت له الشهرة⁽³⁾، فأبدع فيها إلى حد التفوق عليه، وانتشرت مقاماته بالشرق والغرب فألف الكتاب على غرارها مقامات مقلدة محاكية لها، ومن أشهر كتاب المقامات في الأدب العربي الحديث نذكر: "حسن العطار" في مصر و"لسان الدين ابن الخطيب" و"الألوسي" في العراق و"فارس الشدياق" و"اليازجي" في الشام، وما لياي

(*) هو أحمد بن الحسن بن يحيى ولقبه بديع الزمان، ولد ونشأ في همدان (967/357هـ) من بلاد فارس، تناظر مع الخوارزمي وانتصر عليه، مات في حدود الأربعين من عمره، ينظر أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفة، أنواعه، مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2011، ص 123.

(1) أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفة، أنواعه، مذاهبه، ص 123.
(**) ابن فارس أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزويني: أبو الحسن من أئمة اللغة من قزوين، وأقام رهنا في همدان، من تصانيفه "مقاييس اللغة" و"المجلد" و"الصاحبي"، راجع النيتمة 214:3، وفيات الأعيان 1، 35، نقلا عن محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 453.

(2) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، ص 453.

(***) هو أبو محمد القاسم، اشتهر بمقاماته التي قلد فيها الهمداني (1054-1122م).

(3) ينظر أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في الإنشاء، 110:14، نقلا عن د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ص 455.

سطيح لـ "حافظ إبراهيم" وحديث عيسى بن هشام لـ "محمد المويلحي" إلا ثمرة من ثمار تقليد "الحريري" والضرب على نمودجه في الأسلوب والصياغة الأسلوبية والأدبية⁽¹⁾.

ومهما تعددت الأهداف وتنوعت الأغراض لهذا الفن يبقى جوهره مرآة عاكسة لمفاسد العصر الذي كتبت فيه وهجاء له ولأهله الذين أعماهم بهرج الحياة وأموالها عن رؤية الحق⁽²⁾ فاتبعوا الضلال وغاصوا في الملذات، أما الغرض الشكلي لفن المقامات فهو لا يخرج عن تكثيف عميق لكل ما يتعلق باللغة والبيان وصبه في قالب سردي يكاد يستوفي شروط القصة.

المقامات عند إبراهيم

إن المتصفح لآثار إبراهيم يجد أن فن المقامة لم ينل حظا كبيرا كما نالته فنونه النثرية الأخرى، ذلك أن الهدف الأساسي في تفكير إبراهيم لا يكمن في استعراض قدراته اللغوية - فقط كما يتطلبه هذا الفن - بقدر ما كان يهدف إلى الإصلاح في شتى مجالاته، وما اللغة عنده إلا وسيلة مطاوعة لتصوير رؤاه الف كرية وأبعادها المستقبلية، ولا يعد ذلك نقصا في لغته لأن براعته اللغوية لا جدال فيها، وإنما جديته الصارمة ورغبته القوية في الإصلاح صوبت اهتمامه بالكتابة في فنون أخرى كالمقالة والخطابة، فهو «رجل يعتمد على الحجة الصحيحة والمنطق المستقيم في دعوته وإقناعه من غير أن يعرف للأكاذيب والاختلافات والإشاعات والدسائس والمؤامرات معنى أو يستخدمها بأي وجه من الوجوه»⁽³⁾.

(1) ينظر، شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، مصر، ط2، 1964، ص 82-83.

(2) ينظر، أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفه، أنواعه، مذاهبه، ص 124.

(3) محمد إبراهيم الكتاني، الإمام محمد البشير إبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 10.

غير أن عدم اهتمام الإبراهيمي بهذا الفن لا ينفي وجوده عنده، وما تأييد ابن باديس "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽¹⁾ إلا دليل على ذلك، فهي من أروع ما أبدع أمير البيان لتمثيل الوفاء عنده، فهي في الحقيقة رسالة أرسلها إلى رفقاءه وطلبتهم في قسنطينة من منفاه في آفلو بالجنوب الغربي الجزائري، وهو النموذج الذي ستركز الدراسة عليه لإعطاء صورة مختصرة حول خصائص هذا الفن عند الإبراهيمي، وهذه المقامة في الواقع هي مناجاة لقبر صاحبه ابن باديس، والواقع أن أول ما يلفت النظر إلى هذه المقامة هو تلك الصناعة الأسلوبية التي صاغها بها، والتي أبدى فيها تحكما عاليا في النسج اللغوي بلغ مستوى عاليا من البراعة الأسلوبية، انظر مثلا قوله: «يا قبر أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على أمة في رمة وعلى عالم في واحد»⁽²⁾.

ويقول أيضا: «يا ساكن الضريح، مت فمات اللسان القوال، والعزم الصوال، والفكر الجوال، ومات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد، ويتطاير عليه شرر الحقد، ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد، وتحلى به القوافي الشرد، ولا الدوي الذي كان يملأ سمع الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان، مات الرسم وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم»⁽³⁾؛ إنه أسلوب ساحر وبخاصة عندما يمتزج المعنى القوي مع روعة السبك، وتتعانق الفكرة مع اللغة في إبداع رفيع يتجاوب مع المقام بموجات شعورية تدفع إلى التأثر، وهي خاصية يمتاز بها أسلوب الإبراهيمي في جميع كتاباته.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 652.

(2) نفسه، ص 658.

(3) نفسه، ص 657.

إن قارئ هذه المقامة يتأثر بوفاة ابن باديس على الرغم من مرور سنين على هذا الحدث، ويتأسف لفقدان الجزائر لهذا العبقري الفذ، ولا يخفى دور لغة الإبراهيمي في هذا التأثير، فنحن حين نقرأ مثلاً قوله: «يا قبر ما عهدنا قبلك رمسا، وارى شمسا، ولا مساحة تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكا دائرا، وتحبس كوكبا سائرا، يا قبر قد فصل بيننا وبينك خط التواء، لا خط استواء، فالقريب منك والبعيد على حد السواء»⁽¹⁾ نتأثر لفقدان كوكب كان ينير الجزائر، وتعيننا هذه اللغة القوية على هذا التأثير الذي وقع له الإبراهيمي خاصية الخلود؛ لأن عبقرية اللغة عند الإبراهيمي خلدت مواقف كثيرة، كلما تفحصها القارئ بعمق شعر بمكانة ابن باديس ليس فقط في الجزائر بل يمتد ذلك إلى الوطن العربي.

وتبقى هذه المقامة إحدى الروائع في النثر الجزائري الحديث، تعكس فصاحة الرجل وقدرته على التلاعب بالألفاظ دون أن يفلت منه المعنى.

(1) المصدر السابق، ص 657.

خامسا: فنّ السير وأدب الرحلات

أولا: فن التراجم والسير

1- الترجمة

أ- الترجمة الذاتية.

ب- الترجمة الغيرية

2- السيرة عند الإبراهيمي

ثانيا: أدب الرحلة

- توطئة

- رحلات الإبراهيمي

أولاً: فنّ التراجم والسير

لقد تم تخصيص هذا الفصل لمعالجة فن السير مع أدب الرحلات على اعتبار أن فن الرحلة هو جزء من فن السيرة، ويمكن عدّه فرعاً من فروعها، ذلك أن فنّ الرحلة «ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها والحكم عليها وعلى المجتمع فيها»⁽¹⁾، فكما يصف المترجم سيرته الذاتية، ويسرد تجربته الصادقة، ويعكس انطباعاته حول ما يجري أمامه من أحداث، فكذلك الرحالة يصف ما انطبع في ذهنه عبر مسار رحلته فيسرد ما صادفه من أحداث وما شاهده من مناظر، وينقل إلى القارئ ما جال في ذهنه من تصورات ومؤثرات في رحلاته التي تندرج ضمن سيرته الذاتية.

وعليه يمكن اعتبار فن الرحلة تابعاً للسيرة الذاتية ومكملاً لأحداثها المختلفة التي أضأت جانباً واسعاً من الأدب العربي فأضحى نابضاً بالحياة وعامراً بالأدباء والعظماء، فقد «حفل التراث العربي والإسلامي بالتأليف الواسع في "فن التراجم والسير" وعني العلماء والأدباء والمؤرخون بهذا اللون من التأليف عناية تامة منذ القرن الأول الهجري إلى الوقت الحاضر»⁽²⁾، فجاءت سير العلماء والعظماء في كل مجال، وأعظم سيرة دونت على الإطلاق هي سيرة الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم فباتت المثل الأعلى للإنسانية جمعاء، ثم تطورت فيما بعد لتسجل سيرة عظماء الأمة⁽³⁾ الذين سجلوا مواقف بطولية تستحق التخليد، فامتألت المكاتب

(1) عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، دط، 1995، ص 97.

(2) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، ط1، 2001، ص 269.

(3) ينظر، نفسه، ص 269.

وتراكت الآثار، وبات تخليد سير العظماء واجبا تمليه الحلقة الرابطة بين الماضي والمستقبل للاستنارة به في شتى مجالات الحياة، فالأمة التي تحرق جثث رجالها، ولا تعني بتسجيل أعمالهم، وإذا مضى على وفاة أحد عظمائها ستون سنة لم تستطع أن تتحقق إن كان ذلك العظيم شخصية تاريخية أو خرافية، فهي أمة ضعيفة الإحساس بالتاريخ⁽¹⁾، أما الأمة التي تسجل سير رجالها في أوراق، ويسهر فيها على تدوين سير حياتهم مركزين على جوهر التجربة؛ فإنها أمة عميقة الإحساس بالتاريخ⁽²⁾، وتدرك معنى تسخير الماضي لخدمة الحاضر.

غير أن الكتابة الجيدة لفن السيرة يجب أن تتوفر لها مقوماتها الخاصة وشروطها التي تجعل منها فنا أصيلا له أهدافه وغاياته: «ومنها عنصر التوثيق الدقيق وعنصر الأصالة والإبداع، مع العنصر الفني الذي ينبغي أن يراعى في الصياغة»⁽³⁾، والذي يفتح شهية القارئ خاصة عندما يكون المترجم متمكنا من بيان اللغة، وهو الأمر المطلوب أيضا بالنسبة لفن الرحلة الذي فطر عليه العرب بسبب حبهم للسفر والمغامرة وإدراكهم لأهمية الرحلة وفوائدها، والتي كانوا يحصرونها في الجاهلية في التجارة، أما بعد الإسلام فقد برزت في شكل فتوحات ومغازٍ وما يصاحبها من التعرف على الرقعة المفتوحة، بالإضافة إلى دوافع دينية منها الحج وما يستدعيه من وصف الطرق والأماكن المقدسة، أو نشر الإسلام⁽⁴⁾، غير أن أكبر الأسباب التي ارتبطت بالرحلة ارتباطا واسعا هي طلب العلم في مراكزه المختلفة العربية وغير العربية، وهي الأجدر بأن تدون أخبارها، وتبقى

ينظر، Spengler : the Decline of the west, vol1, pp1,13,14 (1) :

نقلا عن إحسان، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط8، ص 8.

(2) ينظر، إحسان عباس، فن السيرة، ص 8.

(3) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 271.

(4) ينظر، حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط8، 1983، ص 12.

آثارها⁽¹⁾، وهناك من يسافر حبا في السفر ورغبة في الاكتشاف والتمتع بالحياة، ونذكر من ذلك على سبيل التمثيل كتاب "نزهة المشتاق في معرفة الآفاق" لصاحبه الشريف الإدريسي.

وهكذا كثرت الرحلات عند العرب، وتنوعت بتنوع العصور، أما أسلوبها فقد امتاز في معظمه بالتسجيل والوصف الإنشائي التعبيري الذي يعتمد على الملاحظة الدقيقة المباشرة، أو على الخيال حين يكون الوصف للطبيعة أو الكون أو غيرها مما ينفعل به الأديب الرحالة، فيلونه بشعوره وإحساسه ويعطيه من نفسه الشيء الكثير⁽²⁾، فتبرز الأنا واضحة عبر سرده للأحداث ووصفه للظواهر، والرحلات في مراحلها الأولى كانت تقوم على الوصف الجغرافي البحت، ثم بمرور الزمن تقمصت الطابع الأدبي تدريجيا من خلال استخدام الخيال الفني والأسلوب القصصي المشوق، الذي أعطاه هذه اللمسة الأدبية.

وما من شك في أن الإبراهيمي قد أسهم -بوساطة هذا الفن- إسهاما أدى إلى رفع قيمته الفنية في الأدب العربي، فعلى الرغم من قلة ما أنتجه في هذا الفن إلا أنه وبفضل أسلوبه الساحر ولغته المشوقة سما به إلى مستوى الإبداع الرفيع، وأسهم في إثرائه بكل ما توافرت له من قدرات وما طبقه من شروط هذا الفن وأصوله المعتمدة، فبلغ به مبلغ التأثير خاصة لدى هواة المغامرة الذين يعتبرون الرحلة وسيلة لنقل صورة متكاملة عن المجتمع الآخر.

(1) ينظر، نيكولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962، ص 148.
(2) ينظر، عبد السلام ضيف، الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه دولة في الأدب الحديث، 2004-2005، ص 200.

1- الترجمة:

هي شكل من الأشكال الأدبية التي تتناول التعريف بحياة شخص أو أكثر وفقاً للعصر الذي ينسب إليه، وتبعاً لثقافة كاتب الترجمة ومدى درايته حول الشخصية التي يكتب عنها، ويحاول رسم صورة لها وفق جملة من المعطيات، وقد اتسع هذا الفن مع مرور الزمان، ومع امتداد الحضارة الإسلامية وانبساط آفاقها، فتنامى ليشمل الشخصيات الفاعلة في شتى المجالات⁽¹⁾.

ازدهر التأليف فيه حتى امتلأت المكتبات بمختلف السير والتراجم، وتنقسم الترجمة إلى:

أ- الترجمة الذاتية: يتم من خلالها هذا الفن بسرد الكاتب لمختلف الأحداث التي مرت بحياته، وخير مثال على ذلك: كتاب "الأيام لطفه حسين". وهو فن نقل التجارب الذاتية وإعطاء صورة حول حياة الإنسان، فإذا كانت هذه الصورة مطولة فنحن أمام "سيرة" أما إذا كانت نبذة قصيرة فنحن أمام "ترجمة".

ومن الذين عالجوا هذا الفن نذكر «أبا علي بن سينا (370-428هـ) وأبا عبد الله محمد المعروف بعماد الدين الأصبهاني (519-597هـ) وأبا حامد الغزالي (450-505هـ)»⁽²⁾.

ب- الترجمة الغيرية: هي ما يكتبه الكاتب عن غيره معتمداً على سرد الأحداث التي مرت بحياته منذ الولادة وحتى الوفاة⁽³⁾ فالتراجم الغيرية تعني التراجم التي يكتبها الكاتب عن غيره من الأعلام في مختلف مجالات الحياة، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه القاضي النعمان في كتابه

(1) ينظر، محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 269.

(2) نفسه، ص 340.

(3) ينظر، شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الأندلس، بيروت، ط 1، ص 85.

"المجالس والمسائرات"⁽¹⁾ والذي يسرد فيه السيرة الذاتية للمعز، وكذلك كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" لصاحبه لسان الدين ابن الخطيب، وهو أضخمها في فن التاريخ والترجمة⁽²⁾ وغيرها من الكتب التي تتناول حياة الآخرين، سواء أكانوا حكاما أم أمراء أم قادة أم أطباء أم غيرهم من العظماء وما لذلك من أهمية في ربط حلقات الماضي بالحاضر.

2- السيرة عند الإبراهيمي

إن المتصفح لآثار الإبراهيمي لا يجد كتابا واحدا يتحدث عن سيرته، وإنما بعض مقالاته ينطبع بطابع الحديث عن الذات، فتغلب أحيانا شخصيته على أعماله، كما تنعكس تجاربه الخاصة ومشاعره في إنتاجه الأدبي، غير أن أهم هذه المقالات وأكثرها معالجة لفن السيرة الذاتية هو مقاله الذي كتبه بعنوان من أنا؟⁽³⁾، والذي يعالج فيه سيرته الذاتية بشكل صريح، معتمدا على الوصف تارة وعلى السرد تارة أخرى مستعينا بذاكرته القوية من جهة وبما جاد عليه المحيط من جهة أخرى يقول: «ولدت عند طلوع الشمس من يوم الخميس الرابع عشر من شوال عام 1306 هـ الموافق للثالث عشر جوان 1889م، سمعت ذلك من عمي الآتي ذكره، وقرأته بخط جدي الأدني على ظهر كتاب من كتبه سجل فيه مواليد الأسرة ووفياتها، وفيها مواليد أخواني اللاتي ولدن قبلي ولم يعش لوالدي من الذكور غيري»⁽⁴⁾ ويسترسل في الحديث عن نشأته وتعلمه مشيرا إلى كل ما يسعده وما يؤلمه «فلما بلغت التاسعة أصيبت رجلي اليسرى بمرض وكان للإهمال والبعد عن التطبيب المنظم أثر كبير في إصابتي بعاهة العرج في رجلي، وقد أنساني ألمها والحزن

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ط، د ت، ص 813.

(2) ينظر، محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 277.

(3) الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج 5، بيروت، ط 1، 1997، ص 163.

(4) نفسه، ج 5، ص 163.

عليها ما كنت منكبا عليه من التهام كتب كاملة بالحفظ، فكان لي بذلك أعظم سلوى عن تلك العاهة، وفيما عدا تلك العاهة فأنا مدين لتربيته الرفيعة في كل ما أتمتع به إلى الآن من قوى بدنية وفكرية وخلقية»⁽¹⁾؛ وكأنه بأسلوبه هذا يطمئن القارئ عندما يربط الألم بالارتياح والحزن بالسعادة، وهو أسلوب مميز يبعث الراحة والطمأنينة في النفس.

ويواصل الإبراهيمي الحديث عن نفسه من خلال تعلمه والعوامل المساهمة في بلوغه مستواه الرفيع الذي تفخر به الأمة العربية ساردا في ذلك رحلته إلى الشرق، وانتقاله إلى دمشق ورجوعه إلى الجزائر وتأسيسه - مع عبد الحميد بن باديس - لجمعية العلماء الجزائريين، وعمله في الجمعية موضحا موقف الاستعمار منه، ثم يسوق الحديث عن رحلته إلى الشرق، ثم يتوقف قليلا عند أولاده، ويختم حديثه بوصفه لحالته المادية فيقول: «ليس لي مال موروث ولا مكتسب، وأهلي يعيشون في الجزائر على مرتب شهري من صندوق الجمعية، تضايقهم فيها نفقات الولد»^(*) الذي يدرس في باريس»⁽²⁾، وقد اتبع الإبراهيمي في سيرته هذه أسلوبا بسيطا واضحا بعيدا عن الخيال مركزا على وصف الحقيقة كاملة فكان حديثه «عذبا لذيدا، لأنه أرسل قلمه على سجيته، ولم يحاول التكلف لا في الأفكار التي كانت صادقة واضحة نابغة من تفكير صاحبها وطبيعته، ولا في الأسلوب الذي كان قويا صادقا مندفعاً متدفقا»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 164.

(*) هذا الولد هو: أحمد طالب الإبراهيمي.

(2) نفسه، ج5، ص 170.

(3) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 302.

وفي مقال آخر حول معهد عبد الحميد بن باديس⁽¹⁾ نلمس بوضوح طغيان ذاتيته في محتوى حديثه عن معهد عبد الحميد بن باديس، ورغبته القوية في الحديث عن نفسه نلمسها في قوله: «...وقلت لتكون كلمة ذات أثر، تملأ السمع والبصر، ولأثأرن بها لنفسي من العوائق التي رمت طبعي بالجفاف وقريحتي بالركود، ولكن نفسي وقفت موقف الرقيب، بين المحب والحبيب، وأبت إلا أن أكتب عليها... قلت لها إن هذا ليس لي»⁽²⁾.

ونلاحظ هنا طغيان النزعة الذاتية في النص إلى درجة أن الإبراهيمي أصبح في صراع داخلي بينه وبين ذاتيته التي ترغب في التسلط على النص، فوجد نفسه مختارا بين إهمال نفسه أو ذكرها، فيسلك مع نفسه سياسة المدافعة قائلا: «سلكت مع نفسي في المدافعة والمساومة في آخر فقلت: سأرضيك نسيئة لا نقدا بالكتابة على صحيفة سخية تدعو إلى دين بني حنيفة أو على صحافي حافي شره ليس بالخافي، فقلت لست مسيئة، حتى أرضى النسيئة»⁽³⁾، ويستمر في صراعه مع نفسه حتى يستسلم لها في قوله: «وقعت من نفسي -لأول مرة منذ اصطحبنا- على باقعة، فجنحت للسلم ولولا حرمة الشهر وعهد المعهد لأخرجت للقراء من هذه المحاورات بين رجل ونفسه ما يضحكهم في الزمن العابس، ويسيرهم إلى السرور والركب حابس، وقد اتفقنا بعد طول الجهد على أن أكتب عليها وعلى المعهد من الجهة التي يتصلان فيها»⁽⁴⁾.

(1) ينظر، الإبراهيمي، آثار الإمام، ج2، ص 214.

(2) نفسه، ج2، ص 214.

(3) نفسه، ج2، ص 215.

(4) نفسه، ج2، ص 215.

فالصراع بين الأنا والذات واضح في هذه السطور؛ لأن الإبراهيمي يتحدث بأسلوب مباشر واضح شفاف ويوح بأسراره ومكنوناته الداخلية فيقول: «وهل أنبئ القراء بسر وهو أنني أضمرت الخديعة لنفسي، وقلت أعطيها قليلا وأكدي، فانتقم مني كما انتقمتم بعوضة توت من كاشف قبره، وفاضح سره، فنثرت كل ما كان في خاطري...»⁽¹⁾.

وهكذا فقد رسم الإبراهيمي انطباعاته حول ذاته ونقل أفكاره ليس فقط حول ذاته بل حول الناس أيضا، فتحدث عن شخوص لم يشر إلى أسمائهم، بل أشار إلى بعض صفاتهم فعاتبته نفسه الغيورة على ذاته وأجبرته على الكتابة عنها لأنها الأولى بذلك فيتجاوز مع نفسه حول نفسه، وهذه الاعترافات الصريحة «ليست عادية في النثر الأدبي في الجزائر ولا سيما حين تصدر عن قلم رجل، يمكن وصفه بأنه كان من الرسميين فهي اعترافات جديدة في النثر الأدبي»⁽²⁾ صاغها الإبراهيمي بأسلوب متفرد فعكست شخصيته القوية في التحكم في نفسه وكل رغباتها.

كان هذا باختصار نموذجا حول فن السيرة عند الإبراهيمي والذي عكس -بحق- مهارة الإبراهيمي في تصوير ذاتيته، ونقل أفكاره غير بعيد عن سيرته الذاتية بأسلوب مميز ولغة متفردة.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 216.

(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 303.

ثانياً: أدب الرحلة عند الإبراهيمي

إن فن الرحلة يوضح قيمة الأدب الذي يعكس ثقافة الشعوب ويصور عاداتهم وتقاليدهم وحتى ثقافتهم في شكل فني بديع يقترب من القصة ويؤكد "عمر بن قينة" أن «فن الرحلة لون أدبي ذو طابع قصصي، فيه عموماً فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها والحكم عليها وعلى المجتمع فيها»⁽¹⁾.

ويرد هذا الفن في شكل قصة تروي جملة من الأحداث خلال فترة السفر، وتعتمد على الوصف المباشر لكل ما يحيط بالرحلة، كما يعترينا أيضاً مجال الخيال نجده في أعماق الكاتب خصوصاً عندما يصطدم بالواقع ولا يجد ما كان يتوقعه من أحلام فيلجأ حينها إلى الخيال؛ لأنه العالم الوحيد الذي تتحقق فيه كل الأمنيات، غير أن الوصف يظل هو السمة الغالبة في هذا الفن، وهو ما يؤكد محمد مسعود جبران في قوله «فمن الرحلات ما يجنح به أصحابه نحو طوابع التقريرية والسردية الشفافة والتبليغ، ومنها ما يمتطي أسلوبها متون البلاغة والخيال المرنح فيخلق في الفضاء الفني ليرسم مجالي الطبيعة وما فيها من لوحات ناعمة متناعمة، أو مشاهد ذات ألوان وظلال وحقائق ودقائق وخطرات يستعصي على غير قلم الرحالة الأديب أن يتحف بها»⁽²⁾، لأن من يعيش التجربة أدق في نقلها ممن يتخيلها.

(1) عمر بن قينة، الأدب الجزائري الحديث، ص 97.

(2) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 10.

بهذه التعريفات نستنتج أن أدب الرحلة فن من الفنون الأدبية الحديثة التي تشترط ثقافة واسعة وخبرة متنوعة، وأسلوباً مشوقاً ووصفاً دقيقاً لمختلف مظاهر الطبيعة والمحيط.

– رحلات إبراهيمي

لقد كان للإبراهيمي رحلات عديدة وبخاصة رحلاته إلى البلدان الإسلامية، فقد خرج من الجزائر عام 1911 متجهاً إلى الحجاز فمر بتونس، ووصل إلى القاهرة فأقام بها عدة شهور حيث استوقفته بعلمائها وشعرائها وأدبائها «فجلس إلى علماء الأزهر الشريف، وزار الشعراء الكبارين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، ثم ألقى الرحال أخيراً بالمدينة المنورة»⁽¹⁾، وظل هناك يتنقل بين المجالس العلمية والأدبية، فجالس العلماء وحضر بعض دروسهم يقول: «ثم أقيمت الرحال بالمدينة حيث استقر والدي وعكفت على القراءة والإلقاء، وكنت ألقى عدة دروس متطوعاً، وأتلقى عدة دروس في التفسير والحديث، وأعانتني تلك الحافظة على استيعاب أسماء الرجال وحفظ كتب كاملة في الحديث»⁽²⁾، وظل يبحث باستمرار عن بغيته في العلم والعلماء حتى وجدها عند بعض الشيوخ منهم "حسين أحمد الفيض أبادي الهندي" حيث يعترف بفضله وغيرة علمه فيقول: «ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى، ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص على المعاني واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض والتقريب للمعاني القصية»⁽³⁾.

(1) أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، قراءة في ظل البنية والمتغير، المكتبة الوطنية، دار الهدى، ط1، 2004، ص11.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج2، ص166.

(3) الإبراهيمي، (أنا)، الثقافة، ع87، ص15.

وظل الإبراهيمي في المدينة يأخذ عن العلماء ما يحتاجه من العلوم والآداب، فدرس أمهات الكتب خصوصا الكامل للمبرد والأغاني للأصفهاني، ولم ينقطع عن التردد على المكتبات العامة والخاصة^(*)، فنهل من كتبها النادرة واستزاد من العلم ما كون شخصيته العلمية والثقافية والفكرية، فيقول: «وبالجمله فقد كانت إقامتي بالمدينة المنورة أيام خير وبركة، فكنت أنفق وقتي في إلقاء الدروس في العلوم التي لا احتاج فيها إلى مزيد كالنحو والصرف والعقائد و الأدب وكنت أتردد على مكتبات الجامعة فلا يراني الرائي إلا في مكتبة شيخ عارف حتى استوعبت معظم كتبها النادرة القراءة»⁽¹⁾، فكان لها الأثر البارز في تكوين شخصيته وتوسيع ثقافته، وتعدد أفكاره.

وعندما رحل الإبراهيمي مع أسرته مجبرا من الحجاز إلى دمشق سنة 1917 حينما أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة كلهم إلى دمشق بسبب ثورة الشريف حسين بن علي، زاره في بيته مجموعة من العلماء، يقول الإبراهيمي: «خرجت مع والدي إلى دمشق في شتاء سنة 1917، وكان من أول ما يعينني لقاء رجال العلم، وكانوا أول من بدأ بالفضل فزاروني في منزلي، وتعارفنا لأول لقاء»⁽²⁾ فأعجبوا به وبغزارة علمه، وقدراته الفائقة على ارتجال الكلام، فدعي إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية^(**).

وهكذا قضى الإبراهيمي في دمشق مرحلة واسعة من الأخذ والعطاء، نمت قدراته ووسعت مواهبه، وفي عام 1920 عاد إلى الجزائر يقول نجله أحمد طالب الإبراهيمي: «وفي 1920 قرر

(*) من ضمن المكتبات التي كان يرتادها الإبراهيمي، مكتبة الشيخ الوزير التونسي مع مكتبات أخرى شخصية.

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، ج5، ص 166.

(2) الإبراهيمي، (أنا)، مجلة الثقافة، ع87، ص 163.

(**) هي مدرسة على الطراز العربي الإسلامي، سماها العثمانيون (المكتب الإعدادي)، ثم اشتهرت باسم (مكتب عنبر) للتعليم الثانوي.

والذي العودة إلى أرض الوطن هاربا من الفرنسيين، وهم يحتلون سوريا وحاملا معه المشروع الذي طالما تحدث بشأنه مع الشيخ عبد الحميد بن باديس حين حج هذا الأخير إلى مكة سنة 1913، فعاد إلى بلده الجزائر بشخصية علمية مثقلة بالمعارف والأفكار الحضارية والإصلاحية التي أسهمت في تكوينها رحلاته المتعددة، والتي كان الشيخ يسجلها في مذكرات لم ينشر منها إلا القليل»⁽¹⁾.

وقد أبدع الإبراهيمي في رسم صور تلك الرحلات «بمنهجية الإجمال ثم التفصيل مع الإكثار من المعلومات وإبداء الملاحظات فيما يتوقف عنده من محطات، وما يقابله من الشخصيات، وما يلاحظه من تقاليد وما يعجبه من مناظر»⁽²⁾ وكل ذلك بأسلوب مشوق وجذاب يميل إلى الإخبار المباشر مع الوضوح في اللغة والتراكيب، وأصدق مثال على ذلك قوله «...وكانت مرحلة من أجمل المراحل، فالجو صاح، والقمر مبدر، والبحر المتوسط تحتنا، مبرقع يقرع من الضباب الأبيض، إنه منظر لم أر في عمري أجمل منه»⁽³⁾، إنه تصوير مباشر لما شاهده من مناظر جميلة على متن الطائرة بلغة بسيطة واضحة اعتمد فيها الإبراهيمي على التسجيل والواقعية، ولكنه يخرج أحيانا من السرد والواقع إلى عالم الخيال والإنشاء الوصفي⁽⁴⁾، يكثر فيه أحيانا السجع، يقول واصفا إحدى مسالكه في رحلته إلى كشمير: «...ثم واصلنا السير وبدأنا في الانحدار من أول خطوة، كأننا على مثل روق الظبي كما يقول المعري، واستدبرنا الصفحات التي كنا نراها، واستقبلنا صفحات أخرى من قمم وغابات متقطعة وقرى متقاربة وحقول قمح

(1) المصدر السابق، ص 163.

(2) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي، نضاله وأدبه، ص 188.

(3) الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج 4، ط 1، 1997، ص 29.

(4) ينظر، عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 58.

وشعير تظهر كالسطور في اللوح لضيقها واستطالتها، وتدرجها من أعلى إلى أسفل... وينتهي آخر سطر في حافة الوادي وما أعجب هذا المنظر وما أجمله»⁽¹⁾، وبهذا الأسلوب المشوق يجذب الإبراهيمي القارئ إلى لذة القراءة ويجعله يشاركه متعة رحلاته التي لا تخلو من المغامرة المترابطة مع الجدية والمصحوبة بالفائدة العامة.

هذه هي أهم الفنون النثرية التي اهتم بها قلم الإبراهيمي، وقد حاولنا أن نرسم لها صورة مختصرة مكثفة، وتجدد الإشارة هنا أن هناك أنواعاً أخرى أقرب إلى أن تندرج تحت الأنواع السابقة كالمحاضرة والتمهيد والتصدير والمنشور والتقرير الصحفي، فهي في الغالب ومضات أقرب إلى أحد الأشكال السابقة في الدراسة ويمكن أن تضم إليها لاشتراكها في أغلب خصائصها ومميزاتها، فالمحاضرة أقرب إلى الخطابة ولذلك ركزنا على دراسة الفن الأكثر شيوعاً.

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص 58.

الفصل الثاني:

مجالات الأنواع النثرية عند

الإبراهيمي

أولاً: المجال الاجتماعي

1- قضايا الأسرة

2- التعاون الاجتماعي

3- قضية المرأة

إننا نهدف من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء حول المحتوى الموضوعي للنثر الإبراهيمي في مختلف المجالات التي عالجها بأدبه الذي يعد -بحق- ثروة فكرية وفنية مهمة، فهو يرمي إلى إصلاح حال شعب بأكمله، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الإبراهيمي يعد من عباقرة عصره «ويقال إن العبقرى أو الأديب يستطيع التعبير عن روح الأمة، ويرسم صورة أوضاعها، ويتنبه للأخطار التي تحيط بها، ويتنبأ بمستقبلها أفضل وأسرع من الفرد العادي»⁽¹⁾.

استطاع بفضل عبقريته أن يكون لسان أمته المعبر عن أفراحها وأحزانها؛ فسال حبه ثائرا حول أوضاع أمته مشخصا أمراضها، ورأسما مستقبلها، فجاءت أفكاره ثورة أدبية حول الأوضاع التي مر بها الشعب الجزائري في مسيرته نحو الثورة التحريرية وما بعدها.

واستنادا إلى ذلك سنحاول إعطاء صورة عامة حول أهم الموضوعات التي تناولها نثر الإبراهيمي في آثاره، وذلك في مختلف المجالات، من خلال نماذج تكون في شكل معالم نختدي بها لأخذ صورة عامة حول المحتوى الموضوعي لهذه الفنون.

المجال الاجتماعي:

توطئة:

إن الإبراهيمي يؤمن بأهمية الجانب الاجتماعي في حياة الأمة؛ لأنه يدرك مدى ارتباطه الوثيق باستقرارها ومدى مساهمته الكبيرة في رقيها وازدهارها، ولذلك فقد أولاه عناية كبيرة وذلك

(1) سعدون حمادي، الأدب والوعي القومي، آراء في ما يجب أن يكون، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية حول دور الأدب في الوعي القومي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص 31.

بعلاج مختلف القضايا التي تندرج ضمنه والتي تمس بتماسك أركانه وقواعده خاصة وأنه من أهم المسائل في حياة الإنسانية.

ويؤكد الإبراهيمي بأن صلاح الجانب الاجتماعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإصلاح الديني، فهو يرى أن «الإسلام دين واجتماع وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف، وإن إصلاح الدين لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي»⁽¹⁾، وهي ملامح تعطي -في نظرنا- انطباعاً بأن الإبراهيمي يزن الأمور بميزان العقل الذي يدرك قيمة الدين في حياة المجتمع وأهميته البالغة في تطوره، كما أنه يعني بأن المسلم لا يكون مسلماً حقيقياً مستقيماً في دينه على الطريقة السوية حتى تستقيم اجتماعيته، فيحسن إدراكه للأشياء، وفهمه لمعنى الحياة وتقديره لوظيفته فيها وعلمه بحظه منها، وينضج عقله وتفكيره ويلم بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى منه أفراد المجموعة البشرية ما يتقاضون من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه العزة والقوة ما يرونها لأنفسهم وتربط بينه وبينهم رابطة الأخوة والمساواة والمصلحة لا رابطة السيادة عليه والاستئثار دونه⁽²⁾.

ويبدو من خلال هذا النص أن الإبراهيمي قد أدرك -بفضل نظرته الثاقبة في الحياة الاجتماعية- أن الدين الإسلامي قد أعطى عناية كبيرة لهذا الجانب المهم من حياة الأمة، ولذلك وجب التحلي بكل القيم الأخلاقية والدينية التي تسعى لتحقيق فرد صالح يعي ماله وما عليه، ومن ثم بناء مجتمع قائم على التعاون المتبادل بين الأفراد الذين تربطهم قيم ثابتة ومبادئ راسخة.

(1) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج1، ص 215.

(2) ينظر، نفسه، ص 215.

وتجسيدا لهذه المثل العليا فقد عمد الإبراهيمي إلى محاربة كل ما يمس بالاستقرار الاجتماعي وطمس كل ما يهز كيانه، فاستفحل قلمه الإصلاح في معالجة مختلف الشؤون الاجتماعية وعلى رأسها قضية الأسرة باعتبارها عماد المجتمع وقلبه النابض الذي يبث الروح في الجسد، كما عالج الزواج والصداق والطلاق ودعا إلى تحرير المرأة، ووقف عند قضيتها مطولا، خاصة مسألة الطلاق، بالإضافة إلى قضية الزواج والشباب وانتشار الآفات الاجتماعية، وفي كل ذلك كانت له آراء وأفكار ورؤى مختلفة سنحاول تسليط الضوء عليها من خلال معالجة مختلف القضايا الاجتماعية التي تعرض لها وعلى رأسها قضية الزواج والشباب التي تعد ضمن القضايا التي خصص لها الدين الإسلامي جملة من الأحكام التي ترشد الفرد إلى أنجح الطرق لبناء أسرة سعيدة، يقول عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾⁽¹⁾ في إشارة منه إلى أن الزواج هو ذلك الميثاق الذي بصلاحه أو فساده يصلح المجتمع أو يفسد.

1- قضايا الأسرة:

تعد الأسرة العمود الفقري للمجتمع، والذي يتحرك بوساطته نحو النمو والتطور؛ لأنها الركيزة الجوهرية في بنائه، ففيها تتجسد الوظائف الحيوية المختلفة التي تقدمها للمجتمع من خلال ما تبذله من جهد في رعاية الفرد، والسهر على تلبية ما يحتاج إليه من خدمات وعناية

(1) سورة النساء، الآية 21.

وإشراف⁽¹⁾، وهذا يعني أن مساهمة الأسرة في عملية البناء الحضاري مساهمة لها وزنها الكبير ودورها الخطير في تركيب مجتمع متماسك ومستقر؛ ولذلك فهي بمثابة العصب الحركي الذي تدور حوله مختلف القضايا الاجتماعية.

ويمكن تعريف الأسرة بأنها مجموعة من الأفراد المتكونة من أب وأم وأطفال تربط بينهم روابط عديدة مثل رابطة الدم والأخلاق وغيرها، وتسيرها مبادئ دينية وقيم خلقية تسمو بها إلى مراتب عليا إن هي أحسنت استغلالها؛ ولذلك يسهر علماء الأمة على النظر في شؤونها سعياً وراء استقرارها وبالتالي إرساء قواعد السلام في المجتمع.

ويعد الإبراهيمي من أولئك العلماء المصلحين الذين اهتموا اهتماماً بالغاً بإزالة ما علق من غواش(*) بموضوع الأسرة؛ وذلك وعياً منه بأنها روح المجتمع، وجوهره الذي يحمل على عاتقه مسؤولية صلاح الأمة، فعالج عدة مسائل تعتبر من أهم القضايا الأسرية، نذكر منها موضوع الطلاق والصداق والتعاون الاجتماعي وكل ذلك بأسلوب أدبي علمي، وتسلسل منطقي دقيق معتمداً على الأدلة والبراهين من الكتاب والسنة، فيعرض المشاكل ويذكر أسبابها، ثم يقترح لها الحلول محفزاً إليها ببراعة اللغة الأدبية في ذلك.

ومن أهم القضايا الاجتماعية -أيضاً- التي عالجها الإبراهيمي نذكر قضية الزواج والشباب التي خصص لها الدين الإسلامي جملة من الأحكام التي ترشد الفرد إلى أنجح الطرق لبناء أسرة سعيدة، يقول عز وجل: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا

(1) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 521.

(*) يقصد بمصطلح "غواش" كل ما علق في موضوع الأسرة من مشاكل وعوائق نفسية واجتماعية واقتصادية بسبب الجهل والاستعمار.

عَلِيظًا ﴿⁽¹⁾﴾ في إشارة منه إلى أن الزواج هو ذلك الميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة والذي يلزم الأسرة ما بقيت في الحياة، كما أن الحفاظ عليه هو حفاظ على تماسك المجتمع وتكامله وانقطاعه تشتت وتدهور له؛ ولذلك عده الإسلام سكنًا روحيا وسيلا للمودة والرحمة بين الزوجين لقوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ﴾ ⁽²⁾.

ويعد الزواج الخطوة الأولى لبناء الأسرة، والتي تمثل بدورها الخلية الأساسية لبناء المجتمع ومن ثم الأمة؛ ولذلك يعتبرها الإبراهيمي من أعضل المشاكل وأعمقها أثرا على الإطلاق في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرا على المجتمع العربي: «فالواقع المشهود أن الكثير من شبابنا - وهم أملنا وورثة خصائصنا - يعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق، ويترتب على ذلك أن الكثيرات من شوابنا يتعطلن عن الزواج إلى تلك السن» ⁽³⁾، وهكذا يضيع الطرفان أعلى سنينهما دون أن يجني المجتمع ثمار ارتباطهما، ويؤكد هذه الفكرة بقوله: «فيضيع على الجنسين ربيع الحياة ونسماته وأزهاره وبهجته وقوته، ويضيع على الأمة نبات ذلك الربيع، وثمره الخصب والنماء والزكاء فيه ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال، وإذا زادت هذه الفاشية فشوا، واستحكم هذا التقليد، فإن الأمة تتلاشى» ⁽⁴⁾.

(1) سورة النساء، الآية 21.

(2) سورة الروم، الآية 21.

(3) الإبراهيمي، عيون الصائر، ج2، ص 323.

(4) نفسه، ص 323.

إن لهذه الأفكار أبعادها الإنسانية والاجتماعية ليس فقط على المجتمع الجزائري بل على الأمة العربية ككل، لأن تضييع شباب العمر دون زواج خطأ فادح يجدر الانتباه إليه حتى في وقتنا الحاضر، وتمتد هذه الفكرة إلى المستقبل، بل وتبقى فعالة عبر الزمن، وهذه ميزة في رؤى الإبراهيمي الفكرية؛ لأنه بعيد النظر، عميق الفكر، ينظر إلى الأمور بعين المصلح الحاذق الذي لا تفوته الفرصة للحديث عن مقاصد الإسلام، والتي تنير الطريق للفرد بما ورد فيها من أحكام الزواج، وكل ما يتبعه من مسؤوليات وما ينجر عنه من تبعات إذا لم يؤسس على قواعد ثابتة؛ لأن الإسلام يقوم على اعتبارات عليا، إن لم تلائم هوى طاغيا في الفرد فإنها تلائم مصلحة المجموع⁽¹⁾، وذلك هو حال الإسلام وليس حال المسلمين في نظر الإبراهيمي، كما أن الإسلام بين بوضوح مختلف القضايا التي تعالج «النكاح وتوابعه ولوازمه من حقوق الزوجية والنفقات وأحكام الطلاق والعدة والصدقات والحمل والإرضاع، فكل أولئك من صميم الدين، بين الكتاب أصولها وحكمها وأحكامها، وشرحت السنة القولية والعملية فروعها ودقائقها»⁽²⁾، ويرتكز الإبراهيمي في تحليله لقضية الأسرة والزواج على كل ما ورد في الشريعة الإسلامية باعتبارها منزهة عن الخطأ؛ لأنها من وحي الخالق يقول: «إن أحكام النكاح وتوابعه تعد من مفاخر التشريع الإسلامي المستند إلى الوحي الإلهي»⁽³⁾ الذي لا تناقض قضاياه مطلقا.

ويؤكد الإبراهيمي على أن الزواج يجب أن يقوم على أسس سليمة وركائز قوية، بعيدا عن الأكاذيب والمغالطات التي تفضي بالضرورة إلى الفشل والعذاب إذ غالبا «ما نرى الزوجين منهم

(1) ينظر، المصدر السابق، ج2، ص 132.

(2) نفسه، ص 132.

(3) نفسه، ص 131.

بعد فصول الصبغ الكاذب، وانكشاف الحقائق الطبيعية يرجعان إلى الحالة من المعاكسة والخلاف هي العذاب بعينه، والإسلام لا يبنى على هذه الاعتبارات الزائلة، وإنما يبنى على اعتبارات عليا، إن لم تلائم هوى طاغيا في الفرد فإنها تلائم مصلحة المجموع»⁽¹⁾، فالإبراهيمي في هذا السياق يراعي المصلحة العامة حتى ولو كان ذلك على حساب الفرد الطاغوي الذي لا تلائمه تلك القوانين والتشريعات مهما كان سبب هذا العزوف.

إن الإسلام ينظر إلى الزواج نظرة حضارية قوامها بناء أسرة متكاملة، ومن ثم تكوين مجتمع متماسك لا تهزه رياح الجهل، ولا تحطمه عواصف الاستعمار؛ ولذلك فهو يعالج مسألة تأخر الشباب عن الزواج ويبين خطرها الكبير فيقول: «أعضل هذه المشاكل، وأعمقها أثرا في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرا في تكوينها مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشباب، فالواقع المشهود أن الكثير من شبابنا -وهم أملنا وورثة خصائصنا- يعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق»⁽²⁾ في إشارة منه إلى أن السن المناسب للزواج يكون قبل بلوغ الثلاثين، أي عند النضج الجنسي والعاطفي والعقلي، والذي عادة ما يكون في سن الثامنة عشر، وهو بذلك يحث الشباب على الزواج متى وجدوا أنفسهم مستعدين لتحمل مسؤوليات بناء الأسرة.

ويرى الإبراهيمي أن مرحلة الشباب هي أصعب المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته لأنها فترة لها ما بعدها من زيغ أو استقامة، ولذلك وجب على الأمة أن تحرص شبابها في هذه الفترة

(1) المصدر السابق، ص 132.

(2) نفسه، ج 2، ص 323.

من الآفات التي قد تستفحل فتهدوي بهم نحو الهاوية، كما «تحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائز الحيوانية، لأن هذا الطور هو طور تنبها ويقظتها»⁽¹⁾.

وقد حاول الإبراهيمي أن يبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة حتى يضعها في إطارها الصحيح، ومن ثم يبحث عن الحلول التي بإمكانها أن تبعث في الشباب الرغبة في الزواج، وتفتح شهيته لتكوين أسرة صالحة؛ لذلك نجده يقف عند أول صنف من الشباب العازف، وهو الصنف الذي يراه قد زاغ عن الفطرة واستهوته موجة الانحلال الخلقي المنتشرة في أوروبا، فأصبح يرى في الزواج قيذا لحريته: «وأما أولئك الشباب الذين أركسوا في الدرك الأسفل من الحيوانية، فانطلقوا مع الشهوات، واستمرؤوا التحلل من قيود الدين والعقل، ورأوا أن الزواج قيد لحريتهم البهيمية، تحالفوا مع الشيطان على بت حباله - فأولئك قوم مجرمون»⁽²⁾.

ثم يقف عند الصنف الثاني وهو في نظره الشباب المثقف الذي ينوي الزواج، ولكن يؤجله إلى المستقبل باختلاف جملة من الأسباب أولها تكاليف النسل: «أما المثقفون الذين يستغلون ثقافتهم، ويعيشون بها، فيبالغون كلما ذكر الزواج في الاحتياط للمستقبل، والاستعداد لتكاليف النسل»⁽³⁾، وهذه حجج تتنافى مع تعاليم ديننا الحنيف؛ لأن الأرزاق بيد الله - عز وجل - ولا أحد يعلم خفايا المستقبل.

(1) المصدر السابق، ص 325.

(2) نفسه، ص 323-324.

(3) نفسه، ص 324.

وأما ثاني الحجج التي يتستر خلفها المثقفون من الشباب العازفون عن الزواج، فيتمثل في كونه يأنف الزواج من الفتاة الجاهلة الأمية؛ لأنها لا تناسبه في ثقافته ولا توافقه في أفكاره وتصوراته وبالتالي قد يصل بهم الأمر إلى الزواج بالأجنبية، وهي الكارثة العظمى في نظر الإبراهيمي الذي لا يسلط اللوم في ذلك على الشباب بقدر ما يعتبر الأمر مسؤولية الجميع: «وقد يزيغ بعضهم الزيغة الكبرى فيتزوج بأجنبية، ينفق عليها ما ينشئ ابنة عمه خلفا جديدا متعلما ومهذبا مدبرا منظما، ولا نلوم أولئك ولا هؤلاء، لأن الحضارة الغربية أفسدت أذواقهم، وأزاحت نظرهم إلى الحياة، فجعلت البعض يحتاط للمستقبل احتياطا مفرطا، وجعلت البعض يأنف من الفضيلة إذا كانت أمية ولا يأنف من الرذيلة إذا كانت متعلمة لا نلومهم وإنما نلوم أنفسنا»⁽¹⁾.

وإذا كان الإبراهيمي يعتبر بأن المبرر الأول لا يمت إلى الشريعة بصله، فهو يعذر الشباب المثقف على الزواج بالمرأة المثقفة التي تملك من الفكر والرؤى ما يسمح لها بالسير معه قدما نحو تكوين أسرة صالحة، وإنما هو ناقد على المسؤولين عن شؤون المجتمع والذين أهملوا تعليم البنت وفتحوا المجال أمام تعليم الذكر دونها، غير آبهين بما ينجر وراء هذا التصرف الخطير: «لا نلومهم وإنما نلوم أنفسنا إذ لم نأخذ للأمر عدته، ولم نخطط لعواقبه البعيدة، فنعلم البنت تعليما إسلاميا قويا بروحه قائما بفضيلته، واسعاً بمعانيه، ترغم به هذا الشباب الأخرق على الرجوع إلى

(1) المصدر السابق، ص 324.

أصله»⁽¹⁾، وبذلك تستفيد بنت بلده من كل ما يشمل الزوج من معان، على أن تنعم به المرأة الغربية فيخسر الجميع أسرة جزائرية بكل ما تنتجه في جميع المجالات.

يحاول الإبراهيمي في موقفه هذا أن يسد على الشباب الجزائري ثغرة خطيرة تسببت فيها عدة عوامل منها هجرتهم إلى فرنسا بغرض التعلم في مدارسها أو طلبا للرزق، ويعتبر الوضع خطيرا ليس فقط على أولئك الشباب، بل على الأمة الإسلامية ككل؛ لأنه يدرك خطورة تبعاتها التي تهدد الكيان الجزائري بالتلاشي، إذا ما اتسع مجالها وانتشرت عدواها، وفي هذا الموقف بالذات قد يطرح السؤال الآتي: لماذا عارض الإبراهيمي هذا الزواج معارضة شديدة رغم أن الإسلام يشجع التعارف بين القبائل والشعوب؟ فنجيب بأن الإبراهيمي في موقفه هذا يركز على منطلق واقعي، وهو ما رآه من ضعف في المسلمين وأحوالهم، فيكون الزواج بالأجنبيات ضياع للشباب وضياع لأبنائه أيضا⁽²⁾ ويؤكد ذلك في قوله: «فكانت النتيجة اللازمة لهذا أن الآباء أضاعوا دينهم بتأثير البيئة فضلا عن الآباء الذين اجتمعت عليهم البيئة، والأمهات خالصين»⁽³⁾، فيكون بذلك المجتمع الجزائري قد أضاع جيلا معطاء بدل أن يضاف إلى رصيده استحوذ عليه الغربي وانتفع به بكل ما يملك من مقومات.

ويحرص الإبراهيمي على توعية الرجل بضرورة الارتباط بالمرأة الصالحة التي تدفعه نحو الأمام بأخلاقها، ويحذره من الزواج بتلك التي تفرض عليه عاداتها السيئة وأخلاقها المنحطة، ويؤيده في ذلك مالك بن نبي في قوله: «يجب علينا أن نعيد إلى المرأة الكرامة التي وهبها لها الإسلام عندما

(1) المصدر السابق، ص 324.

(2) ينظر، د. محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 531.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 236.

أنقذها من عادات الجاهلية القاسية، ولكن فلنعد لها كرامتها لنجعل منها السيدة التي توحى إلى الرجل العواطف الشريفة، لا الفارسة التي تسيطر عليه»⁽¹⁾ بتهورها وذهابها إلى المرقص والملاهي وغيرها من الأمور التي تحط من مكانة الرجل بدل أن ترفع من شأنه⁽²⁾.

ويواصل الإبراهيمي معالجته لظاهرة عزوف الشباب عن الزواج مركزا على تحليل أسبابها التي يردّها إلى المغالاة في المهور فيقول: «وولي الزوجة لا ينظر من خاطب بنته إلى أصله ودينه وأخلاقه وإنما ينظر إلى شيء واحد... إلى ماله وما يقدمه من المهر الغالي والحلي النفيس وبعد هذا نعجب إذا رأينا كل زواج يتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطلاق والعداوة والخصام بعد أشهر وأيام⁽³⁾، وهي نظرة عميقة جدا في واقع المجتمع الجزائري عدّها الإبراهيمي من الأمراض الاجتماعية المنتشرة فيه يقول: «من أمراضنا الاجتماعية التي تنشر في أوساطنا الفساد والفتنة، وتجعل بها إلى الدمار والفناء عادة المغالاة في المهور»⁽⁴⁾ وما يترتب عنها من مخاطر على المجتمع ككل، ولذلك أولاهها الإبراهيمي العناية الكاملة مستعملا أسلوب الترغيب والترهيب في مختلف دروسه ومحاضراته باحثا عن جيل قوي متفهم، فهو يدرك أن أعماله في هذه القضية لا تظهر نتائجها الكاملة إلا في جيل يكون أقوى إرادة من هذا الجيل الذي سيطرت عليه العوائد فأفسدت عليه دينه ودنياه، وهو يؤكد أن المرأة تعد نعم العون في هذا الباب، وهي الأمل في

(1) مالك بن نبي، في مهب المعركة، مطبعة دار الجهاد، القاهرة، 1972، ص 131.

(2) ينظر، نفسه، ص 182.

(3) ينظر، الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 325-326.

(4) نفسه، ص 359.

إصلاح هذه الحالة رغم عدم ارتقائها إلى معرفة الحقائق، غير أنها تظل النصف «الضعيف القوي» شئنا أم أبينا⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن الصداق نحلة شرعية مشروطة في عقد النكاح يقدمها الزوج لزوجته وهي صفة جليلة تتجاوز صلة الثوب بمشتريه لأن الحكمة الإلهية في الصداق إنما تكمن في تلك المحبة والمودة التي ترخي سدولها في نفس الزوجين فإذا بالمرأة تنتفع به في معاشها، وإذا بالرجل يرتاح لانتفاعها وراحتها، فهو «توثيق لعرى المحبة بينهما، وتأنيس يسبق العشرة المستأنفة، ويحمل البشرى بالقرب، فإذا أدخلناها في باب الأثمان والقيم لم يبق إلا أن نسمي الزوجة بائعة، والزوج مشترياً»⁽²⁾، وإذا انقلبت الأمور على هذه الحال، اقرأ على هذه العلاقة المقدسة السلام.

ثم يشير الإبراهيمي إلى مسألة حساسة وهي تحديد هذا المهر، فلم يرد في الكتاب ولا في السنة تحديدا للمهر، «وإنما هو موكول إلى أحوالهم في العسرة واليسرة، وطبقاتهم في الغنى والفقر»⁽³⁾، وهي الحكمة الإلهية التي ترأف بأحوال الناس.

إن الشريعة الإسلامية لم تحدد الحد الأدنى للمهر ولا الحد الأعلى، بل تركت ذلك لأحوال الناس؛ لأنهم طبقات فقراء وأغنياء، فإذا انساقوا نحو الشريعة الحكيمة وعملوا بالفطرة فازوا بحياة كريمة، وإذا خرجوا عن الشريعة فقد هلكوا، فالدين قد دفع الناس نحو التيسير ونهاهم عن التعسير حتى تيسر الحياة للجميع.

(1) المصدر السابق ، ص 359.

(2) نفسه، ص 360.

(3) نفسه، ص 324.

ويؤكد الإبراهيمي في الختام أن المغالاة في المهور قد أفضت إلى مفسدة عظيمة «وهي كساد بناتنا وإعراض أبنائنا عن الزواج، واندفاعهم في رذائل يعين عليها الزمان والشيطان فعلى المسلمين أن يذللوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم، وأن يهجروا هذه العوائد الفاسدة المفسدة، وأن ييسروا ولا يعسروا، وأن يعتبروا في الزواج حسن الأخلاق، لا وفرة الصداق، وفي الزوجة الدين المتين، لا الجهاز الثمين»⁽¹⁾، فإذا سارت الأمة على هذا النمط فسيرها نحو السعادة دون شك.

2- التعاون الاجتماعي

يعد التعاون الاجتماعي من أبرز القضايا التي ركز عليها الإبراهيمي في كتاباته، لما له من دور بارز في ترقية المجتمع والسمو به نحو التقدم والازدهار، فالإبراهيمي يدرك أهمية تعارف المسلمين فيما بينهم، وما ينجم عنه من قوة وعزة لهم؛ لأن فوائد الاجتماع هي - كما يقول الإبراهيمي - «ثمراته الناجمة عنه وثمراته هي ما ترون من أعمال تعجز القوة الفردية عن إتمامها، وما ترونه من مصانع تخرج المعجزات، وما ترونه من تقريب الأقطار وإخضاع البحار، وما ترونه من استخراج مواهب الأرض التي لا يستقل الفرد بإخراج جزء منها ولو جمع مواهبه، وما ترونه من تسلط جبري على قوى الطبيعة واستخدامها بكل سهولة»⁽²⁾، وانطلاقاً من هذه المعطيات ركز الإبراهيمي دعوته إلى التعاون الاجتماعي.

(1) المصدر السابق، ص 327.

(2) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج1، ص 8.

ويسعى الإبراهيمي من خلال رسالاته الإصلاحية إلى بث روح التعاون بين أفراد المجتمع؛ لأنه يدرك مدى فوائده العظيمة من قوة واتحاد، فيعظم هذه الفوائد في عين القارئ ليزداد رغبة في الانضمام إلى الجماعة فيقول: «من ثمرات الاجتماع ما تقرأونه في التاريخ من تغلب الجماعات قليلة العدد قليلة المال على جماعات هي أكثر منها عددا وأوفى مالا»⁽¹⁾، ويؤكد أن ما أشار إليه من فوائد يعد من المسلمات وأن التعاون الذي يحقق الفائدة للجميع هو الذي «يتفق مع الحياة العامة في العموميات، ويلتئم مع حياتنا الخاصة في الخصوصيات»⁽²⁾.

وهذا التعاون يبدأ في الأسرة الواحدة بين الأفراد، فينشر فوائده ضمنها من حب وإخاء وتفاهم، ثم يمتد أثره بالضرورة إلى المجتمع في شتى المجالات، فتعم الفائدة ويعم الإخاء في ظل مجتمع إسلامي عماده الدين ومبادئه الأخلاق السامية، فبات من الواجب التعاون بين الأفراد لارتقاء أعلى المراتب بالمشاركة في المنفعة العامة واحتراز الدور الإيجابي بين أفراد المجتمع، يقول: «العاقل من جارى العقلاء في أعمالهم في دائرة دينه وقوميته ووجدانه، والحازم من لم يرض لنفسه أحسن المنازل، وأخس المنازل منها أن يكون الرجل كالدفتري يحكي ما قال الرجال وما فعل الرجال دون أن يضرب معهم في الأعمال الصالحة بنصيب أو يرمي في معترك الآراء بالسهم المصيب»⁽³⁾.

وهي دعوة صريحة إلى ضرورة تقمص الدور الإيجابي في المجتمع؛ لأن الإبراهيمي يؤمن بالمعنى الاجتماعي المثالي الذي يتمناه، والذي يراه عند غيره ولا يراه مجسداً عند أمته التي يعتقد بأنها

(1) المصدر السابق ، ص 8.

(2) نفسه، ص 8.

(3) نفسه، ص 14.

تملك من المقومات والمبادئ ما يؤهلها لأن تكون دولة مثالية؛ لأن الله -عز وجل- شرفها بكتابه الشريف وبنبيه الكريم.

إن التعاون الاجتماعي هو الأساس الذي تبنى عليه الأمة؛ ولذلك كانت الدعوة إليه مسؤولية كل مصلح أراد الخير لها، فقد دعا ابن باديس إلى هذا التعاون مؤكدا أنها مسؤولية الجميع وأن على كل فرد أن يلتزم بواجباته؛ لأنها ستعود على المجتمع بكل إيجابياتها يقول: «وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده بل هي خدمة للمجتمع كله»⁽¹⁾.

وقد سار الإبراهيمي على نهج ابن باديس، فدعا هو أيضا إلى أن يتكافل أبناء المجتمع مع بعضهم البعض للنهوض بالأمة في جميع المجالات، وقد أصر كثيرا في دعوته هذه على الاتحاد مستعملا كل الطرق لنشر مفهومه الواسع، والتوعية بفوائده العظيمة: «ودعونا إليه باللسان في مجالس لا تحصى، نوعنا فيها العبارات، وشرحنا الأسباب الداعية إليه من واقعة ومتوقعة، وخاطبنا بذلك جماعة من المسؤولين وذوي الرأي من أحزابنا، وتلفطنا في التحليل، فاخترنا للدعوة كثيرا من المناسبات التي يسهل معها الدخول إلى النفوس الحائرة، والتأثير على العواطف الفائرة والتغلب على النزاعات الحادة»⁽²⁾؛ وذلك وعيا منه بالأثر السلبي للتفرقة التي كان الاستعمار يباركها ويبيث سمومه لنشرها؛ ولذلك فإن الإبراهيمي لم يكن يدع مناسبة تمر دون أن يحث على لمّ الشمل ووضع اليد في اليد، لأن تلك «أمنية كل مسلم مخلص لدينه وجنسه ووطنه، وقد شعر به

(1) عمار الطالب، ابن باديس حياته وأثاره، ج1، ص 239.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 336.

المسؤولون من رجال الأحزاب فتداعوا إلى الجبهة»⁽¹⁾، والدعوة إليه واقفين بالمرصاد أمام الاستعمار: «لا يمارى في لزوم الاتحاد إلا قصير النظر في العواقب، أو خادماً لركاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مدخول النسب في الوطنية أو مغطى البصر في العصبية الحزبية، أو سيء العقيدة في الإسلام والعروبة»⁽²⁾.

وتأكيد الإبراهيمي على ضرورة الوقوف في وجه الاستعمار نابع من قناعته بأن هذا الأخير يطيب له أن يرى الجزائريين متفرقين متشتتين بدعوته إلى التعاون والاتحاد متبعاً طريق ابن باديس: «وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محاربهم في مجالس الدرس لخدمة العلم»⁽³⁾، فلا يعقل بعد هذا الاتحاد الذي جمع بين أبناء يعرب وأبناء مازيغ بفضل الإسلام أن يفرقهم أحد خاصة بعد أن كونوا منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً أمه الجزائر وأبوه الإسلام⁽⁴⁾؛ فيقول مؤكداً أن كل محاولة للتفريق لن تزيدهم سوى قوة واتحاداً: «فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم يا عجباً، لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وهم وغيرهم.. القوي، كلا والله بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم»⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ص 337.

(2) نفسه، ص 337.

(3) عبد الحميد بن باديس، آثاره، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، ج5، ط1، ص 459.

(4) ينظر، نفسه، ج5، ص 459.

(5) نفسه، ج5، ص 459.

فوحدة الأمة إذن هي مصدر كل الخير لها، وهي أساس رقيها وعلوها، ولذلك كان الإبراهيمي يؤكد على ثمارها الطيبة، ويسعى إلى التذكير بآثارها العميقة في الأمم التي اتخذت من الاتحاد ركيزة لتطورها، سعيًا منه لإشعال نار الغيرة على القضية الجزائرية، فيدفع كل مسؤول إلى أن يضع هذه الحقيقة نصب عينيه؛ لأنها السبيل نحو الدفع بالجزائر إلى غد أفضل يقول: «كل مسلم عربي جزائري مخلص يؤيدنا في الدعوة إلى هذا الاتحاد ويود منه ما نود، ويعتقد فيه ما نعتقد من أنه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية والوسيلة الوحيدة لنجاحها، ويرى ما نرى من آثار هذا التفوق الشنيع الذي شتت شمل هذه الأمة الضعيفة فزادها ضعفًا على ضعف في وقت تطلعت فيه إلى المطالبة بحقوقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جميع القوى والتحام الشمل واتحاد الكلمة»⁽¹⁾، وهي أمنية كل مسلم غيور على وطنه ودينه ولغته غيرة تدفعه نحو السعي إلى تحقيقها بشتى السبل.

وقد استمد الإبراهيمي قناعته بضرورة الاتحاد من واقع تجربته الحية في المجتمع الجزائري مرتكزا على فهمه الواسع للإسلام الذي يجعله أساس الأمة، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾⁽²⁾، فطالما وحد الإسلام أمما وقبائل بعد تشتتهم فأصبحوا بنعمته إخوانا، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾⁽³⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 337.

(2) سورة الأنبياء، الآية 92.

(3) سورة آل عمران، الآية 103.

ويؤكد الإبراهيمي أن الدين وما يصاحبه من أخلاق وعلم ومال هو الكفيل بالقضاء على كل ما من شأنه أن يمزق أوصال البشرية ويشتت شملهم فيقول بأنه دين واحد جاء به نبي واحد عن إله واحد، وما ظنك بدين تحفه الوحدة من جميع جهاته؟ أليس حقيقاً أن يسوق العالم إلى عمل واحد وغاية واحدة واتجاه واحد على السبيل الجامعة من عقائده وآدابه؟ أليس حقيقاً أن يجمع القلوب التي تفرقت بينها الأهواء، والنفوس التي باعدت بينها النزاعات والعقول التي فرق بينها تفاوت الاستعداد، بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك»⁽¹⁾.

فالمجتمع القوي هو المتحد في مبادئه وأعماله وأخلاقه وقيمه، وهو المجتمع الذي يحافظ على الأخوة ويسهر على استمرارها؛ لأن «مقتضى هذه الأخوة أن يشارك الإنسان الإنسان في جميع لوازم الحياة سرورا وحزنا لذة وألماً مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعدى، بحيث يعلم العالم الجاهل ويرشد النبيه الغافل ويواسي الغني الفقير ويقع التعاون المتبادل بين الناس في كل جليل وحقير»⁽²⁾، وهكذا يسود التعاون بين الناس ويتحقق هناء الإنسانية، غير أن الإبراهيمي لا ينكر أن مسألة تأخي البشر لم تأخذ حقها في التطبيق تمام الأخذ، وإنما هناك تدافع واختلاف في المصالح نشأ عنه احتكاك واتصال بين الأمم المتباعدة «فنشأ عن ذلك كله وعن هذه المصارعات الاجتماعية شعورا آخر بضرورة تأخي البشر وآل الخلاف إلى وفاق، والتباعد إلى تقرب، والفوضى إلى هدوء وسلام»⁽³⁾، وهو يعتبر بأن هذه المسألة لم تأخذ مكانها من الاستقرار بعد،

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 90

(2) نفسه، ص 59.

(3) نفسه، ص 60.

وإنما هي تنمو شيئاً فشيئاً وتسير نحو الأمام⁽¹⁾، وما دام الحال كذلك فهي ستبلغ المستوى المطلوب لا محالة.

ويستمر الإبراهيمي في دعوته إلى التعاون مدركاً أنه السبيل لتحقيق نهضة الأمة، فيدعو إلى الاستعداد للعظائم بعيداً عن الصغائر فيقول: «فكونوا دائماً مستعدين، واجعلوا هدفكم دائماً العظائم لا الصغائر وقد جربتم الإيمان وماذا يصنع وجربتم التعاون أنه ينفع، وجربتم الثقة بالله فأنت بالعجائب شدوا الحيازيم واعتمدوا على الله وثقوا بعونه وما أنفقتم من خير فهو يخلفه وهو خير الرازقين»⁽²⁾، فكل هذه النصائح تبعث في النفس رغبة قوية في السير قدماً نحو الأمام مع الشعور بحلاوة الإيمان الذي ينير الطريق، فتتماسك الأيدي وتعظم القوة، فإذا بالصغائر تبقى صغائراً، وإذا بالعظائم تصبح هدفاً مسطراً يجدر الوصول إليه.

ونخلص من كل ذلك أن الإبراهيمي كان شديد التمسك بمبدأ التعاون الاجتماعي؛ لأنه يدرك جيداً أهمية التعاون ليس فقط في حياة الإنسان، بل في حياة الأمم، وقد دعا إلى هذه الوحدة الاجتماعية بقوة فسال حبره كثيراً صرخات منذرة محذرة من عواقب التفرقة وما يفضي إلى العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد، وقد سعى كثيراً إلى تقريب وجهات النظر وإقامة مجالس صلح، وبث روح التعاون في المجتمع، وفتح الشهية إليه من خلال توضيح منفعته وإيجابياته على الأمة العربية، وكل ذلك بأسلوب مغر معتمد على المنطق والحجج والبراهين، مستتيراً في كل ذلك بالشرعية الإسلامية.

(1) ينظر، المصدر السابق، ص 61.

(2) نفسه، ج2، ص 247.

3- قضية المرأة

تعد قضية المرأة من القضايا الهامة التي شغلت القادة والمفكرين والمصلحين منذ زمن بعيد؛ ولا عجب في ذلك لأنها تمثل -بحق- عماد المجتمع الذي يصلح بصلاحها ويفسد بفساد أخلاقها، وهي حقيقة خفت عن الذهن قبل الإسلام، فعاشت المرأة المأساة والمعاناة بأعمق معانيهما، وذاقت من العذاب والاحتقار والغبن ما هدد كيائها، فقد وصل الحد ببعضهم إلى دفنها وهي حية ترزق، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الموقف بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) ﴿(1)﴾.

وهكذا عاشت المرأة مكبلة بقيود الجهل والحرمان مما أفقدها كل حقوقها حتى أبسطها في الحياة إلى أن جاءت الدعوة إلى تحريرها ابتداء من نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر (2)؛ وذلك نتيجة للوعي الذي أخذ ينتشر جراء الاحتكاك بالغرب، وكان من أوائل المفكرين الذين دعوا إلى تحرير المرأة رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه "المرشد الأمين للبنات والبنين" فدعا إلى المساواة بين الرجل والمرأة في العديد من الاتجاهات (3)، غير أن هذه الدعوة لم تتبلور ولم تأخذ طابعا علميا واضح المعالم إلا بعد مجيء قاسم أمين (*) الذي كان شديد الاهتمام بتبرئة الإسلام من استعباد المرأة، ملقيا المسؤولية كلها على تخلف المجتمع والتفسيرات الخاطئة لرجال الدين في

(1) سورة النحل، الآية 58-59.

(2) ينظر، أم سهام (عمارية بلال)، شظايا النقد والأدب (دراسات أدبية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989، ص 76.

(3) ينظر، محمود حجازي فهمي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1974، ص 88.

(*) قاسم أمين، أكبر داعية لتحرير المرأة في مصر خاصة والعالم العربي عامة.

المجتمعات المختلفة، كما حاول أن يثبت قدرة المرأة الكاملة على المساواة مع الرجل في الملكات والقدرات إذا أتيح لها الخروج في إطار الآداب وحدود الأخلاق⁽¹⁾، وهو الأمر الذي دعا إليه العديد من المصلحين رغم تأخر الدعوة إلى تحريرها في الجزائر إلى ما بعد سنوات الثلاثين⁽²⁾، وقد سارت هذه الدعوة ببطء شديد نظرا للعادات والتقاليد المبالغ فيها تجاه المرأة وما يرتبط بها من عصبية متشددة، إلى أن تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، والتي حاولت النهوض بالمجتمع الجزائري في شتى المجالات.

وقد كانت حالة المرأة المزرية لافتة للانتباه، «فأخذت الجمعية على عاتقها مسؤولية الخروج بها إلى النور، لما كان يراه زعمائها من أثر للمرأة في النهوض الحضاري وتكوين الأجيال القادرة على مواجهة الغزو الأجنبي بجميع صوره»⁽³⁾، شرط أن لا تكون مطية للفجور، فبذلت الجمعية جهودا معتبرة في سبيل محو ظلام الجهل في عالم المرأة من خلال تعليمها وتثقيفها في إطار القيم العربية الإسلامية، متحدية في ذلك كل الصعاب التي واجهتها من «المحافظين الذين اهتموها بإفساد المرأة وتمييع أخلاقها، والمعاكسات التي لقيتها من الإدارة الاستعمارية التي كانت تحبذ أن تتوجه الفتيات إلى المدارس الفرنسية تمهيدا لإدماجهن في المجتمع الأوروبي»⁽⁴⁾.

وعلى الرغم من الإمكانات المادية المحدودة للجمعية في بداياتها إلا أنها حاولت التصدي لكل العرقلات، فحاول رئيسها عبد الحميد بن باديس علاج مشكلة المرأة، باعتبارها «ظاهرة

(1) ينظر، محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، .

(2) ينظر، محمد ناصر، المقالة الصحفية، ج1، ص227.

(3) حبيبة شيدخ، المرأة في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 63.

(4) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 548.

أوجدها المستدمر، وكرسها الجهل عند الآباء بحقيقة المرأة في الإسلام»⁽¹⁾، ووفقا لهذه الرؤية سعى الإبراهيمي إلى طمس الظلام من حياتها وإخراجها إلى النور، مستنيرا بضوء القرآن الكريم الذي «بين بالأدلة القاطعة أن الرجل والمرأة من نفس واحدة، وأن اختلافهما في الجنس لا يعني الضدية والعداوة وإنما يعني التكامل والتعارف»⁽²⁾، وهو الأمر الذي أدى به إلى اعتبار المرأة الجناح الثاني للطائر والذي لا يمكنه الطيران نحو الأعلى إلا به تكاملا مع الجناح الأول، والذي هو الرجل باعتبار أن الطائر ككل هو الأمة: «الأمة كالطائر لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما الرجل والمرأة، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد، فهي واقعة لا محالة»⁽³⁾، وقد أبدع الإبراهيمي في هذا التشبيه؛ لأن العلو نحو المجد والتطور والرقى لا يتم بجناح واحد كما لا تصفق اليد الواحدة.

لقد كان الإبراهيمي مدركا للقيمة الحقيقية للمرأة في الإسلام؛ لأن الله -عز وجل- شرفها بحمل أنبل رسالة وهي تربية الناشئة، وتكوين جيل مثقف، وبالتالي فهي تشرف على إعداد أمة كاملة، وهي المسؤولة عن تربيتها وإعدادها إعدادا سليما متحضرا، ولذلك فهو يرى أن المرأة المسلمة يجب أن تتعلم، ويجب أن تتهذب، لكن بشرط أن يكون ذلك في دائرة دينها وأخلاقها وأن الإسلام ضمن لها حقوق الإنسانية كاملة، وأحاطها من جميع الجهات بما يجبر ضعفها الطبيعي، وأقرها في أحضان التكرمة بنتا وزوجة وأما⁽⁴⁾؛ ولذلك وجب عليها أن تكون في مستوى

(1) حبيبة شيدخ، المرأة في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 63.

(2) شامية بن عباس، صورة تعامل الرجل مع المرأة العربية قبل الإسلام في القرآن الكريم، دراسة استقصائية تحليلية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 26، جوان 2012، مؤسسة الطباعة الصناعية، باتنة، ص 169.

(3) الإبراهيمي، آثار الإمام الإبراهيمي، ج4، ص 239.

(4) ينظر، نفسه، ج4، ص 46.

المسؤولية الملقاة على عاتقها، وأن تُخرج للمجتمع أجيالا صالحة تسير به نحو الرقي والتقدم؛ لأن «المرأة إذا تعطلت عطلت الرجل، وإذا تأخرت أخرته، ولا سبب لانحطاط المرأة عندنا إلا هذا الضلال الذي شوه الدين، وقضى على المرأة بالحمول، فقضت على الرجل بالفشل»⁽¹⁾.

وهكذا فنجاح المرأة في الحياة هو نجاح للرجل، وفشلها هو فشل له، ولذلك دعا الإبراهيمي إلى تعليم المرأة تعليما مرتبطا بالأخلاق، وركز في دعوته على تعليمها باللغة العربية وليس بالفرنسية؛ لأنها «لغة ليست من روحها ولا من تقاليدها، واللغة الأجنبية إن أحسنت فإنما تحسن بعد اللغة المتصلة بالروح والتاريخ والمقومات الأصيلة فهي بالنسبة للجزائرية ربح أما رأس المال فهو اللغة العربية»⁽²⁾، واستمر الإبراهيمي مدافعا عن موقفه ومهتما بتعليم المرأة اهتماما كبيرا لما كان يلاحظه من أهمية لهذا الموضوع في تحرير المجتمع من جل مظاهر التخلف.

ويرى الإبراهيمي أن منع تعليم المرأة لم يرد لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، فعلى أية ركيزة يرتكز دعاة التجهيل يا ترى؟ يقول: «والسبب في هذه الحالة نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين وهي أن تعليم البنت مفسدة لها، ويلوك أصحاب هذه النزعة آثارا مقطوعة الأسانيد، مخالفة لمقاصد الشريعة العامة، وتربية محمد صلى الله عليه وسلم العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيد تلك الآثار الضعيفة الإسناد بأقوال الشعراء الذين يستمدون شعورهم

(1) المصدر السابق ، ج5، ص 264.

(2) نفسه، ج5، ص 264.

من شريعة العواطف المتباينة، لا من شريعة الله الجامحة، ومتى كان الشعراء مصدر فتوى في الدين؟»⁽¹⁾ خاصة وأنهم يعتمدون على خيالهم وميولاتهم وأهوائهم.

ويؤكد الإبراهيمي على ضرورة تعليم المرأة بالعلوم الدينية؛ لأنها الوحيدة التي ستحميها من نوائب الدهر، وهو يشير إلى أن فجرها الصادق يتدبّر من سنة 1931، أي منذ أن تكونت جمعية العلماء المسلمين، ودعت إلى العروبة والإسلام بالقطر الجزائري، ومحاربة الاستعمار، وطمس رغباته، فوقف لهذه المهمة النبيلة رجال تصدوا في وجه المستعمر، وصمدوا حتى قهره «ولهم اليوم نحو مائة وخمسون مدرسة عربية حرة تحتوي على نحو خمسين ألف تلميذ من بنين وبنات»⁽²⁾.

أما المدارس في يومنا هذا فلا تعد ولا تحصى، وهذا دليل على استمرار رسالة الإبراهيمي في الماضي قدما ليس فقط بالمرأة الجزائرية نحو المجد والعلى، وإنما بالأمة العربية ككل.

وتأكيد الإبراهيمي على ضرورة تعليم المرأة وفق المعالم الدينية أمر نابع من قناعته بأن الدين الإسلامي قد كرمها وعززها وفك قيدها فقد كانت ضمن العالم تحظى «بمنزلة بين الحيوانية بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجال وتتصرف فيها الاعتبارات العادية المجردة من العقل، فهي حيناً متاع يتخطف، وهي تارة كرة تتلقف»⁽³⁾، فقد كانت مجرد وسيلة للنسل وتلبية الشهوات، واستمرت على هذه الحالة المزرية إلى أن «جاء الإسلام فنبه إلى منزلتها وشرفها وكرم

(1) المصدر السابق، ج5، ص 264.

(2) نفسه، ج5، ص 266.

(3) نفسه، ج4، ص 360.

جنسها، وأعطاهما كل ما يناسب قوتها العقلية وتركيبها الجسمي، وسوى بينها وبين الرجل من التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالاً وتشريفاً لها، وإبرازاً لشخصيتها»⁽¹⁾.

وهكذا نجد أن الإسلام قد صحح تلك النظرة الجاهلية الخاطئة حول المرأة، كما أنه «سلحها بأحكام قطعية، وحماها بتشريع سماوي عادل ولم يكلها إلى طبائع الآباء الذين يلينون ويقسون، ولا إلى أهواء الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزعات الأبناء الذين يبرون ويعقون، وإنما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ، ولا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجوداً وعدمًا»⁽²⁾، ولا يمكن النقاش فيها بأي شكل من الأشكال، وعليه فالإبراهيمي لا يرى سبيلاً آخر للمرأة تتحكم به سوى العودة إلى الدين الإسلامي؛ لأنه بالنسبة لها الباب الوحيد الذي تستطيع الخروج منه إلى النور في ظل المبادئ العالية والأخلاق السامية.

وقد وقف الإبراهيمي موقفاً صامداً أمام الطاعنين في الإسلام والهازيين بأحكامه والمستخفين بقوانينه، فهم يعتبرون أن الإسلام ظلم المرأة في الميراث حين جعل ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾⁽³⁾، فرد عليهم الإبراهيمي بأن الإسلام نظر إلى المرأة نظرة شاملة متكاملة فإذا نقص لها في جزئية، جبر لها في جزئية أخرى، ثم يضرب لهم عملية حسابية بسيطة توحى بقوة فهمه ورزانه عقله، فهو يفترض أن موروثة مات وترك ابناً وبناتاً وثلاث مائة نقداً، فللابن مائتان وللبنت مائة ثم يحلل العملية تحليلًا بارعاً يقول: «ولنفرض أن الأخوين الذكر والأنثى تزوجا في يوم واحد، وليس لهما من المال إلا ذلك الميراث، فالذكر يدفع لزوجته مائة صداقاً، فيسمى بمائة واحدة

(1) المصدر السابق، ج4، ص 360.

(2) نفسه، ج4، ص 361.

(3) سورة النساء، الآية 11.

وأخته تأخذ من زوجها مائة صداقا فتصبح ذات مائتين، والذكر مطلوب بالإئفاق على نفسه وزوجته وأولاده إن ولد، وأخته لا تنفق شيئا على نفسها ولا على أولادها»⁽¹⁾.

وبهذه العملية الحسابية البسيطة يتضح العدل الإلهي بين الرجل والمرأة في مسألة الميراث وحتى في مسائل أخرى، والمسألة الوحيدة التي ميز بها الله - عز وجل - المرأة عن الرجل هي مسألة «العمل الصادر منها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»⁽²⁾؛ فقال - عز وجل - في محكم تنزيله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً لَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُزْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾⁽³⁾.

ونخلص إلى القول في قضية المرأة أن الإبراهيمي اهتم بها اهتماما بالغا، وذلك وعيا منه بدورها الفعال في بناء مجتمع متحضر قوامه الأخلاق الفاضلة، وعماده التعاون المتكامل بين الرجل والمرأة في شتى مجالات الحياة، ودعا إلى ضرورة تعليمها وتثقيفها وتحريرها من كل قيود الجهل والذل والظلم، مستندا في كل ذلك على ما وضعه لها الدين الإسلامي من أحكام وقوانين، مستنيرا بما ورد في السيرة النبوية الشريفة، مؤكدا بأنها أهل لكل هذه المعطيات، فقد شرفها الله - عز وجل - بحمل أعظم أمانة وهي تربية الناشئة.

وختاما فقد بذل الإبراهيمي جهودا معتبرة في سبيل إحداث تغيير إيجابي في المجال الاجتماعي، وذلك وعيا منه بأهمية هذا الجانب الذي يصلح حال الأمة بصلاحه، أو يفسد

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 362.

(2) شامية بن عباس، صورة تعامل الرجل مع المرأة، ص 151.

(3) سورة غافر، الآية 40.

بفساده، ولذلك فقد نشط قلمه الإصلاحى بدءًا بمعالجة قضايا الأسرة باعتبارها نواة المجتمع وقلبه الخافق منها إلى قيمتها في هذا المجال، مشيرًا إلى دورها العميق في الحياة الاجتماعية، فأولاهها الاهتمام اللازم من خلال معالجة مختلف قضاياها ومشاكلها من طلاق وصدّاق مركزًا على قيمة المرأة في هذا المجتمع وضرورة تحريرها والحرص على إعطائها مكانتها اللائقة في المجتمع وما ينبجر عن ذلك من آثار إيجابية؛ لأن المرأة هي نصف المجتمع، كما بين أن الشباب هم أمل الأمة، وحاول الاهتمام بقضيته بتوعيته وتحذيره من الآفات الاجتماعية التي قد تفتك به؛ لأنه ذخر الأمة ومستقبلها الواعد.

ثانياً: المجال الديني

- 1- الإبراهيمي وفهم القرآن.
- 2- الإبراهيمي وتجديد العقيدة الإسلامية.
- 3- الإبراهيمي والثورة على البدع والخرافات.

توطئة:

يعد الإبراهيمي نعمة ربانية أنعم بها الله -عز وجل- ليس فقط على الجزائريين بل على الأمة العربية عامة، وذلك لما وهبه من قدرات واسعة مكنته من حفظ القرآن الكريم وهو لم يبلغ العاشرة من عمره، ولم يكن حفظه عاديا دون فهم، بل كان مستوعبا لآياته ومفسرا لها ومتضلعا في معرفة أسرار الشريعة ومقاصدها، تتوفر فيه جميع شروط المجتهد المطلق، «كما هو أعجوبة الأعاجيب في قوة حافظته وسرعة استحضاره، وحضور بديهته»⁽¹⁾، وما صاحب ذلك من احتكاك واسع بالمكتبات مطالعا وباحثا لا يعرف الملل ولا يجد السأم طريقا إليه، وكل ذلك مكنته من الفهم العميق لأسرار الشريعة ودقائقها، فأحاط بحقائق الدين ومقاصده.

كما يعتبر الإبراهيمي مثالا فريدا من الأئمة الأفذاذ الذين يبعثهم الله -عز وجل- للأمة في أحوج الأوقات، ليحددوا لها دينها، وينفخوا فيها من روح الله، ويؤسسوا لها نهضتها على أمتن أساس⁽²⁾؛ ولذلك فقد سعى إلى إحداث تغيرات مختلفة في المجال الديني مسطرا على عدة أهداف أهمها فهم الإسلام فهما صحيحا مرتكزا على تجديد الأركان التي يقوم عليها في العقيدة، والفقه والتربية، حتى يستأنف الإسلام دوره الحضاري في ظل فعالية اجتماعية ناجحة⁽³⁾.

إن الإبراهيمي يدرك أن الإسلام هو أساس الحياة، وأنه المرجع الأساسي من أجل سير مستقر في شتى المجالات، فهو دين الله الكامل الذي ارتضاه لعباده وحثهم على اتباع نهجه، «غير

(1) محمد إبراهيم الكتاني، الإمام البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 8.

(2) ينظر، نفسه، ص 8.

(3) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 306.

أن واقع المسلمين المنحرف لم يكن يدل على شيء من ذلك ولم تكن أحوالهم المرضية تشير إلى أنهم أصحاب دين سماوي عظيم، فدخل معركة التغيير محاولاً أن يثبت أن للإسلام عظمتة وصلاحيته لقيادة الحياة»⁽¹⁾، وبدأ رحلته في نشر الفهم الصحيح للإسلام وأركانه منتهجاً أسلوب الحجج والبراهين، ومنطلقاً من الواقع المعيش؛ لأن الإشكالية المطروحة على الساحة هي الفهم الخاطئ للإسلام ومبادئه وأركانه، فالمسلم يرتدي ثوب الإسلام، غير أن تصرفاته وواقعه لا يعكس ذلك بالمعنى الحقيقي الذي يبحث عنه الإسلام، وإنما يمكن تشبيهه بالجسم بلا روح، وكأنه يصلي بلا خشوع، وهذا ما سعى الإبراهيمي إلى تصحيحه وتوجيهه إلى الوجهة الصحيحة بعيداً عن البدع والخرافات التي أضعفت الدعوة فيهم إلى الإسلام، فتلاشت بغفلتهم عن فوائدها و«هاجت عليهم دعايات الأديان الأخرى وما تفرع عنها من مذاهب مادية تغري بالمادة ومن مذاهب فكرية تغري الفكر المسلم بالمروق من الدين»⁽²⁾.

وقد عزم الإبراهيمي على تصحيح فهم الإسلام من خلال دعوته إلى الحق هادفاً من خلالها إلى إسعاد الإنسانية وتحقيق السلام بين البشر ونشر المحبة والإخاء بينهم؛ لأنه يدرك أن المسلمين «في حاجة أكيدة إلى دعاية داخلية تهدي ضالتهم وتصلح فسادهم تبدأ من البيت وتجاوزة إلى الجار والقرية حتى ينتظم المجتمع كله فإذا عمرت القلوب والبيوت والمجتمعات بمعاني الإسلام الصحيحة أعطت ثمراتها الصحيحة وجاء نصر الله والفتح ربطاً للوعد بالإنجاز ووصولاً إلى الحقيقة على المجاز»⁽³⁾، وحينها سينكشف الظلام، ويخرج المسلمون إلى النور وتزول كل

(1) المرجع السابق، ص 307.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج 4، ص 183.

(3) نفسه، ج 4، ص 187.

الأحقاد والفوارق فيحقق الإسلام غايته السليمة في الوجود «ويومئذ تزول هذه الفوارق البغيضة من تلقاء نفسها فلا مذهب إلا مذهب الحق ولا طريقة إلا طريق القرآن ولا نزعة إلا نزعة المجد والسمو، ولا عاطفة إلا عاطفة المحبة والخير ولا غاية إلا نشر السلام والطمأنينة في هذا العالم المضطرب»⁽¹⁾.

لقد دخل الإبراهيمي معركة الإصلاح الديني مصطدما بالكثير من الأفكار الخاطئة التي تجمعت منذ سنين، فحجبت عن المسلمين حقيقة دينهم، وجعلتهم يتصرفون بعيدا عن الإسلام، وكأنهم لم يرثوا من هذا الدين سوى ألفاظا بلا معان، وقشورا بلا لباب، وكأن شجرة الإسلام غرست ليأكل منها محمد وأصحابه فقط⁽²⁾، ولا يعرف المسلمون كيف يتذوقون ثمارها، فالإبراهيمي يسعى إلى تصحيح هذه الأذواق لتذوق الحلاوة الحقيقية للإسلام؛ لأن الإسلام هو الدين الفطري الروحي الذي يمكنه أن يحقق السعادة للإنسان في الدارين لأنه الوحيد الذي بإمكانه أن يحقق للفرد اطمئنانه الروحي واستقراره النفسي فهو يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني «فتجد في عقائده غذاء العقل وفي عباداته تركية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع»⁽³⁾، وكل ذلك يجعل منه دستورا صالحا لكل زمان ومكان، ولا يمكن أن تقف في وجهه أية عارضة مهما اختلفت البيئات والبلدان، والدليل على ذلك هو «تلك المرونة التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، والتي تعطيها القدرة على استيعاب المستحدثات الجديدة عن طريق الاجتهاد الذي مارسه الأئمة الكبار في العهود الإسلامية الأولى وأعطوا به الدليل الناصع

(1) المصدر السابق، ج4، ص 187.

(2) ينظر، الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 547.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 108.

على قدرة الإسلام على الاستجابة لمختلف الظروف الطارئة⁽¹⁾، ولا عجب في ذلك فهو الصادر عن خالق الحكمة الذي يسع الكون ويحيط به من كل شيء فيعلم غيبه وحاضره ومستقبله.

وفي ضوء هذه المفاهيم الصحيحة للإسلام سعى الإبراهيمي إلى تسليط الضوء على المقاصد الحقيقية لها في حياة الإنسان، وعمل جادا على غرس روح الإسلام الحق في النفوس، وتطهيرها من كل المعتقدات والخرافات الباطلة التي ظلمت الرؤية الحقيقية وحجبت عن النفوس نور الإسلام الحق، وهو -أي الإبراهيمي- مقتنع بأن الانتساب إلى الدين مفخرة كل عربي ولو سألت أحدهم على الصلاة أو الزكاة لقال لك ربما هو لا يصلي أو لا يزكي «ولكن إياك أن تقول أنه ليس مسلما، ولو قلت لرأيت التمر والتكر، وسمعت الجاني المكروه من القول»⁽²⁾، وهذا ما سعى الإبراهيمي إلى تصحيحه وغرسه في النفوس غرسا سليما بجذور إيمانية تسقى من منبع القرآن الكريم، فدعا إلى فتح باب الاجتهاد وثار على الطرق الصوفية والبدع والخرافات، وعمل على تحديد العقيدة تجديدا روحيا سليما نابعا من أسس إيمانية.

وفيما يلي توضيح لكل هذه الجهود المبذولة بدءا من الوقوف عند القرآن الكريم ورؤية الإبراهيمي العميقة لأحكامه وانعكاسها على الواقع المعيش في شتى ميادين الحياة.

(1) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 311.
(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج 1، ص 111.

1- الإبراهيمي و فهم القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله -عز وجل- الذي أنزله على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم لينير بنوره الكون، وليكون دستوراً لحياة الأمة ترجع إليه كلما ضاقت بها السبل.

وقد سار على نهجه الأولون فعاشوا في سعادة كبيرة، ونالوا من الحضارة والرفي ما سجله التاريخ في سجله الذهبي، ولكن «خلف من بعدهم خلف يقرؤون القرآن ألفاظاً لا معاني، وصوراً لا حقائق، فكان ما كان من ضعف وتأخر وانحطاط»⁽¹⁾.

والحقيقة أن عظمة ما جاء به نبي الهدى تكمن في معرفة ذلك التاريخ الكامل للبشرية قبل الإسلام بجميع أجناسها ولغاتها وعاداتها، ثم ربطها بالمرحلة التي انتقلت إليها البشرية بعد الإسلام «حينما زحف أبناء الجزيرة على الشرق والغرب يحملون هدي الإسلام وعدله وميزانه وأخلاقه وعقائده وفرقانه، ويعملون على نشرها بين الأمم وتثبيتها في النفوس»⁽²⁾، وحين يحدث هذا الربط بين المرحلتين يعرف سر عظمة القرآن الكريم، وحينها ستدرك البشرية جمعاء أن الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله هو الرحمة بعينها، وهو الهدى الكامل لبني آدم كلهم⁽³⁾ لأنه الفجر الذي طلع على الدنيا ومحا على الكون ظلامه الدامس.

غير أن حال المسلمين اليوم مع القرآن الكريم هو حال الجسد بلا روح، وحال القشور بلا لباب، فهم يرددون آياته دون تمعن وتفكر في معانيه، وهذا الوضع الأليم يدركه بالدرجة الأولى

(1) محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، ع2، ص 37.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 316.

(3) ينظر، نفسه، ص 316.

أهل العلم والمصلحين الذين يعرفون قيمته ويدركون وزنه؛ ولذلك تألم الإبراهيمي لهذا الوضع المؤلم، وتأسف لإعراض المسلمين عن هذا الكتاب المنير وهجرهم لهدايته التي يكمن فيها سر حياتهم، وسر سعادتهم؛ لأنه «كلام خالق النفوس العالم بما ينفعها وما يفيدها»⁽¹⁾ وما يصلحها وما يفسدها.

إن الإبراهيمي يدرك بأن ما أضاع المسلمين ومزق شملهم هو بعدهم عن هداية القرآن «وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس ليكفكف منها وفي مزلق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها وفي نواجم الفتن ليجلي عماءها، وفي معترك الشهوات ليكسر شهواتها، وفي مفارق سبل الحياة ليهدي إلى أقوامها»⁽²⁾.

إن هذا الوضع الأليم للمسلمين دفع بالإبراهيمي إلى السعي وراء تغييره، والبحث عن السبل التي من شأنها أن تصحح نظرة المسلمين إلى القرآن الكريم، فلا يقرؤونه صوتاً بلا معنى، ولا يهجره بل يتخذونه دستور حياتهم، ونبراس طريقهم.

ومن هذا المنطلق سعى الإبراهيمي إلى تصحيح الرؤى وبث الوعي بقناعة تامة بأن القرآن الكريم هو ثروة ضخمة متنوعة، لا يمكن بأي حال من الأحوال إنكارها «فهو ثروة العقيدة والإيمان والعلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ، وثروة النظام والقانون، وثروة المعاملة والسلوك وثروة الحكم والقيادة»⁽³⁾، فكيف يصبح حال الأمة بعد إضاعة كل هذه الثروات؟!.

(1) محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، ع2، ص 37.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص 226.

(3) محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، ع2، ص 37.

وهو الأمر الذي حرك في نفس الإبراهيمي الحسرة على أمتة في ضياع هذه الثروات، فنشط في هذا المجال بكل ما أوتي من فصاحة اللسان، وروعة البيان، حاثا وناصحا ومرشدا دون كد ولا ملل، واضعا نصب عينيه أن الإسلام «يعلو اسمه بعلو المسلمين وينحط بانحطاطهم وتقوى آثاره بقوة فهم المسلمين له وإقامتهم لشعائره ووقوفهم عند حدوده، وتضعف حين يبعدون عن هدايته، أما حقائقه العليا فهي قائمة بقيام القرآن الكريم، ثابتة بثبوتة موجودة بوجوده»⁽¹⁾.

إن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، والتفاعل معه، وتطبيق أحكامه هو سر نجاح أسلافنا الصالحين؛ لأنهم وعوا جيدا أن القرآن الكريم ﴿يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ﴾⁽²⁾، فاتبعوا سبيله وجنوا بذلك العجب العجاب من القوة والسمو والإنتاج الحضاري والعلم والأدب والفن واللغة، وإن العودة إلى تاريخ المدن الجزائرية العلمية كتلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بني حماد.... تكشف أية سمات خالدة وسم بها الإسلام هذا القطر⁽³⁾.

ويؤكد الإبراهيمي أن صلاح هذا السلف لم يكن بالجلبة والطبع، وإنما أصلحه القرآن الكريم: «ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحا بالجلبة والطبع فالرغيل الأول منهم، وهم الصحابة، كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعرويته واهتدوا بهديه ووقفوا عند حدوده، وحكموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانا لأهوائهم وميولهم وأقاموا شعائره المزكية وشرائعه العادلة في أنفسهم وفيمن يليهم»⁽⁴⁾، فطبّقوا في ذلك ما أمرهم الله-

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 71.

(2) سورة الإسراء، الآية 9.

(3) ينظر، الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 73.

(4) مجلة المسلمون، العدد 10، أغسطس، نقلا عن مجلة الوعي، ع2، ص 8.

عز وجل - وبالتالي نالوا السعادة التي يرجونها، وعاشوا في أرقى حضارة إنسانية مبنية على العلم والعمل ومرتكزة على الحق والعدل وقائمة على التعاون والتكافل، فساد الهناء وغمرت الراحة والطمأنينة في القلوب والنفوس والعقول «فأصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف»⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن حال المسلمين لا يصلح إلا إذا رجعوا إلى القرآن يلتمسون فيه الدواء لكل أمراضهم وعللهم؛ لأنه مقتنع كل الاقتناع بأن أسلافهم إنما صلحوا فأصلحوا العالم وسادوه وساسوه بالعدل والرفق وزرعوا فيه الرحمة والحب والسلام؛ لأنهم عرفوا كيف يجعلون من القرآن نورا يهتدون به، فيكشف عنهم كل ظلام: «وإذا كان العقلاء كلهم مجمعين على أن المسلمين الأولين صلحوا فأصلحوا العالم وسادوه فلم ييطروا، وساسوه بالعدل والرفق، وزرعوا فيه الرحمة والحب والسلام، وأن ذلك كله جاءهم من هذا القرآن، لأنه الشيء الجديد الذي حول أذهانهم، وهذب طباعهم، وثبت الفضائل في نفوسهم»⁽²⁾.

ومن هذا المعتقد يخلص الإبراهيمي إلى أن سبب انحطاط المسلمين هو هجرهم للقرآن ونبذوا وراء ظهورهم، والتعامل معه تعاملًا سطحيًا لا يغني ما لم يفهم ويطبق، أما عن أسباب هذا الهجران للقرآن؛ فيرى الإبراهيمي أن «بعضها آت من نفوسهم، وبعضها آت من خارجها»⁽³⁾، فأما الأول فهو يتعلق بافتتانهم بآراء الناس، وبالمصطلحات التي تتجدد بتجدد الزمان، والعصبية للآباء والأجداد، وغلت طوائف منهم في التعبد...فاختلت الموازنة التي أقامها القرآن بين الجسم

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 227.

(2) ينظر، نفسه، ج4، ص 227.

(3) نفسه، ج4، ص 227.

والروح، وغلت طوائف أخرى في تمجيد العقل، وكل هذا وأكثر من هذا شعب السبل إلى الحق وأغام الأفق، وبلبل العقول فكان التفرق الشنيع في الدين وكانت الفتن وكان ضعف المسلمين وانحطاطهم⁽¹⁾.

وأما الثاني فيتعلق بتلك الدسائس الدخيلة التي صاحبت تاريخ الإسلام من حركات الوضع للأحاديث وما صاحبها من هجوم حول الآراء والمعتقدات المنافية للقرآن، إلى تلك الشبهات في نصوص القرآن التي عمد إليها أصحابها ليصدوا المسلمين عن هديه وهي أخطر الفتن على الإطلاق⁽²⁾.

هذه العوامل وغيرها هي التي باعدت بين المسلمين وقرآنهم فباعدت بينهم وبين الخير والسعادة والعزة وأصبحوا أذلة مستعبدين، ولا يزالون كذلك ما داموا مجانبين لسنن القرآن معرضين عن آياته وإرشاداته.

ويتحسر الإبراهيمي على ما فات الأمة من خير في هذا القرآن الكريم، فلو أنهم تواردوا عليه في القرون السابقة لكان لهم فضل السبق في اكتشاف أسرار الكون والوقوف على حقائقه، ففيه «إرشاد للعقل البشري يتدرج مع استعداده، وفيه من الكشف عن غرائب النفوس وألوانها، وعن حقائق الكون وأسرار مواليده ما ييسر بمتدبره رويداً رويداً حتى يضع يده على الحقيقة ويكشف له عن وجهها، ويكاد يكون من البديهيات فيه ما يقرره في أطوار الأجنة، وتزاج

(1) ينظر، المصدر السابق، ج4، ص 227.

(2) ينظر، نفسه، ص 227.

البنات وتكور المطر... وربما دلم على مواقع هذه الأشياء في القرآن من ليس من أهل القرآن، وإن هذا هو الخذلان المبين»⁽¹⁾.

إن استياء الإبراهيمي من هذا الوضع وغيرته على دينه ووطنه جعلته يبذل جهودا كثيرة في سبيل إيقاظ روح الوعي لعظمة هذا القرآن في نفوس أمته، فأبدع في خطبه حتى أشاد الإمام بن باديس بنوعية الدروس التي يقدمها، فخاطبه ذات يوم بعدما سمع منه درسا في التفسير في دار الحديث قائلا: «إن هذا الدرس وحده كاف لإحياء أمة مستعدة، وقد زادني هذا الدرس إيمانا بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقضي عجائبه»، وإنما سمعته منك في معنى اتخاذ البيوت قبلة هو ما حوم عليه علماء الاجتماع في مبدأ تكوين الوحدة الاجتماعية للأمم، وأين هداية التجارب من هداية كلام الله؟ ولوددت لو أن المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس»⁽²⁾ التي تنير العقول، وتبعث في النفس الرغبة في التمسك بكتاب الله - عز وجل -.

لقد اقتنع الإبراهيمي اقتناعا راسخا أن القرآن الكريم هو دستور الحياة الذي ارتضاه الله لعباده، وأن أحكامه هي الأمثل لسير البشرية وإسعادها، فانطلق من واقع المسلمين تجاهه داعيا إلى دراسته واستخراج ذخائره، مستعينا بمفهوم السلف الصالح له وتطبيقاتهم لأحكامه، متسائلا: «لماذا نهجر دستور القرآن وهو من عند الله، ولا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، ولا يتبدل ولا يتغير، ثم نلتجئ إلى دساتير الغرب وقوانينه، وهي من أوضاع البشر القاصرة، يظهر في كل

(1) المصدر السابق ، ص 228.

(2) نفسه، ج2، ص 195.

حين تناقضها ومنافاتها للمصلحة، فتبدل وتغير، ولا تزال تبدل وتغير مع أن مواضيعها الموضوعية لهم من جنس واحد...؟»⁽¹⁾.

إن الإبراهيمي يؤمن بقدسية القرآن الكريم وبقدرته الصلاحية في كل زمان وفي كل مكان بتنزهه عن الخطأ، فلو كان من عند البشر لكان فيه اختلاف كثير، وفي هذا الصدد يقول عماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً من يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل»⁽²⁾، وهذا من أعظم العبر وهو دليل أيضاً على أن القرآن منزّه عن كل خطأ.

لذلك آمن الإبراهيمي بضرورة فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، وإدراك قوته القيادية لسعادة البشرية، فأوصى بالاطلاع الواسع على السنة القولية والعملية التي تحوي الكثير من الشروح لآيات القرآن الكريم، والاحتكاك بأصول النحو والصرف والقواعد وأسرار اللسان العربي لامتلاك ملكة الحس والذوق والإدراك، كما أوصى بالرجوع إلى المقاصد العامة للقرآن والتي تندرج ضمنها مختلف الجزئيات⁽³⁾.

ومن هنا فهو يستاء من المفسرين الذين يشغلون أنفسهم وغيرهم بالألفاظ عن المعاني، وبالقشور عن اللباب، ويدعوهم دعوة صريحة إلى الغوص بعمق في معاني القرآن الكريم بعيداً عن المصطلحات والجدال والتعصبات حتى لا ينفروا منه، فقد ذكر بأنه شهد يوماً درساً ليكون فكرة

(1) المصدر السابق، ج4، ص 195.

(2) عمرو خالد، خواطر قرآنية، نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، ط1، 2004، ص13.

(3) ينظر، محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، ع2، ص 39.

عن دراسة التفسير فجلس أكثر من نصف ساعة فلم يستفد شيئاً: «فو الذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس، ولا لمحت أمانة ولا لإشارة تدل على أن الدرس في التفسير، وما كان كل الذي سمعت إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلاً لمعركة لفظية مستعرة بين السيد الجرجاني وعبد الحكيم، حول عبارة لعلها لمفسر من المفسرين الإصلاحيين، ثم انقضت الحصة، وقام الطلبة المساكين يتعثرون تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة، وقمت أنا مستيقناً أن هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحجب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب الله، ثم زدتهم فيه»⁽¹⁾، وما زيادته هذه إلا دليل على استيائه من الوضع و رغبته في تيسير الفهم؛ لأنه يدرك تمام الإدراك أن «القرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه»⁽²⁾.

ولذلك فإن رؤية الإبراهيمي إلى القرآن الكريم هي رؤية صحيحة، فهو يرى فيه الدستور الوحيد القادر على إسعاد البشرية في الدنيا والآخرة، فهو الأساس الذي تبنى عليه الحياة السعيدة التي لا يظلم فيها بشر ولا يهضم فيها حق، لأن العقائد فيه صافية، والعبادات خالصة، والأحكام عادلة والأخلاق مستقيمة⁽³⁾.

وكل هذه القيم جعلت الإبراهيمي يقتنع كل الاقتناع أن الأمة الإسلامية بطرازها العالي ما كانت لتكون كذلك لولا اتصافها بأمة القرآن، ولذلك سعى جاهداً إلى توعية العقول بحقيقة كبيرة، وهي أنه: «إذا كانت الأمة شاهرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود

(1) الشهاب، ج4، م14، ربيع الثاني، جمادى الأولى 1357/جوان، جويلية 1938

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص78

(3) نفسه، ج4، ص78.

إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير»⁽¹⁾، ولم يخل الإبراهيمي من أجل إيصال هذه الفكرة بجهد ولا بحبره.

2- الإبراهيمي وتجديد العقيدة الإسلامية

إن الحديث عن العقيدة الإسلامية الحقبة يدفعنا إلى وضعها في مفهومها الصحيح على أنها ذلك اليقين الصافي الذي يقتضي التسليم الكلي للأمور القطعية اليقينية التي ارتضاها المسلم لنفسه، وجزم بصحتها ببراهين قوية وصادقة، فاطمأن قلبه إليها اطمئنانا لا يشوبه شك ولا يعكره ظن، فآمن بها إيمانا عميقا حتى أصبحت جزءا منه تسري في عروقه سريان الدم، وإذا ما تحقق ذلك فقد فاز صاحبها بالطريق السليم، ووصل إلى تحقيق آماله وأهدافه بما فيها سموه الروحي.

وقد سعى الإبراهيمي إلى إحداث ثورة تجديدية لمفهوم العقيدة الإسلامية التي غرقت في آفات التقليد والجمود والتعصب المذهبي، كما سعى إلى نشر الوعي الإسلامي خاصة فيما يتعلق بالاستعمار الغربي المؤيد بالحركات التبشيرية، والمذاهب المادية الحديثة، فهو يرى بأن أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني هو الإسلام، باعتباره ينتهج في قيادته سياسة العدل والإحسان، ويسلك في طريقه أصول القوة والرحمة، كما يركز على حكمة الله- عز وجل- في عمارة هذا الكون يقول: «تولى الإسلام في أول مراحل قيادته العالم الإنساني العاشر للأقاليم المعتدلة، فقاده إلى

(1) المصدر السابق، ج4، ص 78.

السعادة والخير بأصلين من أصوله وهما القوة والرحمة، وبوسيلتين من وسائله في القيادة وهما العدل والإحسان، وبأحكامه المحققة لحكمة الله في عمارة الكون»⁽¹⁾.

ويشعر الإبراهيمي بالمسؤولية تجاه هذه العقيدة التي اختلت في النفوس فلابسها ثوب الخرافات والبدع الضالة مما أفقدها الثقة في الله فاضطربت في سلوكها، وفقدت توازنها في الحياة، فانفكت حلقات الترابط بين أفراد المجتمع بتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية «وتراجعت الفضيلة الإسلامية في المسلمين وحلت محلها الرذيلة وبخاصة عند الاحتكاك بالآخر»⁽²⁾؛ وهو الأمر الذي أدى إلى انحلال الأخلاق وفساد الدين والقيم.

وقد أحس الإبراهيمي بضرورة تحديد مفهوم هذه العقيدة، وبعثها على أسس متينة بترسيخ الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصد بعث فعالية الدين الإسلامي؛ ولأجل ذلك قام بإلقاء خطبة نفيسة أمام جموع محبي جمعية العلماء المسلمين يحثهم فيها على ضرورة إحياء مجد الدين الإسلامي في نفس كل مسلم، وهكذا وجب تصحيح أركانه الأساسية المتمثلة في العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق، ثم إعادة بعثها وفق منظور سليم: «فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق فكلكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلة وأن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب»⁽³⁾، فخربت وحدة المسلمين وتفكك ترابطهم، وقُطعت روح الأخوة بينهم ففسد المجتمع واختلت عقائده وانتشرت الآفات والمعتقدات الباطلة: «اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص 65.

(2) عيسى مدور، الخطابة في النثر الجزائري الحديث (موضوعاتها وخصائصها)، ص 234.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 133.

الباطلة فضعت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به واختلت العبادات فخوت النفس من تلك الآثار الجليلة التي هي سر العبادة والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي واختلت الأحكام فانتهكت الحرمات واستبيحت المحرمات وتفككت روابط الأسر الإسلامية، قطعت الأرحام وتعادى المسلمون وتباغضوا وتنكر الأخ لأخيه»⁽¹⁾.

ولعل المصيبة في الجزائر تكون عظيمة إذا ما اتخذ ركن من أركان الإسلام والعروبة وخرّ ساجدا سجوده الأخير⁽²⁾، فتموت الضمائر وتفسد الأخلاق وينهدّ المجتمع، ولذلك يؤكد الإبراهيمي على ضرورة شرح حقائق الدين وفضائله، وآداب الإسلام وحكمه، والسنن الميئة بإحيائها نشرًا ونصرًا بعد إحيائها علما وعملا⁽³⁾ باستجلاب العبر والعصاة، والتذكير بسير الأجداد وإحيائها وإعادة بعثها: «أمامكم حقائق الدين وفضائله وآداب الإسلام وحكمه فاشرحوها... وأمامكم السنن الميئة فأحيوها نشرًا ونصرًا كما أحييتموها علما وعملا، وارفعوا أصواتكم بلزوم إحيائها.

وأمامكم مباحث التاريخ الإسلامي وعبره وعضاته وسير أجداده فأحيوها تحيوا...»⁽⁴⁾.

إن لبعث الفعالية في مجتمع مريض يتطلب انفتاح العقل على الحكمة والموعظة الحسنة، ويستند في الاستدلال على العقيدة بالقرآن الكريم مراعاة لمصالح البشر وإثباتا لعقيدتهم، وإحياء

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 133

(2) ينظر، محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، 2005، ص 113

(3) ينظر، عمار جبدل، أسس بعث الفعالية في فقه الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع 2، ص 67.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج 1، ص 211.

لعبادتهم؛ لأن المعاملة الإسلامية مبنية على نظام المجتمع؛ ولذلك فإن العودة إلى تاريخ أسلافنا في إدارة الشؤون الإسلامية يفتح الكثير من الآفاق نحو فك عقد العديد من المجتمعات.

ثم إن الناظر في أحوال المسلمين ممن له ملكة التعليل وبعد البصيرة يجد أن أعظم علل المسلمين إنما تعود إلى الطريقة الكاذبة التي سيطرت على العالم الإسلامي، فإذا به ينساق نحوها مضيعاً دينه ودنياه، وقد حاول الإبراهيمي التصدي لهذا الخطر العظيم الذي يضرب الأمة الإسلامية في صميمها الديني، فجاهد بحره كثيراً لمحاربة هذه الطريقة مستعيناً بفكره الثاقب في طمس ظلامها من طريق الأمة فهو يرى أن أكبر علل المسلمين الدينية والاجتماعية إنما ترجع إلى هذه الطريقة الكاذبة الخاطئة التي أصبحت من قرون فكرة تسود العالم الإسلامي وتتحكم في دينه ودنياه، وتتدخل في حياته وسياسته ثم تستحكم في طباعه فإذا هو في غمرة من الذهول مطبقة أضاع معها آخرته ودنياه⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن أعظم مصيبة أصابت المسلمين هي «جفائهم للقرآن وحرمانهم من هديه وآدابه»⁽²⁾، فيتحسر لهذا الجفاء الذي يعزي منشأه إلى الطرق^(*) «فهي التي غشيت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها، وغشيتهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القرآن»⁽³⁾؛ ولذلك يجب فهم القرآن فهما سليماً بعيداً عن الشبهات، وهذا الفهم «يتوقف - بعد القرينة

(1) ينظر، المصدر السابق، ص 170.

(2) نفسه، ص 170.

(*) الطريقة في صميم حقيقتها، احتكار لاستغلال المواهب والقوى، واستعمار بمعناه العصري الواسع، واستبعاد بأفضع صورته ومظاهره، المصدر نفسه، ص 172.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج 2، ص 170.

الصفافية والذهن النير - على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل»⁽¹⁾.

ويسعى الإبراهيمي إلى نشر الوعي بقيمة العلم؛ لأنه أساس بعث الفعالية في حياة الفرد في شتى المجالات، كما أنه العامل الأساسي الذي يدفع إلى فهم الدين فهما صحيحا بعيدا عن البدع والخرافات، لأن الأمة التي تتعلم هي التي تحمل فوق تراجها جيل المستقبل بعقول سليمة، وعقائد صحيحة، وأعمال راقية، ترقى بها إلى شرف أمة المستقبل فهي: «أمة صحيحة العقول، صحيحة العقائد، صحيحة التفكير صحيحة الأبدان»⁽²⁾.

ويرى الإبراهيمي أن من أعظم الأمور التي تبعث في الأمة فعالية الحياة هي الأخلاق، فالعلم وحده مهما تشعبت أغصانه وتفرعت أركانه لا بد أن تصاحبه أخلاق فاضلة تبعث فيه الروح والحياة، وهو بذلك يوجه الأمة للصالحات ويربها تربية عقلية مثمرة⁽³⁾ استنادا إلى ركيزة الدين ورغبة في بعث روح التأخي بين أفراد المجتمع، ولا يتم ذلك في نظره إلا بإحياء الإسلام في النفوس، والتدبر في القرآن الكريم، وإعلاء كلمة الحق: فإذا أشرقت أنوار الإسلام وغمرت هدايته كل المجتمع البشري، فإن السعادة تكون مصيره في الدنيا والآخرة، وذلك هو مسعى الإبراهيمي وأمله لأبناء أمته، فهو يرغب في جعلها هدف كل فرد من أفرادها إلحاحا منه في إعداد النفوس

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 250.

(2) نفسه، ج 1، ص 142.

(3) ينظر، عمار جبيل، أسس بعث الفعالية في فقه الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع 2، ص 49.

«إعدادا روحيا يجعل المسلم موقنا بأنه إذا مات في سبيل الله ينتقل من حياة بعضها شقاء إلى حياة كلها سعادة»⁽¹⁾.

ويجدر بنا -وفق هذا السياق- أن نقول إن الإبراهيمي يقف هنا موقف الناقد للعقل البشري الذي أصبح لا يهتم إلا بالحياة الدنيا، متناسيا حياة أخرى أكثر سعادة، ومع ذلك فهو لا يستسلم لهذا الواقع المر، ويستمر في محاولاته المصرة نحو تغيير واقع المسلمين وإحياء عقيدتهم الإسلامية باعتبارها الغذاء الروحي المبني على حكمة الخالق، ويعمد في كل ذلك إلى مناقشة الأسباب التي أدت إلى فساد حال المسلمين، وإبراز جذورها التي يراها مجسدة في العصبية التي هي سبب كل الفساد والأمراض: «إن العصبية لأصل البلاء كله، فنشأت فيهم العصبية إلى الجنس وإن لم يعمر من التاريخ الصفحة، والعصبية إلى الرأي وإن لم يتعلق به من السداد نفحة، والعصبية للآباء وإن لم يكن لهم في الصالحات أثر والتعصب للأشياخ حتى فيما زاغ فيه الفكر وعثر»⁽²⁾.

ويؤكد الإبراهيمي أن هذه العصبيات هي السبب في تشتت الأمة وفساد حالها، وانحيار تماسكها، فضعف الدين في النفوس، وكاد الإسلام أن ينفك من القلوب، وهي أعظم المصائب على الإطلاق: «لهذه العصبيات، صارت الأمة الواحدة أمما وصارت السبيل الواحدة سبلا إذ نشأت عن العصبيات آثارها اللازمة، فساءت الحال وتراخت جبال الأخوة الإسلامية وضعف أثر الوازع الديني في النفوس، فضعف لضعفه أعظم ركن في الإسلام (وهو الأمر بالمعروف والنهي

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 210.

(2) نفسه، ج1، ص 110.

عن المنكر) فطغت المحدثات على السنن حتى غمرتها وأصيبت العلوم الإسلامية بما أصيب به المجتمع الإسلامي من فتور»⁽¹⁾.

وقد دفعت هذه العصبية إلى بذل جهود محمودة من طرف المصلحين في سبيل تنقيتها من المجتمع «ويندرج ذلك ضمن محاولات تجديد العقيدة الإسلامية الذي يعني إعادة إحيائها من جديد في نفوس المسلمين ببساطتها وسيرها وسماحتها وربطهم المباشر بالقرآن والسنة»⁽²⁾، والقضاء على كل الضلالات التي أفسدت المجتمع وبثت فيه فساد الأخلاق والنفوس، ومن أجل أن يكون هذا الدين صالحا لكل زمان ومكان كان التجديد فيه قانونا دائما⁽³⁾ مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽⁴⁾.

وختاما فقد أدرك الإبراهيمي أن العقيدة الصحيحة التي تكون مقاصدها إسعاد البشرية لا يكون أبنائها أشقى الناس بها؛ لأنها الأساس الفكري والنفسي لكل السلوكات الفردية، ومن ثم فقد عمل على ترسيخها وتثبيتها في النفوس بكل ما أوتي من فصاحة في القول وعبقرية في الفكر منتهجا في تجديده للعقيدة ثورة صاخبة على البدع والخرافات، ومؤكدا على ضرورة الارتكاز على القرآن والسنة النبوية والإقتداء بالسلف الصالح.

(1) المصدر السابق، ج 1، ص 110.

(2) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 316.

(3) ينظر، محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 1، 1984، ص 10.

(4) السجستاني، أبو داود سليمان الأشعث، صحيح سنن المصطفى، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت، ص 209.

3- الإبراهيمي والثورة على البدع والخرافات

لقد كانت العقيدة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم صافية نقية طاهرة، فصلحت بها الأمة صلاحاً، وخلدته بطون التواريخ، وشهدت له الأرض شهادة صامته تغني عن كل الناطقين، شرحها الواقع وفسرها العيان الذي لم تحجبه بضعة عشر قرناً⁽¹⁾، فاستطاعت بذلك أن تكون أمة مشرفة شرفت نفسها باتباع هدى القرآن، فكان لها موعظة ونورا وبرهاناً ورحمة وشفاء، ولكن خلف بعدهم خلف أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات والخرافات، فغشيت الدين غاشية سوداء و«كثير عديد الأعداء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمام والتعاويد والسبحات، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصاروا يشربون الخمر، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية استحياء»⁽²⁾، وكل ذلك بسبب هجر القرآن والابتعاد عن معانيه السامية وأحكامه العادلة، وانتشار المذاهب والطوائف والدعايات الفكرية المضللة.

وكانت كل هذه البدع والخرافات تحدياً خطيراً في الساحة الإسلامية، فالتاريخ الإسلامي حافل بالجهود والمحاولات الإصلاحية المجددة، والتي تهدف إلى محاربة كل ما من شأنه أن يمس بقيمة الدين الإسلامي، ولعل هذا ما يؤكد صدق الحديث النبوي الشريف: «إن الله يبعث لهذه

(1) ينظر، الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 94.

(2) محمد طهاري، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1992، ص 7.

الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»⁽¹⁾، وقد ظهر على الساحة عدة مصلحين حاول كل واحد منهم أن ينشر الوعي بطريقته الخاصة، ونذكر منهم الإمام الغزالي وابن تيمية والشيخ محمد عبده، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي الذي نشط في مجال التغيير نحو الأفضل نشاطا كبيرا، وقد كان المجتمع الجزائري غداة ظهور حركة التجديد الإسلامي يعج بالخرافات والبدع والأوهام التي سكنت في عقول أبنائه ووجدانهم، وأقام لها الطريقون نفوذا واسعا في نفوس العامة التي كانت تعود إليهم في دينها ودنياها خاضعة مستسلمة⁽²⁾، وقد دعمها الاستعمار رغبة منه في توسيع دائرة الجهل والتخلف.

وأحس الإبراهيمي بخطورة هذه الظاهرة ليس فقط على الجزائريين، بل على الأمة الإسلامية قاطبة، فدعا إلى ضرورة تصحيح هذه المعاني الفاسدة وإصلاحها إصلاحا شاملا لكل المفاصل النفسية؛ وذلك لبنى العلاج على أصل صحيح ممتد إلى الجذور التي تستمد قواها من الأخلاق، فهو يرى بأنها أول ما فسد بين المسلمين، فأفسد عليهم كل شيء؛ ولذلك يدعو إلى إصلاحها صارخا: «فلتكن هي أول ما نصلح إن كنا جادين في تثبيت الوعي واليقظة والنهضة... لأن الأخلاق إذا استقامت تفتحت البصائر للوعي وتهيأت الشواعر لليقظة وانبعثت القوى للنهضة، فكان الوعي بصيرا وكانت اليقظة عامة وكانت النهضة شاملة وكانت الحياة لذلك كله كاملة»⁽³⁾.

(1) عبد الرؤوف المنياي، كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، دار الكتب العالمية، القاهرة، ط4، 1954، ص 74 (حديث نبوي، رواه أبو هريرة).

(2) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 317.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 220.

وهو يرى أن هذه الخرافات والأباطيل قد طال عليها الأمد وانغrustت بعمق في الفكر حتى ظُن أنها هي الأصح: يقول «إن هذه البدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكون حربا عليها هي أمور قد طال عليها الأمد، وشاب عليها الوالد وشب عليها الولد وهي تعد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروها حقوقا لهم، وأنس بها العامة حتى اعتقدوها فروضا عليهم، فلا مطعم في زوالها إلا بصيحة مخيفة، تنزل أركانها»⁽¹⁾، وتطمس آثارها أو على الأقل تضعف هيبتها في النفوس ورهبتها في الصدور، وهو الهدف المنشود الذي سعى إليه الإبراهيمي؛ لأنه يعتقد جازما أن القضاء على البدع والخرافات لا يتم إلا عن طريق شن ثورة عارمة تقتلع جذوره بقوة من أعماق المجتمع، فدخل بذلك معركة حامية ضد كل مبتدع وخاض فيها بسيف الحق متسلحا بإيمانه القوي بأن النصر حق.

وقد عاهد الإبراهيمي الله على أن يطهر دينه من الداخل والخارج وأن ينصره على النفوس حتى يكون له عليها سلطان، يقول: «لذلك حملنا حملتنا المشهورة على البدع والضلالات حتى قوضنا أركانها، و أتينا بنيناها من القواعد، فتلك بيوتها خاوية بما أقر أهلها من منكر، وما هجروا من معروف... ومن لم يهده القرآن، وكلناه إلى الزمان، ونعم المرئي هو»⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ج1، ص 118.
(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 164.

وقد تمسك الإبراهيمي بعهد هذا كل التمسك غير مبال بطول الزمن، ولا بتوالي المحن «فما الزمن إلا من أعواننا، وما المحن - وإن توالى - إلا مسان لعزائنا وما أعمارنا في عمر الإسلام إلا دقيقة من دهر، فلننققهما فيما يعليه»⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن حماية العقيدة من البدع والخرافات هي من مسؤولية علماء الإسلام؛ لأنهم يشكلون العقل الواعي في الأمة؛ ولأن الضلال في الدين هو إذلال في الدنيا؛ لذلك يلوم العلماء الذين غفلوا في نوم أعمق من أصحاب الكهف «إلى أن فتحوا أعينهم على دين غير الدين فشبه لهم، وأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وأصبحوا يزكون بعلمهم ذلك الجهل ويشهدون لأولئك القادة الجاهلين بالكمال والفضل ولأولئك المبتدعين بما انتحلوه لأنفسهم من الولاية والكرامة، على المعنى الذي اخترعوه، لا على المعنى الذي جاء به الدين»⁽²⁾.

ففسدت المعتقدات، وغرق الفكر الإسلامي في البدع والخرافات والضلال، ويضرب الإبراهيمي لذلك بمثال حي رآه بعينه في طريقه بتونس، حيث رأى عالماً يعد من الطبقة الممتازة في علماء جامع الزيتونة، رآه يهوي بالتقيل على يد مخرف مبتدع جاهل متعظم سقط في عينه، فما ذكره حياً ولا ترحم عليه ميتاً يقول: «وسقط ذلك العالم من حسابي، فما ذكرته بخير حياً، ولا ترحمت عليه ميتاً، ولا عدت موته - كموت العلماء - ثلماً في الإسلام!...»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 164.

(2) نفسه، ج2، ص 343.

(3) نفسه، ج2، ص 344.

ثم أقسم الإبراهيمي أن هيبة العلماء لن تعود إلى مستقرها من النفوس إلا إذا تضافروا «على حرب البدع والضلالات التي لابتست الإسلام، ولبست عقائده ففسدت وآدابه فكسدت، ولبست على المسلمين دينهم فأصبحت حقائقه في واد، وعقولهم في واد»⁽¹⁾، وإن هذا هو البلاء المبين والخطر العظيم، فانقطاع الصلة بين الإسلام والمسلمين أمر ترفضه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي بذلت قصارى جهدها في الإصلاح الديني حتى بلغت صيحتها عقول الأمة الإسلامية «فأصبحت آثارها بادية في العقول والأفكار والإرادات، وقد رجع للقرآن بعض نفوذه وسلطانه، وحجته وبرهانه، وللسنة النبوية مكانها علما وعملا، وللعلماء المصلحين قوتهم في التوجيه، ومكانتهم في التدبير، وقدرتهم على القيادة»⁽²⁾.

ويعتبر الإبراهيمي أن هذه النتيجة معجزة كبيرة ادخرها الله للجزائر، إذ لا يوجد قطر من أقطار الإسلام تأثر بالفكرة الإصلاحية الدينية بالقدر الذي تأثر بها مسلمو الجزائر، والفضل في ذلك يرجع إلى رجال الجمعية الذين قاموا بتطهير عقائد المسلمين وتوجيههم التوجيه الذي ينير طريقهم في الدنيا والآخرة، كما عملوا على «إنقاذهم بذلك من عصبية المذاهب والطرق التي فرقت شملهم، ومصائب التفرق والخلاف التي أذهبت ريجهم»⁽³⁾، وكل ذلك هو تطهير للدين الإسلامي من الأوهام والأباطيل⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق ، ج2، ص 344.

(2) نفسه، ج2، ص 345

(3) نفسه، ج2، ص 345.

(4) ينظر ، طهاري محمد، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ص 140.

إن البدع والضلالات- في نظر الإبراهيمي- هي التي مهدت للانحلال وفساد الأخلاق بين المسلمين، وهي التي فتحت ثغرة الضعف في نفوسهم، كما فتحت باب الفشل في عزائمهم، ولذلك وجب على المسلمين جميعاً أن يقفوا وقفة القوي في وجهها: «ولو فعلوا ذلك لأعادوا للإسلام قوته وكماله، ونضرتة وجماله، وللمسلمين مكانتهم في التاريخ»⁽¹⁾.

إن الإبراهيمي- في فكرته هذه- يضع كل المسؤولية على عاتق علماء الإسلام؛ لأنهم يملكون في نظره سلطاناً على الأرواح مستمداً من روحانية الدين الإسلامي التي لها تأثير كبير على النفوس «فتخضع له العامة عن طوعية ورغبة خضوعاً قطرياً لا تكلف فيه، لشعورها بأنهم المرجع في بيان الدين، وبأنهم لسانه المعبر حقاً عن حقائقه، والمبين لشرائعه، وبأنهم حراسه المؤمنون على بقاءه، وبأنهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوة»⁽²⁾؛ لذلك فالإبراهيمي يعلق على هؤلاء العلماء المسلمين كل الآمال في دفع الأمة نحو الأمام، بعيداً عن كل ما يعكر صورة الدين الإسلامي أو يشوه أحكامه.

ودعا الإبراهيمي إلى التعمق في فهم مسائل العقائد مستندين على القرآن الكريم بتفسير آياته وشرحها شرحاً عميقاً مبيناً على أصول العقيدة الإسلامية كما كان السلف الصالح يفعل: «أقام سلفنا الصالح دين الله كما يجب أن يقام واستقاموا على طريقته أتم الاستقامة، وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنة، لا يتعدونها ولا يتناولونها بالتأويل، وكانت أدواتهم لفهم

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 345.

(2) نفسه، ج2، ص 341.

القرآن، روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة»⁽¹⁾، كما دعا إلى الابتعاد عن كل المعتقدات والاصطدامات والمناقشات الفكرية والمناظرات الكلامية، التي من شأنها أن تصنع جدلا فكريا مرهقا للعقل ومنفرا للنفس.

ويرى الإبراهيمي أن المسلم يعتز بإسلامه ويفتخر بالانتساب إليه فدعا بناة الإصلاح أن يتخذوا من هذه النقطة قاعدة يقيمون عليها هيكل الإصلاح: «وليقلوا لهذا الأخ المعتر بنسبه بارك الله عليك أيها الأخ أنت مسلم، ولكن للإسلام واجبات يقضي بها عليك وواجبات يتقاضاها منك، وآداب يروضك عليها لتستحق بذلك منازل الكرامة في دنياك وآخرتك، وهو يريد تكميلك فلا تنقصه، ويريد أن تكون حجة به فلا تكن حجة عليه»⁽²⁾.

بهذا الأسلوب اللين، وهذا المنهج السليم، وهذه المعاملة الطيبة يريد الإبراهيمي من بناة الإصلاح أن يتعاملوا مع المسلم ليصححوا له دينه، ويوضحوا له عقيدته على نهج سليم ترتاح له القلوب بعيدا عن الضغط والتعصب والإكراه؛ لأن الإبراهيمي يعالج القضية بلغة المنطق ولغة العقل، فهو يدفع المسلم إلى التفكير السليم بأسلوب مميز راق يجعل المسلم يتحسر على حاله، بل ويحاسب نفسه.

وختاما فإن الإبراهيمي قد حاول -بكل ما أوتي من فصاحة في اللسان- إعادة المسلمين إلى جادة الطريق، وتوعيتهم بحقيقة دينهم الذي يفتخرون بالانتساب إليه ولا يفهمون أصوله جيدا، فلا يطبقونها كما يجب، وقد سهر على محاربة كل البدع والخرافات والأضاليل التي تتراكم

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 94.

(2) نفسه، ج1، ص 38.

في القلوب لسبب أو لآخر، وعمل على محو جذورها من النفوس بالعودة إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، وتفهم القرآن بالتعمق في معانيه والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل بعيدا عن كل البدع والخرافات.

ثالثا: المجال السياسي

- توطئة

1- السياسة الخارجية.

أ. القضية الفلسطينية.

ب. قضايا المشرق الإسلامي.

ج. قضايا المغرب العربي

2- السياسة الداخلية.

أ. قضية الاستعمار.

ب. فصل الدين عن الدولة.

توطئة:

لم يكن الإبراهيمي الرجل السياسي بالمعنى الرسمي للسياسة التي تقتضي تشكيل الأحزاب ودخول الانتخابات بقدر ما كانت نظرتة تغييرية للحياة السياسية الجزائرية التي كانت تبعث في نفسه الغيرة على وطنه ودينه ولغته، فدخل المعركة السياسية بقلمه وفكره وروحه راغبا في طمس كل القوى الاستعمارية التي من شأنها أن تمس بكرامة الجزائر والجزائريين؛ ولذلك لم يتخذ في عمله السياسي شكلا حزبيا واضحا كما هو الحال بالنسبة للحركات الحزبية، وإنما كانت رؤيته أوسع بكثير من تلك الحركات؛ لأنه ضمّن أهداف الكبرى العامة للحركة التغييرية التي شنها في جميع الأصعدة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية بغية تحقيق الأهداف المنشودة.

ومن هذا المنطلق ركب الإبراهيمي رؤيته الإصلاحية في المجال السياسي؛ لأنه يعتبره المجال الأوسع في حياة الأمة؛ فهو يضمن حقوق شعبها، ويؤكد هويتها الوطنية، ويدافع عن كرامتها وعرضها واستمراريتها في الحياة، فأحس بالمسؤولية في كل ذلك، الأمر الذي جعله يجاهد بقلمه في مختلف القضايا التي تندرج ضمن هذا المجال، فكتب عدة مقالات يعرض فيها همجية الاستعمار كاشفا جرائمه، فاضحا أساليبه الدنيئة، كما وقف مطولا عند قضيتين أساسيتين كانتا محل انشغال الشعب الجزائري وهما "قضية فصل الدين عن الدولة" و"قضية فصل الدين عن الحكومة"؛ كما أنه لم يكن منعزلا عن السياسة الخارجية بل كان يتابع ما يحدث في دول العالم الإسلامي والعربي من أحداث، ويعبر عن شعوره نحوها وموقفه منها وسنحاول تسليط الضوء على كل هذه القضايا ضمن السياسة الخارجية والداخلية للوطن على النحو التالي:

1- السياسة الخارجية:

لقد كرس الإبراهيمي جهده ووقته من أجل تغيير واقع بلاده السياسي، ونشر الوعي القومي في نفوس شعبه، فكان له الأثر العظيم في ذلك باعتبار مكانته الروحية عند الشعب الجزائري، كما كان لمواقفه وآرائه صدهاها الخاص، وأثرها الطيب؛ لأنه عاش الثورة بكل وجدانه، وتأثر لكل حوادثها وانفعل مع كل مشاكلها، وتجاوب مع كل انتصاراتها؛ فكان أدبيا سياسيا، ثوريا موعلا في مأساة الشعب الجزائري بأدب ثائر حزين.

لقد جاء نثره في شكل نبضات إيمانية حاملة بالحق والعدل والنور، ولم تكن مقتصرة على ما يقع في الجزائر فحسب، بل امتدت إلى دول العالم الإسلامي والعربي وما يجري فيهما من أحداث وحروب، فقد خصص في كتابه عيون البصائر مقالات مطولة حول المغرب العربي والقضية الفلسطينية، وقضايا المشرق الإسلامي، وقد بدا متأثرا بكل ما يحدث فيها من مأس وآلام، فسال حبره ساخطا على هذا الواقع المر متحسرا لما آلت إليه الأمم من تراجع وتحلف بسبب الاستعمار، فكانت رؤاه صبايات وأحاسيس ثورية إرهابا للثورة، وإعدادا للجهاد.

وكان ضمن القضايا الخارجية التي تناولها قلم الإبراهيمي بفكر صادق وعاطفة قوية موقفه الشجاع في معالجة الأحداث السياسية في المغرب الأقصى، وبخاصة ما تعلق بقضية خلع ونفي محمد الخامس وبطلان إمامة السلطان المفروض محمد بن عرفة⁽¹⁾.

(1) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 515.

وتحدث أيضا عن استقلال ليبيا في "كلمة إلى الشعب الليبي"⁽¹⁾ مشيدا باستقلالها ومحدرا من مستقبلها من شر تحكم السياسة، يقول: «فكان من الواجب على مليكم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال وأن يقدروا الأثمان التي اشتري بها وأن يسوسوه بالحكمة والحذر، وأن يحفظوا ذمة الشهداء الأبرار من بنيه، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه من دموع ودماء... وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب، وبالقريب لا بالغريب»⁽²⁾، فنبه بذلك الليبيين إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر من أن يقعوا تحت عبودية جديدة أشنع من الاستعمار الإيطالي قائلا: «إنكم ستصبحون بسببها غرباء في أوطانكم مستعبدين لأعدائكم»⁽³⁾.

ويحاول الإبراهيمي أن يوقظ الفطنة في نفوس الليبيين «حتى لا يقعوا فيما خططه لهم الاستعمار الجديد من مشاريع اقتصادية ترد لهم تحت أسماء براقة وتخفي تحتها عبودية جديدة»⁽⁴⁾. كما خاض الإبراهيمي أيضا في عدة قضايا تخص المغرب العربي والمشرق الإسلامي، وعالج القضية الفلسطينية بفكر صادق وعاطفة قوية:

أ. القضية الفلسطينية

تعتبر القضية الفلسطينية من أكبر القضايا التي شغلت العالم العربي على امتداده في الكرة الأرضية، فهي القضية «الوحيدة التي لا تخبو نارها ولا تذوب آثارها، ولكنها تتجدد مع الأيام،

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 238.

(2) نفسه، ج4، ص 239.

(3) نفسه، ج4، ص 239.

(4) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 515.

ويستمر زخمها صاعدا مع الزمن، يزداد توهجا كلما قدمت»⁽¹⁾؛ ذلك أن الأمر لا يتعلق بالحرية كمصطلح ضروري لكرامة أي فرد في الوجود فحسب، بل أن الأمر يتعلق بضمير الإنسانية جمعاء حين يجرح المرء في كرامته في عصر يزعم أنه عصر الحرية واحترام حقوق الإنسان⁽²⁾، ويزداد هذا الجرح عمقا حين يجد الإنسان العربي نفسه مكبلا بالقيود، عاجزا عن تفجير القنابل وإطلاق الرصاص في وجه الصهاينة، فلا يجد بديلا لذلك سوى المواساة بالقلم، وما يذرفه هذا الأخير من مشاعر قوية صادقة حزينة منفصلة مع كل حدث ومتجاوبة مع كل رصاصة، فإذا جلال الموت ورهبته تسقط في برك الأحزان، وإذا بالشعوب العربية تتعاقب مع أرواح فلسطين؛ فإذا بها تلبس معاناتها وتتجرع من كؤوس عذابها حتى الثمالة، ولا عجب «أن نرى الشعراء الجزائريين الشهداء ينفردون بهذا التصور للوطن الكبير لأنهم كانوا منفردين في آلامهم وعنائهم فكانت حوادث الأمة العربية الإسلامية تبدو لهم موجعة، مما جعل الحزن يسربل قصائدهم بالهم العربي الإسلامي، ويلونها بألوان جهادية تارة، وألوان قاتمة أخرى»⁽³⁾.

ولا عجب أيضا أن نقر أن «الأدباء العرب هم من الفئات التي حملت عبأ هذه القضية منذ بدايتها، فرفعوا أصواتهم منددين بالظلم والسلبية وعدم الوعي... وبدأ العالم يفيق من سباته ليقف إلى جانب الحق والعدل فاعترف في قراراته بحق الشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير»⁽⁴⁾.

(1) عبد الله ركيبي، فلسطين في الأدب الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، د ط، ص 7.

(2) ينظر، نفسه، ص 7.

(3) محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 118.

(4) عبد الله ركيبي، فلسطين في الأدب الجزائري الحديث، ص 11.

وكان البشير الإبراهيمي من ضمن الأدباء العرب الذين لا نغالي إذا قلنا أنه دبح مقالات طويلة مشحونة بأصدق الكتابات عاطفة، وأرقها مشاعرا حول هذه القضية، صور فيها فلسطين في أعظم صورة، ولونها بكل مشاعر الحب والوفاء، فإذا بها قطعة من جسمه يئن لأوجاعها سائر الجسد: «يا فلسطين! إن في قلب كل مسلم جزائري في قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري من محتك عبرات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقك كلمة متروكة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير، قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير»⁽¹⁾.

ثم إن تمسك المسلم بقدسيتها نابع من كونها تجسد أولى القبلتين، وتصور بداية المرحلة السماوية من تلك الرحلة الواصلة بين السماء والأرض في الرحلة المحمدية: «يا فلسطين إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإن هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين، وأن فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله»⁽²⁾.

ويصور الإبراهيمي ظلم الصهاينة، وسفاهتهم وتجبرهم ناقما عليهم وعلى نكرانهم للحق فيقول: «يا فلسطين! ملكك الإسلام بالسيف ولكنه ما ساسك ولا ساس بنيك بالحيف فما بال هذه الطائفة الصهيونية اليوم تنكر الحق، وتتجاهل الحقيقة، وتجدد الفضل، وتكفر النعمة،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 491.

(2) نفسه، ج2، ص 491.

فتزاحم العربي الوارث باستحقاق عن موارد الرزق فيك، ثم تغلو فتزعم أنه لا شرب له من ذلك المورد»⁽¹⁾.

ثم يستند الإبراهيمي على المنطق في أحقية أرض فلسطين للفلسطينيين فيجسد فكرته في صورة رائعة زادت روعة فرضياتها العقلية حيث يقول: «ولو أن السيوف الانجليزية أغمدت والذهب الصهيوني رجع إلى مكانه، وعرضت القضية على مجلس عدل وعقل لا يستهويه بريق الذهب ولا يرهبه بريق السيوف، لقال القانون: إن ثلاثة عشر قرناً كافية لتملك بحق الحياة، وقال الدين: إن أحق الناس بمدفن الأنبياء هم الذين يؤمنون بجميع الأنبياء، وقال التاريخ: إن العرب لم ينزعوا فلسطين من اليهود، ولم يهدموا لهم فيها دولة قائمة ولا تلو لهم عرشاً مرفوعاً، وإنما انتزعوها من الرومان فهم أحق بها من كل إنسان»⁽²⁾.

ويؤكد الإبراهيمي بالأدلة والبراهين أن فلسطين هي ملك للعرب المسلمين وأنهم أحق بها من أي جنس على وجه هذا الكون، فيهدم بذلك دعوى الصهيونيين في صهيونية فلسطين مؤكداً أنها قطعة من جزيرة العرب، وأنهم أحق بها من غيرهم فيقول: «إن فلسطين أرض عربية لأنها قطعة من جزيرة العرب، وموطن عريق لسلائل من العرب، استقر فيها العرب أكثر مما استقر اليهود، وتمكن فيها الإسلام أكثر مما تمكنت اليهود، وغلب عليها القرآن أكثر مما غلبت التوراة وسادت فيها العربية أكثر مما سادت العبرية»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 492.

(2) نفسه، ج2، ص 493.

(3) نفسه، ج2، ص 494.

وبعد أن أثبت الإبراهيمي أحقية العرب بفلسطين، وهدم دعوى الصهاينة لها توجه إلى العرب داعيا إياهم إلى الاتحاد والتعاون فيما بينهم يقول: «أيها العرب! إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم وأموالكم ووحدتكم، وليست حقوق العرب فيها تنال بأنها حق في نفسها... وإنما تنال بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة»⁽¹⁾.

ويزداد قلم الإبراهيمي لهيبا حول فلسطين فيتحسر لانقسامها متسائلا إن كان العرب يرجون من الدول المتحدة على الباطل غير ذلك مشيرا، أن فلسطين قد ظلمت يوم بذل بلفور وعده للصهيونيين باسم حكومته، فكان ناقما على الوضع موجحا العرب دون شفقة يقول: «أيها العرب! قسمت فلسطين فقامت قيامتكم... هدرت شقائق الخطباء، وسالت أقلام الكتاب، وأرسلها الشعراء صيحات مثيرة تحرك رواكد النفوس، وانعقدت المؤتمرات، وأقيمت المظاهرات- ويحكم- ماذا فعل الصهيونيون من يوم الوعد إلى يوم التقسيم وانظروا ماذا فعلنا»⁽²⁾.

لقد استطاع الإبراهيمي أن يوصل لهيب القضية إلى النفوس فأيقظ فيها الضمير العربي: «ولعل انبعاث هذه القضايا في فترة استعمارية عصبية أطبقت على الأنفاس الجزائرية حتى الاختناق، وأحاطت بأقلام الكتاب حتى المطاردة، ثم لم يقف كل ذلك حائلا بين النفس المختنق والنظرة النافذة، والقلم المطارد، والفكرة الرائدة، لعل في ذلك الدليل القاطع على النبتة الثورية في هذا الوطن عميقة الجذور، سخية التربة»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 495

(2) نفسه، ج2، ص 498.

(3) صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثورية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص 121.

ويستمر الإبراهيمي في إلقاء اللوم على العرب قائلاً: «فلو كنا ممن يفكر ويقدر ويأخذ بالأحوط الأحزم، لبدأنا من أول يوم بالإعداد والاستعداد، فأعددنا المال، وأعددنا العلم واستعددنا بالصناعة، وإن في ثلاثين سنة ما يكفي لأن نستعد كما استعدوا وأكثر مما استعدوا»⁽¹⁾، وقد أدرك العرب أن الطريق الصحيح للوقوف ضد الاستعمار لا يتحقق «إلا عن طريق إذكاء الوعي القومي والمشاعر القومية فالأمة العربية جزء واحد لا يتجزأ فإذا استبيح جزء منه فكأن الوطن العربي قد استبيح برمته»⁽²⁾.

ويركز الإبراهيمي على ضرورة التوضيح في سبيل الحق مؤكداً أن العروبة في حاجة إلى ذلك الطراز العالي من بطولة العرب وأن السلام في حاجة إلى ذلك النوع السامي من الموت في سبيل إعلاء الحق.

ويشير الإبراهيمي إلى فكرة حقيقية مهمة تتمثل في احتقار الصهاينة للعرب؛ لأنهم يدركون أنهم ضعاف بلا سلاح ولا معامل للكيمياء، فاتخذوا من هذه القاعدة ركيزة لتقسيم فلسطين: «لا نملك مصنعا للسلاح، ولا معملا للكيمياء ولا رجالا فنيين كالذي يملكه اليهود من كل ذلك، وأن ثلاثين سنة مرت -وكلها نذر بهذه العاقبة- لم توقظنا من غفلتنا، ولم تدفعنا إلى الاستعداد لها، فقالوا: نقسمها ونريح اليهود، لأن لنا فيهم فائدة معجلة، ولا نخشى العرب لأنه ليس فيهم مضرة موجلة»⁽³⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 499.

(2) عمر محمد الطالب، الأدب والشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية، مجلة الوعي القومي العربي، مركز دراسات الوحدة 138 العربية، بيروت، طو، فبراير 1984، ص 314.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 501.

لقد رد الإبراهيمي على هذا الاعتقاد بمنطق رزين وحكمة بالغة حين أشار إلى أن هؤلاء الصهاينة الذين يبنون كل شيء على الماديات فاتهم سلاح مهم هو الروحانيات، وأن للعرب حظ كبير في هذه القوى المقدسة، يقول: «ولكن فات أولئك البانين لكل شيء على الماديات أن هناك سلاحا أمضى من جميع الأسلحة المادية، وأنه الشرط الأول في نفعها وغنائها، وهو سلاح الروحانيات من إيمان بالحق، واعتداء بالنفس، وحفاظ على الكرامة، وتقديس للشرف، وإباء للضيم، ومغالة بالتضحية والفداء، واستخفاف بالظلم والظالمين، وفاتهم أن العرب وإن نزر حظهم من القوى المادية التي لا يستهين بها إلا جاهل، فإن حظهم موفور من القوى الروحية التي لا يستهين بها إلا مغرور»⁽¹⁾؛ وهو بهذا المنطق يثير نخوة أبناء وطنه؛ لأنه يدرك قيمة الروحانيات عند العرب، ويعرف جيدا معنى الشرف وقديسيته لديهم، ويصرح بأن استرداد فلسطين لا يكون بالتمني والخطب وإنما «بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة»⁽²⁾.

ويستمر الإبراهيمي في أسلوب ساخر بتصوير أحقية العرب لفلسطين مشيرا إلى حقائق واقعية، مستندا إلى العقل والمنطق فيقول: «فات اليهود أن يأخذوها بالسيف من العرب فيكفروا بعد عشرات القرون عن سيئة اجترحها أسلافهم يوم قالوا: يا موسى إن فيها قوما جبارين...»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 502.

(2) نفسه، ج2، ص 488.

(3) نفسه، ج2، ص 503.

ويعبر الإبراهيمي عن تعاطف الشعب الجزائري مع شقيقه الفلسطيني، ويصر على أن ما يجري هناك هو مجرد امتحان للعرب كلهم: «إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائرهم وهممكم وأموالكم ووحدتكم وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم وإنما هي للعرب كلهم»⁽¹⁾. إن هذا الرأي يعكس أصالة الإبراهيمي في تفكيره، ويجسد موقفه كعالم من الإصلاح، ولكن في الوقت نفسه يجعل من قضية فلسطين قضية عربية، ويستجلي حقيقة واضحة وهي أن فلسطين للعرب جميعاً⁽²⁾.

ثم يصل الإبراهيمي في ختام مقاله الموسوم بـ "العرب واليهود في الميزان عند الأقوياء"⁽³⁾ إلى حقيقة واضحة وأسلوب قوي وفكر عميق، وهي حقيقة عميت عنها الأبصار، وغشيت عنها السرائر، وهي أن «فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصابة إنا إذن لخاسرون»⁽⁴⁾.

وفي مقال آخر بعنوان "ماذا نريد لها وماذا يردون"⁽⁵⁾ يناقش الإبراهيمي نظرة العرب إلى فلسطين ويوازن بين ما يريده العرب لها وما يرغب فيه اليهود تجاهها، ثم يقارن بين رغبات هؤلاء وطموحات أولئك بأسلوب قوي يحمل من السخرية ما يجعل اليهود في موقف منحط: «نحن العرب نريد لفلسطين أن تكون عربية، وأن تبقى عربية، فتبقى لها بشاشة النبوة وحلاوة الإيمان، وجاذبية الوحي، وروحانية الشرق، ومخايل السامية، وصبغة السماء، نريد أن تبقى عربية

(1) المصدر السابق، ج2، ص 487.

(2) ينظر، عبد الله ركيبي، فلسطين في الأدب الجزائري الحديث، ص 157.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 501.

(4) نفسه، ج2، ص 504.

(5) نفسه، ج2، ص 505.

الأنساب... نريد أن تبقى أرضاً مقدسة مكملّة لقدسيتها مكة ويثرب... نريد لها أن تبقى - كما كانت - جزءاً طبيعياً من جزيرة العرب مكملّاً لبقية الأجزاء... ويريد اليهود أن يجعلوها وطناً قومياً يحققون به الأحلام الدنيئة، التي فتنت أحبارهم، والمطامع الدنية التي فتنت أغنياءهم...»⁽¹⁾؛ إنه بهذا الفكر يرقى بالعرب إلى مكارم الأخلاق، وقمم الأتقياء، وينزل باليهود إلى مراتب الذل والهوان، وهو في كل ذلك لم يظلم أحداً وإنما قال كلمة الحق وسما بها إلى مكانها الأصيل.

ثم إن الإبراهيمي قد وعى جيداً دور الإنجليز في المؤامرة ضد فلسطين، ولذلك فقد دمج مقالاً حول هذه المؤامرة الدنيئة بعنوان "الإنجليز حلقة الشر المفرغة"⁽²⁾ صاغ أفكاره «بأسلوب أكثر عنفاً وأشد هجوماً لأن سياسة الإنجليز متجبرة ظالمة، ولأنهم هم سبب الكارثة، فهم في رأي الكاتب أشد سوءاً من الشيطان، ويقارن بينهم وبينه، وتكون المقارنة طريفة حين يسوق التشابه والمفارقة العجيبة»⁽³⁾، فإذا به يصور الإنجليز في صورة شيطان منه يبتدئ وإليه ينتهي، غير أنه بإمكاننا طرده بالتعاون والإيمان بينما الإنجليز «يزيدون عليه بأنهم لا يطردون بالاستعاذة وتذكر القلب ويقظة الشعور، وإنما يطردون بما يطرد به اللص الوقح من الصفع والدفع والإحجار والمدر، وقد يدفعون بما يدفع به العدو والموائب»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 505.

(2) نفسه، ج2، ص 509.

(3) عبد الله ركيبي، فلسطين في الأدب الجزائري الحديث، ص 164.

(4) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 509.

ويستمر الإبراهيمي بهذا الأسلوب الساخر الذي يحط من قيمة اليهود تارة، ويرفع من قيمة فلسطين تارة أخرى، فإذا بنا أمام مفارقة عجيبة سواء من الناحية العقلية أو المنطقية أو حتى الواقعية، وإذا بنا أمام «صورة أخرى للشيطان أشد بشاعة من التي يعرفها الناس أو يقرؤونها حول الشيطان، وقد ساق هذه الصورة للإنجليز لا من أجل تصوير موقفهم ودورهم في المؤامرة فحسب ولكن لينبه العرب الذين اغتروا بهم وبنعومة وعودهم ومعسول كلامهم»⁽¹⁾.

ثم ينبه الإبراهيمي العرب إلى خطورة المغتصب الإنجليزي ويعيدهم من شره بعد أن افتضح سره وبانت نواياه فقد: «فتن ضعفاءكم بالخوف، وفقراءكم بالمال، حتى أخرجهم من ديارهم واتخذ الصنائع والسماسة منكم، وبنى المدن بأيديكم، ومهد الأرض بأيديكم وشاد المصانع بأيديكم، وأقام المتاجر وبيوت الأموال لامتناس دمائكم وابتزاز أرزاقكم»⁽²⁾.

وهو بذلك ينبه العرب بأن المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين، فيحذرهم من شروره ونواياه بأسلوب فيه كثير من اللوم والعتاب «وقد لدغتم من الجحر الإنجليزي مرات فلم تحتاطوا ولم تعتبروا وخدعتم من الجانب الإنكليزي كرات فلم تتعظوا ولم تتصبروا، خدع خلفكم كما خدع سلفكم»⁽³⁾، ويزيد الإبراهيمي من حدة غضبه وسخطه على العرب قائلا: «فيا ويحكم...أكل ذلك لأن الإنكليز أغنياء وأنتم فقراء؟ أم لأنهم أقوياء وأنتم ضعفاء؟...»⁽⁴⁾.

(1) عبد الله ركيبي، فلسطين في الأدب الجزائري الحديث، ص 165.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 510.

(3) نفسه، ج2، ص 511.

(4) نفسه، ج2، ص 510.

وهو يرى أن العرب يشعرون بالنقص أمام الإنجليز فيصح لهم اعتقادهم الخاطئ ويقلب الموازين في أعينهم ليضعهم في الصورة الحقيقية التي يجب أن يؤمنوا بها؛ لأنه - بنظره الثاقبة وعمق تفكيره - يفسر لهم سبب غناهم وسبب قوتهم قائلا: «إنهم لأغنياء بكم وبأمثالكم من الأمم المستخذية، وليسوا أغنياء عنكم - وإنهم لأقوياء بما يستمدون من أرضكم وجيوبكم»⁽¹⁾.

وبعد أن يؤكد الإبراهيمي هذه الحقيقة المستترة خلف الإنجليز، يبرهن للعرب على جديتها، ثم يكشف لهم عن أسباب الغنى والقوة، ويبين لهم السبل التي تدفع إلى تحقيقهما قائلا: «إن الغنى عمل وتدبير، فلو عملتم لكنتم أغنياء، وإن بدء الغنى من غنى النفس بالتعفف عن الكماليات، وفطمها عن الشهوات، وإن القوة مشيئة لا جبر، فلو شئتم أن تكونوا أقوياء لكنتم، وإن بدء القوة من قوة الأخلاق، وقوة الاتحاد»⁽²⁾.

وتثور فيه نخوة العربي فيوضح انتماءه للعروبة ويفتخر بهذا الانتماء الذي يجعله فردا من فلسطين باسم العروبة أولا وباسم الإسلام ثانيا، ويعمم هذا الانتماء لكل العرب فيقول: «وإذا حشر نفسه في العصبية الذائدة عن فلسطين، وأشركهما في العصبية الغالية لفلسطين، فليس بمدفوع عن ذلك لأنه عربي أولا ومسلم ثانيا وفلسطيني بحكم العروبة والإسلام ثالثا»⁽³⁾؛ ومن هذا المنطلق يخول الإبراهيمي لكل عربي المشاركة في الجهاد لإعلاء كلمة الحق ومن ثم إعلاء كلمة

(1) المصدر السابق، ج2، ص 511.

(2) نفسه، ج2، ص 511.

(3) محمد الطالب، الأدب والشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية، ص 318.

(4) نفسه، ص 318.

فلسطين؛ لأن: «نكبة فلسطين بالاستعمار والإسرائيليين هي جزء من نكبة العرب في جميع الأقطار العربية بهما»⁽¹⁾.

وهي الفكرة التي حاول الإبراهيمي أن يزرعها في نفوس العرب فيجعلهم يحسون أنهم جزء من فلسطين، وأن قضيتها هي قضيتهم، وأن مصيرها هو مصيرهم، وهذه سمة الإبراهيمي في التعامل مع القضايا الكبرى: «فالرجل لم يعيش لنفسه وإنما عاش لدينه ووطنه ولغته وبني ملته، وتلك هي العظمة وذلك أبرز مظاهرها في حياته وبعد مماته»⁽²⁾.

وهكذا حاول الإبراهيمي بكل ما أوتي من فصاحة في القول وبلاغة في الفكر أن يلم بالقضية الفلسطينية من جميع جوانبها، فاستطاع أن يجسد أفكاره بأسلوب مؤثر وعميق، فخلد بذلك أفكاره خلود القضية في حد ذاتها، وكما أذاب الجليد المتحجر في كثير من النفوس، وكما أزال غشاوة البصيرة في العديد من المواقف.

ب. قضايا المشرق الإسلامي:

لقد تفاعل الإبراهيمي مع مختلف أحداث العالم العربي والإسلامي فكان يشعر بالمسؤولية في توعية الأمانة وإيقاظ ضميرها، وتحريك الهمم وشحن النفوس، وذلك ما تقتضيه أمانة العالم «وتحتمه أخلاق الرجولة وتفرضه الوطنية الصادقة النزينة، والشعور بالولاء التام، والانتماء المطلق لهذه الأمة»⁽³⁾، فكان شديد التأثير بكل ما يحيط به من أحداث وما يدور حوله من قضايا،

(2) محمد فلوسي، مقياس الرجولة والعظمة في نظر الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 28.
(3) محمد دراجي، المشرق العربي، (مواقف الإمام الإبراهيمي)، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص13.

ويسعى جاهدا في إحاطتها بالتحليل والتدقيق بما أوتي من دقة في الفهم وعمق في التفكير، وغوص في دقيق المعاني، فكان بحق «مثلا فريدا من هؤلاء الأئمة الأنداد الذين يبعثهم الله في الأمة في أخرج الأوقات ليجددوا لها دينها، وينفخوا فيها من روح الله، ويؤسسوا لها نهضتها على أمتن أساس»⁽¹⁾، محتذيا بنور كتاب الله ومنتهجاً سيرة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وعلى الرغم من حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإبراهيمي تجاه ما يحدث في بلاده جراء الاستعمار الفرنسي وأحقاده وأطماعه فإنه «أبلى فيها بقلمه ولسانه، ومواقفه -البلاء الحسن- وتحمل في سبيل ذلك ما تنوء بحمله الجبال الراسيات»⁽²⁾، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت نافذة الشرق ترسل له بنورها وتجسد فيه إحساسا وجدانيا أخويا منبثقا من روابط مشتركة، فمضى إلى هناك في رحلته المشرقية حاملا معه هموم وطنه وأحزانه، وحاملا معه أيضا قلمه المشحون بشواظ من نار ونحاس لكل ما يحدث حوله، وهناك قام بأدوار تربوية قيمة في مجالات مختلفة وهو يعي أن هذا الشرق هو «مهد الحضارة وحرم العروبة ومهبط الوحي، ومن ثم فهو حلم الخلاص وطريق الوحدة الشاملة»⁽³⁾، وهذا ما جعل فكره يرد «ثورة طافحة بالمعانقة لكل ثورات الشرق العربي الإسلامي»⁽⁴⁾؛ فإذا بالجزائر امتدادا للعالم العربي والإسلامي، وإذا بالوطنية الحققة تتجسد في الوحدة الإسلامية العربية ذات الوشائج المشتركة والأصول المرتبطة.

(1) محمد إبراهيم الكتاني، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ج2، ص9

(2) محمد دراجي، المشرق العربي، (مواقف الإمام الإبراهيمي)، ص5.

(3) أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، ط2، 1988، ص114.

(4) محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص112.

وقد كان لرحلة الإبراهيمي المشرقية صداها الكبير في العديد من آثاره، فقد نهل من علماء الشرق، واقتدى بزعمائه وحفظ الكثير من تراثه محاولا توعية شباب الجزائر وإبعاده عن الاتجاه الغربي الذي كان «يؤمن بالغرب في حضارته وماديته، ويعمل للغرب في يومه وغده، وبالتالي كان هذا الاتجاه يرمي إلى فصل الجزائر عن كيان الأمة العربية»⁽¹⁾، وهو الانعطاف الخطير الذي حذر منه الكثير من الأدباء الجزائريين؛ لأنهم يدركون ما يرجو الغرب من وراء هذا الإغراء من طمس للغة العربية ومحو لمعالم الإسلام، وقتل للشخصية الجزائرية.

إن الظروف القاسية التي عاشها الشعب الجزائري في ليالي الاستعمار جعلت تطلع الإبراهيمي إلى الشرق العربي غالبا ما تقف في وجهه العقبات، ويصطدم بالأسوار المنيعه غير أن ذلك لم يمنعه من معايشة الشعوب العربية ومشاركتها همومها وآلامها والتغني بأفراحها والبكاء لأحزانها والتفاعل مع أحداثها التي كانت تهزه في الأعماق⁽²⁾، فبات يحن إلى نورها الساطع، ويرى فيها الأمل لغد مشرق: «داو الكلوم يا شرق، فما زلنا كلما استشفينا بك نجد الراحة والعافية، ونظفر بالأدوية الشافية، ومازلنا كلما استنشقنا ريحا استنشينا رندك وعرارك... ومازلت تتحفنا مع كل بازغة منك بالنور اللائح، والشعاع الهادي، ومازال يتبلج علينا من سناك في كل داجية فجر، وتسري إلينا من صباك في كل غماء نفحات منعشة»⁽³⁾.

ويلتمس الإبراهيمي كل الخير في الشرق، ويعتبره محط الإيثار والتضحية، ومنبع الرحمة والرفق ومصدر النبوة والحكمة وموطن العلم والافتخار: «مازلت فيك —يا شرق— ملامح من الخير،

(1) أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 115.

(2) ينظر، محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 112.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 551.

ومخايل من الفضيلة، ومشابه من عبقرية العقول التي حلت مشكلات العلم، ووسعت آفاق المعرفة،... ففي تربتك نبت الإيثار والتضحية، ومن أرضك انبجست الرحمة والرفق»⁽¹⁾.

وهو بذلك يجعل من المشرق مصدر افتخار لكل العرب والمسلمين، ويبدو ذلك جليا في قومية الإبراهيمي الإسلامية التي تستقي من العروبة، وتتشرب من إسلامها، فلا يلبث أن يشيد بأهم منجزات المشرق العربي والإسلامي، فيساند ثرواته، ويمدح علماءه ويسخط على ملوكه وحكمائه ويتأسى لتلاعب الأقدار به يقول: «نأسى عليك يا شرق أن تتقاذفك الأقدار، فتنقلب من عبادة الأصنام الحجرية، إلى عبادة الأصنام البشرية»⁽²⁾.

ويجد الإبراهيمي في الشرق متنفسا من ضيق النفس وحرَج الصدر آل إليه حال المسلمين، فينبعث في نفسه الأمل ويسمو بالفكر والروح مع ذكريات الأحبة هناك: «فتحس النفس المكروبة أن لها من أختها مؤنسا في الوحدة، ومعينا على الشدة، ومنبتا عند زيغ الأبصار وزلزلة الأقدام»⁽³⁾.

ويقف الإبراهيمي عند محنة مصر وقفة مطولة في مقال بعنوان "محنة مصر محتتنا"⁽⁴⁾ صور فيه حقيقة كارثية وجدت مصر نفسها في مواجهتها، وهي سيطرة الانجليز على حياتها في شتى المجالات: «فتحت مصر عينيها على أفظع ما تفتح عليه العيون، تغرم ليغنم الانجليز، وتجوع ليشبع الانجليز، وتموت ليحيا الانجليز، وينهدم مجدها لبنى بأنقاضه مجد الإمبراطورية

(1) نفسه، ج2، ص 553.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 553.

(3) نفسه، ج2، ص 553.

(4) نفسه، ج2، ص 557.

الانجليزية»⁽¹⁾، فيتحسر الإبراهيمي لهذه الكارثة العربية التي مست عضوا من جسد الأمة العربية فبات من الواجب أن يندفع له الجسم بالسهر والحمى، فتحسر لغربتها في وطنها بسبب الانجليز الغاشم، الذي طمس حضارتها ومسح عقليتها ودعاها لأن تنبذ من أهلها مكانا غريبا.

ويبين الإبراهيمي افتخاره بمصر وبقرارها في إنصاف نفسها بيدها لأنها أدركت حقيقة الانجليز وعلمت من تجاربها معه أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة فشمرت عن ساعديها قائلة: «إذا كانت الحرب لم تنصفي، مع احتراقي بنارها، وكانت السلم لا تنصفي مع اضطلاعي بوسائلها، وتمهيدي لأسبابها - فلا أنتصف لنفسي، ولا أخذ حقي بيدي»⁽²⁾.

ويحذر الإبراهيمي مصر من التراجع عن هذا القرار السليم باعتباره مفتاح القضية، فيحث أبناءها على التضامن والاتحاد، ويدفعهم إلى الاجتماع بقلب رجل واحد يصرخ صرخة واحدة في وجه العدو قائلا: «الآن وقعت على مفتاح القضية، وقد أقدمت فصممي واحذري النكول والتراجع فإنهما مضيعان للفرصة، اجعلي من أرضك صعيدا واحدا، واجمعي أبناءك كلهم صفا واحدا بقلب رجل واحد على الحفاظ والنجدة والاستماتة في حقك والموت في سبيله»⁽³⁾.

ويبين الإبراهيمي أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعلن تأييدها للشعب المصري وتضامنها معه وتحث جهوده في سبيل حريته واستقلاله مفتخرا بكل جزائري مؤيد لمصر: «إن الشعب الجزائري حين يظهر بهذا الإحساس الشريف الطاهر نحو أخيه الشعب المصري - إنما

(1) نفسه، ج2، ص 556.

(2) المصدر السابق، ج2، ص 558.

(3) نفسه، ج2، ص 558.

يقدم جهد المقل من قلوب ملؤها الحب لمصر، والاعتزاز بأخوة مصر، والإعجاب بما صنعت مصر»⁽¹⁾؛ لأن ذلك مفخرة للعرب جميعا، ودرس للعدو ولكل من تسول له نفسه تقييد بلد أو خنق حريته أو سلب ماله وكرامته.

ثم إن هذا الافتخار يبدأ باسمه الخالد الذي اختاره الله لها وخلده فلم يتبدل مع تغيير الأرض وملاحمها: «نسميك بما سماك الله به في كتابه، فكفاك فخرا أنه سماك بهذا الاسم الخالد الذي تبدلت أوضاع الكون ولم يتبدل، وتغيرت ملامح الأرض ولم يتغير»⁽²⁾.

ويصور الإبراهيمي ما لمصر من فضل على مشارق الأرض ومغاربها من حماية لدينهم، وهو الأمر الذي يستوجب عليهم نصرتها من كل عدو، والوقوف إلى جانبها في كل المحن، دون أن ينتظروا في مقابل ذلك منة ولا جميلا: «وأنت اليوم مأرز الإسلام، فكلما سيم الهوان في قطر، أو رماه زندق بنقيصة، فرع إليك، واستجار به يلتمس الغوث، ويستمد الدفاع، فلك على المسلمين في المشارق والمغارب فضل الحماية لدينهم، وعليهم أن يطيروا خفافا وثقالا لنصرتك، ثم لا منة لهم عليك ولا جميل»⁽³⁾.

ويعمد الإبراهيمي إلى الإشادة بفضائل مصر حتى الافتخار، ثم التحذير من الغرور والتردد والإدبار، وهذه طريقة الإبراهيمي في معالجة هذه القضايا المصرية، يقول: «عهدك التاريخ صخرة من معدن الحق تنكسر عليها أمواج الباطل، فكوني أصلب مما كنت وأرسخ قواعد مما كنت،

(1) المصدر السابق، ج2، ص 559.

(2) نفسه، ج2، ص 560.

(3) نفسه، ج2، ص 563.

تنحصر الأمواج وأنت أنت، أقدمي فصممي.. وبدأت فتممي... وحذار من التراجع فإن اسمه الصحيح " الهزيمة" وحذار من التردد فإنه سوس للهزيمة»⁽¹⁾.

ولعل افتخار الإبراهيمي بمصر يجعلها مفخرة للعرب وللإسلام والشرق، ويضعها في المكانة اللائقة بها منذ أن أحاطها الله -عز وجل- بحصنه وحفظه، ويضعها في فجر صادق واعد، مخيف للمستعمر السارق الذي يتستر خلف الظلام ويخاف من النور الذي أشعلت مصر مصابيحها فولى مدبرا: «ويحهم إن المستعمر سارق، وإن السارق الحاذق لا يسرق إلا في الظلمة أو في الغفلة، فإذا انحسر الظلام، أو انقشعت الغفلة ولى مدبرا بالخيبة والخسار، وإن مصر لفي فجر صادق، وإنها لفي يقظة صاحبة، فأى موضع يسع السارق فيها؟»⁽²⁾.

وهكذا فقد تعمق الإبراهيمي في تحليل القضية المصرية التي تتطلب أسلوبا قويا مؤثرا لا نجده سوى عند عالم له من الصفاء وبعد النظر وعمق المعاناة ما للإبراهيمي من ذلك، وهو بفكره الثاقب استطاع «تجاوز الجزئيات العارضة فيها إلى المشكلة الكبرى واستبان له في وضوح البصيرة، الأبعاد التي كانت تخفى آنذاك على الكثيرين»⁽³⁾، ولذلك اكتسبت كتاباته سمة الخلود، فما تزال مقالاته في الأربعينات تبعث بصداها في الستينات بل وتبث روحها أيضا في وقتنا الحاضر، لأن حبره يفيض جرأة، ويقطر ألما في قلب الأحداث برؤية عميقة وذهن ثاقب.

(1) المصدر السابق ، ج2، ص 564.

(2) نفسه، ج2، ص 564.

(3) أحمد طالب الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2 (الغلاف الخارجي للكتاب)

ج. قضايا المغرب العربي

لا يزال قلم الإبراهيمي يفيض حرارة وحسرة عن كل ما يحيط بالعرب من قضايا تهز المشاعر، وتحبس الأنفاس، فما يستقر له جفن حتى يعبر عن رأيه ويحلل بفكره الصائب ومنطقه السليم كل ما يجول حوله من قضايا، وبخاصة تلك التي تتعلق بالاستعمار بكل ألوانه وأبعاده.

وقد تناول الإبراهيمي عدة قضايا من أوضاع المشرق العربي، وحاول إيصال رسالته إلى كل العرب، بل وعبر في كثير من الأحيان عن رؤيته الإصلاحية حول مختلف هذه القضايا التي يراها عربية الجذور قبل أن تكون مشرقية الأصل.

أما فيما يخص قضايا المغرب العربي، فقد حظي هذا الجانب أيضا باهتمام كبير من فكر الإبراهيمي الذي صب فيه غضبه وسخطه حول جل المشاكل التي يتخبط فيها هذا الجزء من الأقطار العربية، وبخاصة ما له صلة بالاستعمار، فهو يدرك أنه استعباد للعباد وانتهاك للحرمان، ونهب للأموال وسلب للأرزاق، وتجريد للضعفاء من أسباب القوة، ونشر للبؤس والأمراض، وأكثر من ذلك قتل للضمائر⁽¹⁾.

(1) ينظر، محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، د ط، 2007، ص 178.

ويحاول الإبراهيمي من خلال العديد من المقالات التي دمجها في قضايا المغرب أن يجسد رؤيته حول كل ما يحيط بهذا الجزء العربي من قضايا، ونذكر منها "موجة جديدة"⁽¹⁾، ليبيا موقعها منا"⁽²⁾، "أرحام تتعاطف"⁽³⁾، عروبة الشمال الإفريقي"⁽⁴⁾.

وقد عالج فيها مختلف المشاكل التي كانت سائدة آنذاك في المغرب العربي بعامة، مركزا على أهم القضايا المصيرية التي تمس الإنسان في كرامته وتزعزع كيانه الوجودي، وبخاصة الاستعمار، حيث يصب الإبراهيمي جام غضبه على هذا العدو الذي يعيث في الأرض فسادا، يقول: «طالما نعينا على المسلمين خصوصا، وعلى الشرقيين عموما، هذا التقاطع الذي شتت شملهم، وفرق جامعتهم وصيرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة... وأن الاستعمار... يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم»⁽⁵⁾.

ويصور الإبراهيمي تأثيره الشديد مما أصاب المغرب الأقصى الشقيق من نفي لرعيها الملك محمد الخامس، فيصب غضبه على الاستعمار الفرنسي، وكله ألم وحسرة على العرب؛ لأنه يرى في ذلك إهانة للعرب قبل أن تكون للمغرب: «وحتل المحنة بالمغرب الأقصى، وجاءت فرنسا بالخاطئة، فأهان ملكا، وعددت عرشا، وأذلت شعبا، وروعت سربا، وانتهكت حرما، واعتقلت أحرارا، وكبتت أصواتا، وحطت أعلياء من مراتبهم ونصبت أدنياء في غير مناصبهم،

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 399.

(2) نفسه، ج3، ص 402.

(3) نفسه، ج3، ص 422.

(4) نفسه، ج3، ص 428.

(5) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 471.

واستعانت على العقلاء بالسفهاء،... ولعمري إنها لأقصى غاية من الفساد بلغناها، وأقصى أمنية للاستعمار نالها بنا فينا»⁽¹⁾.

لقد أراد الإبراهيمي أن يكشف الغطاء عن الوجه الحقيقي الذي يخفيه الاستعمار وراء سياسته القمعية، فأزال الستار عن حقائقه المستترة خلف قوانينه الرديئة، بل وعمل على نشر هذه الحقائق بأسلوب قوي يستند على الواقع في الأدلة والبراهين، في محاولة للوقوف على الدوافع الحقيقية واستنباط أصل المشكلة ومنبعها الأول في المغرب العربي: «رأينا المثال المجسم من انتصار الاستعمار بالمسلم على أخيه المسلم، وترويع المسلم بأخيه المسلم، وخوف المسلم من أخيه المسلم، كل ذلك والدين واحد، والوطن واحد، والمصلحة واحدة، والخصم المتربص واحد، ولولا حكمة من العقلاء، وأناة من الحكماء، لأريق دماء المسلمين»⁽²⁾.

وبعد أن برزت نوايا الاستعمار ساطعة واضحة لا غبار عليها ولا ضباب كما جسدها الإبراهيمي في تحليله ووقعها المستعمر في تطبيقه، يحاول الإبراهيمي بما أوتي من فصاحة في القول وبراعة في الفكر وبعد في النظر أن يقلب موازينها، فيصبح سافلها أعلاها في محاولة لجعل القضية لصالح المغرب، وذلك حينما استصغر هذه النوايا السيئة بل وشحن بها العرب لتكون دافعا للتآزر والتآخي، بدل أن تكون سببا للفرقة والتشتت، فينقلب السحر على الساحر، ويصبح الداء في حد ذاته دواء يتمثل منه الجسم المريض للشفاء، كما تتماثل البذرة للحياة بعد أن كانت في ظلام القبر «فلم نر محنة من المحن التي جرّها الاستعمار على الإسلام وعلى الشرق كانت أجمع

(1) المصدر السابق ، ج2، ص 473.

(2) نفسه، ج2، ص 473.

للقلوب، وأدعى إلى التناصر من هذه المحنة، فقد كانت عاملاً إلهياً فتح العيون العمى، والآذان الصم، والقلوب الغلف، وأيقظ الشواعر النائمة ونبه القوى الجامدة، فتعاطفت الأرحام المتقاطعة، وتعارفت الأرواح المتناكرة»⁽¹⁾.

ولذا يقف الإبراهيمي موقفاً تأملياً كله ألم وحسرة على حال العرب من الاستعمار والانخداع من حيله، ثم الاغترار والتراجع وعدم التماسك، ثم يلقي باللوم الأكبر على هذه الغفلة الطائشة التي تجعل العرب في فم الفريسة: «أينقم من الاستعمار أن نتناصر بالكلام، وهو سلاح المغلوب ونتعاون بالأقلام، وهي بقية المتاع المسلوب، وتتعاطف منا الأرحام، وذلك أيسر مطلوب...إننا لا نلومه إلا إذا لمنا السباع الضارية على الافتراس، وإنما نلوم أنفسنا أن لا نكون شوكة في لهواته،...وخذلانا في عونته، ولو كنا ذلك لأنصفناه وانتصفنا لأنفسنا منه»⁽²⁾.

ويدعو الإبراهيمي إلى ضرورة التكافل والتعاون والتآخي؛ لأن في ذلك قوة قاهرة للعدو، وقد نظم في هذا الباب رائعة من روائعه(*) بعنوان "سكت وقلت"⁽³⁾، أهداها إلى حماة العروبة بالمغرب الأقصى يشكر المشاركة على وقوفهم إلى جانب إخوانهم المغاربة.

يقول فيها:

سكت فقالوا: هدنة من مسالم*** وقلت، فقالوا ثورة من محارب
وبين اختلاف والنطق والسكت للنهي*** مجال ظنون، واشتباه محارب

(1) المصدر السابق، ج2، ص 474

(2) نفسه، ج2، ص474.

(*) هي قصيدة تتكون من 24 بيتاً.

(3) نفسه، ص 474.

وما أنا إلى البحر بلقاك سكتا*** ويلقاك حياتنا مهول الغوارب
رعى الله من عرب المشارق إخوة*** تنادوا فدوى صوتهم في المغارب.

ويتحدث الإبراهيمي عن العروبة ودورها في تماسك العرب وتكاتفهم، ويصور حبها المتين الذي يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، فإذا بالوطن العربي كأنه جسد واحد: «إذا ألم بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة، تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث، أو بالتوجع والامتعاض، وقد امتحن المغرب الأقصى -وهو عضو رئيسي من هذا الجسد- هذه المحنة التي لم نزل في عقابيلها، فهبت مواطن العروبة صارخة في وجه العادي، فقال كل غافل في الدنيا: إن هذا التضامن طبعي»⁽¹⁾.

ويعود هذا التصور إلى أن الإبراهيمي قد رضع حب الأوطان الإسلامية منذ الصغر فسارت في عروقه ونمت مع نمو جسده فقد «كانت العربية هي لبنه الذي يطفئ عطشه ويزيل غشاوة جهله، وأميته، فكانت قوميته إسلامية عفوية، وسريعة التدفق»⁽²⁾ في النفوس وبخاصة عندما يصبغها بوطنيته الفذة ويصوغها بفكره السليم وعبقريته الساحرة.

ثم يصور الإبراهيمي رفض الاستعمار لعروبة الشمال الأفريقي وإنكاره لها، وسعيه لمحوها وقتل العروبة؛ لأنه يراها «عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، والأدب، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء والخلود»⁽³⁾، وهو الأمر الذي يستنكره المستعمر فيسعى بكل الوسائل لمحوها وطمس معالمها، وهنا يعلو صوت الإبراهيمي في التصدي

(1) المصدر السابق، ج2، ص 479.

(2) محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 113.

(3) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 430.

لهذه السياسة القاتلة لذلك المَعلم الذي يرسل أشعته في أرجاء العالم العربي شرقا وغربا فينير ويوحد صوته، كما يشحن الإبراهيمي في ذلك لغته بأسمى معاني الحس الإسلامي العربي، ويجند عبقريته الفكرية في الإمام بما تقتضيه العروبة من جذور إسلامية، وأبعاد تصورية لمستقبل العالم العربي، معتمدا في كل ذلك على إبراز أباطيل الاستعمار، وتحافته على طمس العربية، مستشهدا بآيات واضحة تصور بُغض الاستعمار لكلمة العروبة ونفوره منها: «ومن أباطيل الاستعمار وتحافته أنه يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته - فرنسا، ويلحقه بنسبه، ويساويه به في حقوقه ومميزاته ثم ينكر على البربري - مثلا - أن يكون عربيا بعد ما مرت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنا وزيادة... فليت شعري أيهما أقرب إلى الواقع: البربري المستعرب، أم السوداني المتفرنس؟

ومن آيات بغض الاستعمار لكلمة العروبة ونفوره منها أنه لا يريد أن يعترف بآثارها الطبيعية من تراحم وتعاطف... كل ذلك ليبعد عن خواطره - ولو بالتوهم - خيال العروبة مجتمعة الشمل»⁽¹⁾.

ويدرك الإبراهيمي جيدا أن الاستعمار يعرف عروبة الشمال، ويعترف بها في قرارة نفسه، غير أنه يكتنم هذه الحقيقة ويتجاهلها؛ لأنه يعلم أثرها الإيجابي على العالم العربي، وهو الأمر الذي يسعى إلى تخريبه، ولا يجد الإبراهيمي دافعا لذلك غير أنه «رجس من عمل الشيطان، وهل في

(1) المصدر السابق، ج3، ص 430.

عمل الشيطان خير أو حق؟ إنما هو عناد للحق، وتزيين للباطل، ونقض للخير، وبناء للشر، وما شاء الشيطان من نقائص»⁽¹⁾.

وفي نظرة عميقة لشمولية العروبة يتحدث الإبراهيمي عن ليبيا مبررا موقعها من العرب انطلاقا من كونها قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر»⁽²⁾ مؤكدا لما لها علينا من حقوق في الدين واللغة والجنس والجوار، وما يضيفي من كل ذلك إلى حق المشاركة في الآلام والحن، والآمال: «ولإخواننا الليبيين أو الطرابلسيين كما نسميهم - علينا حق الدين، وحقا للغة، وحقا لجنس، وحقا لجوار، وحق الاشتراك في الآلام والحن، وفي الآمال المقترحة على الزمن، وهذه كلها أرحام، يجب أن تبل ببلاها: وحقوق في ذمة المروءة والوفاء يجب أن تؤدي»⁽³⁾.

إن هذا التصور الإسلامي، وهذه الروح العربية التي تشع من بين سطور الإبراهيمي إنما تهدف إلى توحيد الشمل وإعلاء كلمة العروبة، كما تسعى إلى توحيد الرأي ومتانة الإيمان بالحق، محذرة من المكائد والأشراك المنصوبة والعصب الدخيلة من قبل الاستعمار الإيطالي الذي قاومه الليبيون، ووقفوا في وجهه وقفة الأبطال الذين يدركون أن الاستقلال «جنة لا يُعبر إليها إلا على جسر من الضحايا»⁽⁴⁾، فأقاموا هذا الجسر بأجسادهم وعبدوه بدمائهم وشيدوه بأرواحهم، غير أن «شيطان الاستعمار أبي عليهم ذلك، ووضع في طريقهم برزخا زمنيا، أو جسرا ثانيا غير

(1) المصدر السابق، ج3، ص 431.

(2) نفسه، ج3، ص 431.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 449.

(4) نفسه، ج2، ص 450.

الضحايا والقرايين الصالحة، وهو هذا الأجل المحدد بسنة 1950»⁽¹⁾، وقد وضعه الاستعمار "للإعداد والتشويق"⁽²⁾، غير أن رؤية الإبراهيمي العميقة تجعله يرى ذلك "للإبعاد والتعويق"⁽³⁾.

ثم يتحسر الإبراهيمي على حال "ليبيا"، هذا الوطن الذي جنى عليه موقعه في البحر الأبيض ومن الصحراء، فانصبت عليه أعين الطامعين، وتهافتت عليه أقدام الأقوياء وازدحمت عليه الأطماع من صلب أبنائه: «وهنا أصل البلاء، وهنا منبت العلة، وهنا -فقط فقط- جرثومة الطاعون، وهنا العدو الحقيقي فاحذروه...»⁽⁴⁾.

وبأسلوب فاخر وعبقريّة فذة ورؤية عميقة يصحح الإبراهيمي كلمة خاطئة شاعت بين المستضعفين حتى غطى الإلف خطأها وسخافتها، وهذه الكلمة تتمثل في "طلب الاستقلال"⁽⁵⁾، وقد أبدع الإبراهيمي في تصحيح هذا الخطأ عندما قدم شرحاً وافياً لمعنى هذه الكلمة في الواقع، إذ يرى أنها «طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرد المغصوب فيئة إلى الرشد، وإنابة إلى الله -لرده من غير طلب، ولا رفع دعوى ولا إقامة دليل»⁽⁶⁾.

ثم يصحح الإبراهيمي الخطأ بالكلمة المصيبة لهدف الحق وهي "العمل للاستقلال"⁽⁷⁾، وتبرز رؤية الإبراهيمي الصائبة لهذه الكلمة في أن العامل للشيء سائر إليه خطوة خطوة، وبالتالي

(1) المصدر السابق، ج2، ص 450.

(2) نفسه، ج2، ص 450.

(3) نفسه، ج2، ص 451.

(4) نفسه، ج2، ص 451.

(5) نفسه، ج2، ص 452.

(6) نفسه، ج2، ص 452.

(7) نفسه، ج2، ص 452.

سيصل إليه لا محالة، أما طالب الشيء فهو يراه «كطالب الصدقة، إما يعطى وإما أن يحرم، فإن أعطي فبفضل، وإن حرم فبعدل، وعجيب أن تعيش هذه الكلمة الجوفاء بيننا مع كلمة عبقرية تضارها وتناقضها، وهي أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى»⁽¹⁾.

ثم يسقط الإبراهيمي كل ذلك على الشعب الليبي الذي عمل للاستقلال وبذل في استرجاعه أقصى طاقاته، ويبيّن أن «داء الليبيين هو داؤنا جميعا»⁽²⁾، لأن العرب أمة واحدة تضمها دولة واحدة، ثم يصف أصل هذا الداء الذي يكمن في التفرق والخلاف وما ينجر عنهما من التخاذل والأنانية، ووهن العزائم، وكلها نقائص «أدركها المستعمرون فاحتقرونا»⁽³⁾.

وخلاصة القول فإن الإبراهيمي قد كتب مقالات كثيرة ساخنة تدعو إلى التحرر من العبودية الاستعمارية بشتى أشكالها وألوانها، ليحرر الأمة العربية من قيودها عن طريق الإيمان بالله وحده لا شريك له ومن ثم اكتساب القوة التي تتماسك بها الأيدي وتتكاثر بها الأصوات فتعلو لها الآمال.

لقد سهر الإبراهيمي على إعلاء صوت العرب بتوحيدهم في مجالات عديدة باسم الدين واللغة والإسلام والعروبة، وعمل على إبراز رؤيته الإصلاحية في تنوير عقول الأمة العربية ونشر الوعي الصاحب بين أرجائها، وقد كان جادا في بعث تلك الفعالية المفقودة بفكر إسلامي نير يجوب به الشرق والغرب ليمحو ظلامه بما أوتي من فكر ثاقب، وعمق صاحب، ورؤية عميقة

(1) المصدر السابق، ج2، ص 452.

(2) نفسه، ج2، ص 455.

(3) نفسه، ج2، ص 455.

لكل ما يشوب هذه الأمة، ويلوث صفوها، وهذه سمته وسمه العلماء الرساليين الذين حملوا الرسالة فحرروا أوطانهم، وعلموا أممهم ورفعوا راية الحق عالية في السماء، وبذلك خلدوا أسماءهم في سجل المصلحين الخالدين.

2- السياسة الداخلية

لقد شعر الإبراهيمي بمسؤولية كبرى ملقاة على عاتقه تجاه شعبه في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية وغيرها...، وأدرك أن السبيل الوحيد لمنهجية التغيير نحو الأفضل في كل الميادين هو التركيز على «الإصلاح الديني والثقافي، وكان ذلك أمرا مقصودا لذاته، لاقتناع الإبراهيمي وابن باديس أن التربية والتعليم هي الطريقة المثلى لانتشال المجتمع الجزائري من واقعه البائس وأن دخول الميدان السياسي مغامرة غير محمودة العواقب»⁽¹⁾؛ وذلك نظرا للقوة الاستعمارية الطاغية التي تقف في وجه كل حركة وطنية، في وقت كان الشعب يتخبط في ظلمات الجهل، ولذلك رأى الإبراهيمي أن القاعدة الأساسية للانطلاق نحو توعية الشعب وحثه على المطالبة بحقوقه السياسية هي طمس معالم الجهل وتنوير العقول بنور العلم؛ وقد نشط الإبراهيمي نشاطا كبيرا في مختلف القضايا التي تمس السياسة الداخلية وعلى رأسها قضية الاستعمار باعتبارها أضخم قضية سيطرت على الوطن بأكمله، وسعت إلى طمس كل رموزه:

(1) محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند البشير الإبراهيمي، ص 435.

أ. قضية الاستعمار

إن واقع الجزائر المرير الذي كان يفرضه الاستعمار في شتى الميادين جعل الإبراهيمي يضاعف من مجهوده في نشر الوعي بين شعبه، وإشعال نار الغيرة على الوطن في النفوس، وقد أدرك الإصلاحيون خطورة الوجود الفرنسي على الجزائر، فقاموا بالدعوة إلى الوعي السياسي والقومي؛ لأنهم أدركوا أن الثورة هي: «بداية اليقظة والفاصل التاريخي بين فترة التردد وفترة القتال»⁽¹⁾، كما أدركوا أنها السبيل الأمثل لنيل الحرية ورفع راية العلم، بعدما أيقنوا أن الاستعمار لا حوار معه سوى صوت الرصاص، فانفجر بركان الثورة مدويا في كل أنحاء الوطن حاملا معه آمال كل الجزائريين في التحرر من القيد الفرنسي «لأن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة ولا يفتح آذانها إلا هذا الصوت»⁽²⁾.

فكانت البدايات الأولى لهذه الثورة منبثقة من ثورات شعبية نابذة من شعب استعد استعدادا كاملا للتضحية بروحه ودمه من أجل السير بها حتى آخر المطاف، وقد استجمع قواه في صرخة واحدة محذرا فرنسا قائلا: «ويا ويحك إذا انفجرت عليك موجات الغضب من القلوب المملوءة حقدا عليك، والصدور ضاقت بظلمك وطغيانك وقد رأيت وسترين ما يقض مضجعاك»⁽³⁾.

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 319.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 29.

(3) نفسه، ص 37.

لقد تفتن الشعب لمكائد فرنسا ورغباتها في محو الشخصية الوطنية بكل مقاييسها، فأدرك خطورة هذه المسألة، واقتنع بضرورة التصدي لكل أساليبها القمعية في السيطرة على الجزائر خاصة في مبادئها لأنه يدرك كل الإدراك أن «هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تكون فرنسا ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، ولا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»⁽¹⁾، وهي مستعدة لدفع الغالي والنفيس من أجل هذه الوحدة في كل مبادئها، وأخلاقها.

ويرى الإبراهيمي أن الشعب الجزائري لم يطلب المستحيل، وإنما طالب بحقوقه المشروعة: «فلما أعياه الأمر لجأ إلى الموت فشهّر السلاح وعقد العزم على التحرر والخلاص وحمل المستعمر الظالم على احترام حقوقه بهذه الوسيلة التي لم يبق له سواها، وهو ماض في سبيل التحرر مهما كلفه ذلك»⁽²⁾، ثم يشير الإبراهيمي أن الجزائر بلد مسالم وأن ماضيه نظيف لأنه يميل إلى الحرية وإباء الظلم وأن ثورته هذه ما هي إلا ردة فعل على سياسة الاغتصاب التي تمارسها عليها فرنسا؛ لأن الشعب الجزائري شعب «اشتهر بالإباء والحفاظ على الأرض، والغيرة على العرض، والأنفة والسخاء الذي يبتدئ بالمال ويعلو فينتهي بالروح»⁽³⁾.

ثم بين الإبراهيمي نوايا الاستعمار الخبيثة ورغبته في تدمير ركائز الجزائر وعلى رأسها محو الإسلام؛ فهو يدرك أنه الدين الذي يخرج الأمة من الظلام إلى النور، ويعمق روح الجهاد في

(1) محمد الملي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار العودة، دار الثقافة، بيروت 1973، ص 63.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 59.

(3) الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 62.

النفوس ليسمو بها إلى الارتقاء نحو الأفضل، ولذلك فهي تسعى إلى طمسه من الوطن ومحوه من النفوس يقول: «احتلت فرنسا الجزائر المسلمة العربية احتلالاً مدبراً مبيتاً على برنامج واسع يدور كله على محور واحد، ويرمي إلى غاية واحدة هي إذلال المسلمين ومحو الإسلام... فبدأ بمصادرة الأوقاف الإسلامية بجميع أنواعها في العاصمة وإلحاقها بأملأك الدولة المحتلة... ثم عمد إلى المساجد فأحال بعضها كنائس»⁽¹⁾.

ويستمر الإبراهيمي في تصوير منهجية الاستعمار في طمس المعالم البارزة في بلادنا وعلى رأسها «محو الإسلام من الجزائر حتى تصفو له، فتنسى دينها ولغتها وتاريخها وأمجادها وعروبته وشرقيتها، وتصبح فرنسية الهوى والعاطفة والفكر واللسان والاتجاه»⁽²⁾، وقد اتبع من أجل ذلك خططا ومكائد خفية كتشجيع الخرافات والبدع إيماناً منه أنها تفسد عقائد الإسلام الصحيحة وتخلط الحق بالباطل، وتعكر صفو الإيمان، فعمد إلى رعايتها وتمجيدها؛ لأنه يدرك كل الإدراك أنه «لا بقاء لسلطانه وجبروته ما دام القرآن محفوظاً، والعقائد الصحيحة ثابتة، والشعائر المرفوعة مقامة، والسنن الماثورة مشهودة، ولغة القرآن مالكة للألسنة»⁽³⁾.

وقد تصدى الإبراهيمي لهذه السياسة الفرنسية الهادفة إلى محو الشخصية الجزائرية بكل انتماءاتها، فحارب البدع والخرافات وصحح العقائد، وشحذ العزائم، وأحيا اللغة العربية والتاريخ الإسلامي وبث في النفوس إحساساً بالانتماء الحضاري الإسلامي الذي يرفع كرامة الفرد ويشعره بالافتخار.

(1) المصدر السابق، ص 66.

(2) نفسه، ص 68.

(3) نفسه، ص 68.

ويؤكد الإبراهيمي أن الإنسان الجزائري يتمتع بطباع الشهامة والرجولة وقوة التصدي، وأنه عانى كثيرا من ويلات الاستعمار ومصائبه ما أفقده كل مقومات الحياة الكريمة، وأذقه كل أنواع العذاب والألم والانكسار وألحقه بكل ألوان الفقر والجهل والحرمان، يقول: «وآية ذلك أننا نقرأ في تاريخ الاحتلال الفرنسي لأرضنا تفاصيل الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الجيش الفرنسي مع الشعب الجزائري، وصنوف التعذيب والتحريق للأحياء، وكيف كان أولئك المساكين يأوون إلى الكهوف الجبلية يعتصمون بها من الموت هم وأطفالهم ونسائهم وما يملكون من حيوانات فيأتي الجنود الفرنسيون بأوامر من قادتهم فيسدون منافذ الكهوف بالحطب ويضرمون فيه النار حتى يموت كل حي في الكهف احتراقا أو اختناقا»⁽¹⁾، وهكذا بات حلم الحرية يؤرق كل جزائري غيور على وطنه، فيدفعه إلى إشعال فتيل الثورة ومباركة لهيها؛ لأنه يؤمن بأنها ستنتهي بتحرير دينه وعروبته وعرضه وشرفه وكرامته، فغذى بها روحه وسقاها بدمه، وفداها بحياته وأقسم أن لا يهاب الرصاص وأن لا يخشى المدافع وعزم أن يلحق فرنسا درسا عن زراعة الحنظل، فتوحدت الأصوات قائلة: «أن الرضى بالاستعمار كفر وأن الاطمئنان لحكمها ذل، وأن الثورة على ظلمها فرض»⁽²⁾.

لقد تمكن الشعب الجزائري من كسر قيود الاستعمار، ففجر الثورة ضده وخرجت «من الخفاء إلى وضوح النهار، وأقبل العالم كله يتتبع كل خطوة من خطواتها ويصغي إلى كل كلمة من

(1) المصدر السابق، ص 140.

(2) نفسه، ص 39.

كلماتها»⁽¹⁾ مباركا لها ومعجبا بإصرار هذا الشعب على المقاومة والصمود، وقد عبر الإبراهيمي عن فرحته بهذه الثورة وإعجابه بأبطالها، وافتخاره بأمجادها فقال مخاطبا الأبطال الثائرين لأجلها: «إنكم وصلتم بثورتكم هذه حلقات الجهاد ضد المعتدين الظالمين، الذي كان طبيعة ذاتية في الجزائر منذ كان، وكشفتكم عن حقيقته الرائعة في إباء الضيم والموت في سبيل العزة وجلوتم عن نفسيته الجبارة ما علق بها في السنين من صداً الفتور»⁽²⁾.

ويسترسل في افتخاره بأبطال بلاده معجبا بجرأتهم في الجهاد وصبرهم على القتال، فشرفوا الجزائر بأكملها، وكانوا الأمل في تنويرها يقول: «أنكم بيضتم وجهها وأقرتم عيوننا، وسررتم نفوسنا مملوءة بحبكم معجبة بصفاتكم القديمة في الجهاد، راثية لحالككم الغابرة»⁽³⁾.

فكانت بذلك الثورة هي حصاد سنين من الظلم والقهر والجبر، وآن الأوان لفرنسا أن تدفع ثمن طغيانها، وتجنّي ثمار زرعها: «هذه نتيجة سياستك البليدة وهذا جني غرسك الخبيث، زرعت الحنظل فتجرعي مرارته، وحاربت الله في دينه، ومحارب الله محروب، فأخزأك في جميع المواقف»⁽⁴⁾.

ويرى الإبراهيمي أن هذه الثورة جاءت قوية وعنيفة ومشحونة بكل معاني الثأر؛ لأن الجزائر ثائرة في أعماقها وحاقدة على هذا العدو الذي سلب منها حريتها وثرواتها، وخلف لها كل أنواع الذل والعذاب فهي: «ثائرة بالمعنى الأول على الاستعمار الفرنسي الذي جثم عليها قرنا وربع قرن

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 282.

(2) الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 39.

(3) نفسه، ص 39.

(4) نفسه، ص 31.

وسامها سوء العذاب ورمها بالمخزيات الثلاث: الجهل والفقر والمرض، واستأثر بخيرات الوفيّة، وقضى بأساليب يعجز عنها الشيطان عن كل أسباب القوة فيها»⁽¹⁾.

وقد جاءت الثورة استجابة لهذا الثأر الذي امتد في النفوس، فباتت لا ترى غير الرصاص سبيلا لإشفاء غليلها من عدو قتل أبرياء غيلة وغدرا، ولذلك عمد الشعب إلى توفير الوقت اللازم لها، وسعى إلى تعميمها على القطر، وعمد على توفير ما يلزمها من سلاح ومؤونة، وهو الأمر الذي يُدخل الرعب في نفوس العدو ويحمي الثورة من الفشل.

وهكذا حاول الإبراهيمي - بكل ما أُوتي من فصاحة في اللسان - أن الوقوف في وجه فرنسا مجاهدا بقلمه ومحاولا نشر الوعي في نفوس الشعب في كثير من خطبه ومقالاته، وكثيرا ما حاول طمس عزيمته فسجنه عدة مرات، غير أن إرادته القوية في التحدي فاقت كل الحدود فسال حبه رصاصا في قلب عدوه، ونورا في حياة جمهوره.

ب. قضية فصل الدين عن الحكومة

لقد كتب الإبراهيمي مقالات عديدة حول قضية فصل الدين عن الدولة باعتبارها تعد من ضمن القضايا الكبرى التي شغلت الشعب الجزائري، لأنها تمس بالدرجة الأولى أقوى الركائز الأساسية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية والتي تتجلى في دينها وعقيدتها، وهي الركائز التي

(1) المصدر السابق، ص 31.

تعكس أصالة الشعب الجزائري وتبرهن على عروبه وانتمائه الديني الذي يفتخر به أمام العالم بأسره.

إن حرص الإبراهيمي على إنارة هذه القضية وتحلية تفاصيلها وكشف حقائقها جعله يطلق العنان لقلمه فيسيل وديانا جارية في كثير من المقالات دون تحفظ، مخصصا كل وقته وجهده لاستنطاق معالمها وكشف حقيقتها، فلا هو يملّ ويسأم في الوقوف عندها ولا هي تفارق ذهنه وإحساسه، يقول: «نعود إلى قضية الفصل، كما يعود التلميذ إلى الفصل ... معتقدا أنه خلُق له، وأن سعادته مرتبطة به، فهو - لتلك العقيدة - لا يسأم من الرواح والغدوة، وهو - من تلك العقيدة - لا يستمد القوة والنشاط، وكذلك نحن نطوّف ما نطوّف، ثمّ نرجع إلى هذه القضية»⁽¹⁾.

وقد عهد الإبراهيمي بشأن هذه القضية المصيرية إلى كشف الغطاء عن حقيقة فرنسا، وما تخفيه وراء سياستها وقوانينها، فعمل ساعيا لإظهار الحق وتحليلته يقول: «نحن قوم خلقنا لهذا، وأخذ علينا عهد الله أن نقف فيه المواقف الصادقة، وأن لا نزال به حتى نثبت حقه الأصيل، وننفي باطله الدخيل، وأن لا تغلب ضعفنا فيه قوة الشيطان، لأننا أقوياء بالحق، أشداء بالإيمان، أعزة بالله»⁽²⁾، فكان إذن متمسكا بالحق وفي وقفته المطولة عند جذور واقع هذه القضية الملثم، فحاول طمس هذه اللثام عن أصلها ومصدرها، وعن الدافع الرئيسي الذي جعل فرنسا تحتل الجزائر والذي اتضح له من خلال القرائن التاريخية أن الروح الصليبية التي تغذيها الكنيسة

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 163.

(2) نفسه، ج2، ص 163.

الكاثوليكية هي التي نفخت في القادة الفرنسيين الاستعداد القوي للهجوم على الجزائر والاستيلاء عليها⁽¹⁾.

ويوضح الإبراهيمي تلك الفكرة بكثير من اليقين فيقول: «إن عقلية هذا الاستعمار الذي بلينا به - حين تتصل بالإسلام- عقلية "لاتينية" أولاً، صليبية ثانياً، فهي تتخبط بين الجهتين، لا تنحصر إحدهما حتى تجلج الأخرى وترين؛ وتتغذى من عنصرين، لا ينضب أحدهما حتى يثر الآخر ويفور، وهو بمذنبين الدافعين احتل الجزائر، ولهذين الباعثين عامل الإسلام فيها هذه المعاملة الشنيعة»⁽²⁾.

وسيطرة الاستعمار على الشؤون الإسلامية في الجزائر تنصب في معظمها حول الرغبة القوية في القضاء التام على الإسلام من خلال طمس معالمه، وقمع كل ما يقرب إليه، وذلك بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية بهدف حرمان الجزائريين من منابع تمويل المساجد والمعاهد الإسلامية؛ ناهيك عن تحويل المساجد إلى كنائس، وتعميرها برجال الكنيسة المسيحيين، واستغلالها لصالح سياسته الاستعمارية فقد انتهجت ذلك الطريق لتحذر للمسلمين بما يترقبهم في دينهم من ويل، ودليلاً ماثلاً على أن احتلال فرنسا للجزائر كان حلقة من الصليبية.

ولا يستغرب عاقل ما لهذه السياسة الفرنسية في محاربة الإسلام، لأنها أساساً دخلت الجزائر مشحونة بهذا الحقد الدفين للإسلام في قوادها «وفي أيديهم الأسلحة القاتلة، وعلى ألسنتهم

(1) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 493.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 186.

الوعود الكاذبة، وفي حقائبهم القوانين التي يعاملون بها الإسلام، وكل ذلك مدبر من وراء البحر، قبل خوض البحر»⁽¹⁾.

لقد سعى الإبراهيمي إلى تصوير حقيقة الاستعمار من خلال ما دبحه في مقالاته حول قضية فصل الدين عن الدولة، فصور أساليبه الهمجية التي تمكنه من إبقاء سلطته على الشؤون الإسلامية من خلال سياسة المكر التي تتبعها فرنسا لإحباط المطالبين بتحرير الشؤون الإسلامية يقول: «ما زالت هذه الحكومة تمنج الصلف بالتصلب، ... في قضية حقنا فيها أوضح من الشمس وباطلها فيها أعرق من الإدبار من أمس»⁽²⁾.

ومما لا شك فيه أن الإبراهيمي وعى أساليب الاستعمار في التعامل مع ركائز الوطن، فدخل معركته بإيمان عظيم بأن النصر للحق مهما طال الأمد، فتسلح بعزيمة الصبر واضعاً في حسبانته أن هذا العدو لا يخاف الله، وبإمكانه أن يتخذ أي قرار خطير في حق الشعب الجزائري، يقول: «ونحن لا نستغرب هذه ولا أكثر من هذا من حكومة تدين بالهوى لا بالعقل وترتجل الأحكام حيث يجب التروي، وتتروى حيث يجب الارتجال، وتدور على قطب قلق من المكاتب المتعاكسة، ورؤساء المكاتب المتشاكسين، وعلى تواطؤ في التباطؤ، يفني الآمال، ويضني الآملين»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 170.

(2) نفسه، ج2، ص 88.

(3) نفسه، ج2، ص 88.

ويعبر الإبراهيمي عن سخطه لهذه السياسة القامعة التي تفصل الدين عن الدولة، فيصور تفرد فرنسا بهذه المعاملة عن العالم الاستعماري، مستغرباً من هذه المخالفة الجائرة التي خرقت الإجماع فشذت عن قيمه: «ولكن ما بالها خالفت العالم الاستعماري كله، وخرقت إجماعه، وشذت عن قاعدته، فهو يسالم الأديان حتى الباطل منها وغير المعقول، ويترك أهلها أحراراً في شعائهم ومعابدهم، ويوليها شيئاً من الرعاية والاحترام، ويكتفي بالتسلط على الجانب الديني من حياتهم»⁽¹⁾

ثم يصور تخصصها في تدمير الإسلام في الجزائر، ويبين أساليبها في القضاء عليه معددا أفعالها الشنيعة في التعامل معه قائلاً: «أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتهن رجاله، وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلا ما فتحته ولا إمام إلا من نصبته، ولا مفتي إلا من حنفته أو (ملكته)، ولا شيخ طريق إلا من (سلكته) ولا حاج إلا من حججته أو نسكته، ولا صائم ولا مفطر إلا على يد (لجنتها)، ولا هلال إلا ما يشهد برؤيته (قاضيها)!...»⁽²⁾.

ويعمد الإبراهيمي إلى إجراء مقارنات عديدة بين فرنسا والعالم الاستعماري، مركزاً على الجانب الديني، فيخلص إلى أن فرنسا شيطان خبيث تباشر أساليبها بالحقد والانتقام فتتبعها اللعنة في كل موقف تنبعث منه هذه الروائح الكريهة من جسمها النجس فيقول: «الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة، وغرائز شرهة، ونظرات

(1) المصدر السابق، ج2، ص 92.

(2) نفسه، ج2، ص 92.

عميقة إلى وسائل الافتراس، وأهم تلك الوسائل قتل المعنويات وتخدير الإحساسات الروحية؛ ولكن هناك تفاوتاً بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد ويشربها معاني من الانتقام؛ وآخر يباشر بنوع من التسامح واللين؛ والاستعمار الفرنسي من النوع الأول»⁽¹⁾.

ويؤمن الإبراهيمي إيماناً جازماً بأن دوام الحال من المحال وأن بقاء الشؤون الإسلامية في قبضة الاستعمار لن يدوم طويلاً فيستنهض الهمم في نفوس الجزائريين، مبيناً خطر القضية على الأمة العربية بأكملها، يقول: «إن المسألة خطيرة، وإن الأمة الجزائرية في قلق عظيم، وإن أصحاب الأغراض والمنافع من حكومة وحكوميين يعثون بديننا ونحن ننظر»⁽²⁾.

لقد أصر الإبراهيمي على خطورة القضية لإدراكه الشديد بتمسك الاستعمار الفرنسي بها وبتسيير شؤون الإسلام في الجزائر حسب أهوائه ورغباته، وما زاده إصرارها على عدم الفصل إلا قوة في المطالبة، فكرس لها جهوده، وواجهها في كل الميادين مواجهة الصامد الذي يستعد لدفع روحه ثمناً لعودة الحق إلى أهله: «ولكننا على ذلك كله مصرّون على المطالبة بحقنا، لا يثينا تهديد ولا وعيد»⁽³⁾.

وهو في صموده يقف موقف الشجاع الفطن الذي يتخذ القرارات في مواقفها الثابتة، ويجعل من التريث والحذر وسيلة لمواجهة الاستعمار في هذه القضية؛ إنه يدرك حقيقة، ويعي نواياه، ولم يغفل في الوقت ذاته عن معالجة هذه القضية بتسخير الأسلوب الساخر الجريء الذي

(1) المصدر السابق، ج2، ص 94.

(2) نفسه، ج2، ص 95.

(3) نفسه، ج2، ص 105.

يصور شخصيته القوية ويعالج القضية بحكمة عميقة، لا يخاف وعيد عدوه ولا يهاب تهديد ولائه: «ولكن ما بالهم كلما مسهم النقد بجرارته صاحوا، ونادوا، وثاروا، وفاروا، وتظلموا وتألّموا؟ أنا لا أصدق أن ذلك كله انتصار للكرامة الشخصية وإنما هو إغراء لنا بموالات الحملات عليهم، ليزداد شأنهم نباهة عند مسخريهم وليتخذوا بذلك وسيلة وزلفى لأسيادهم»⁽¹⁾.

ويفصل الإبراهيمي في سياسة فرنسا في التعامل مع الدين، ويبين كيف امتدت يدها إلى الصوم والأعياد الدينية فألحقتههم بالمساجد والحج لتمكن من السيطرة الكلية وتحتكر الإدارة، فتصرف في شؤون الدين كما تشاء حيث تتخير يوم الصيام كما يحلو لها وتثبت يوم الإفطار كما يهوى لها ضاربة عرض الحائط كل المبادئ والأسس التي يركز عليها قوام الدين وأصوله: «وهكذا أصبح يقدم العزائم في الدين، وأصبح (يحكم) بالصوم في شوال والفطر في رمضان»⁽²⁾.

ويعبر الإبراهيمي عن استيائه لهذا الوضع الخطير الذي مس الدين أمام أعين الأمة الإسلامية، فيسبل قلمه ألما وغيضا ويعبر عن هذا الواقع المر الذي فرضته فرنسا بسياستها القامعة التي ترغم الهلال على الظهور رغم عدم ثبوت الرؤية، ولا تهمها قيمة هذه الرؤية من عدمها؛ لأنها في الأساس لا تأبه بكل هذه القيم: «والناس كلهم يعلمون أنه إذا ذكرت اللجنة أو رئيسها القاضي فقد ذكرت الحكومة، كما يطلق الخاص ويراد به العام ويعلمون أن من لا يعجزه أن يرغم نتائج الانتخابات على الظهور عشية السبت من غير اعتبار لشهادة الصندوق، لا يعجزه أن

(1) المصدر السابق، ج2، ص 105.

(2) نفسه، ج2، ص 108.

يعكس القضية فيرغم الهلال على عدم الظهور إلى يوم الأربعاء من غير التفات إلى شهادة الرؤية»⁽¹⁾.

ويسعى الإبراهيمي في فضح نية فرنسا تجاه الدين الإسلامي فهي تتستر خلف مبادئ لا أساس لها من الحق سوى لباس الباطل، وتزعم أنها تريد الحسنى بهذا الدين في قسم باطل، فيلفت نظر العاقل إلى عمق وطنيتها ليبين أن الدين المسيحي أولى برعايتها وأحق باهتمامها إذا أرادت خيرا بالأديان فيقول: «وتخلف هذه الحكومة بالله إن أرادت إلا الحسنى بدين الإسلام... ولو كانت صادقة في هذه الدعوى، بارة في هذا القسم وكانت المحافظة على الأديان بهذه الطريقة من طبيعتها لكان الدين المسيحي أولى برعايتها»⁽²⁾.

ويتساءل الإبراهيمي في موقف مسلم جدلاً بصدق فرنسا في دعواها بأسلوب ساخر، فاضح لنيته السيئة، وكاشف عن حقيقتها ورغباتها في تشويه الدين وطمسه فيقول: «فماذا تفسر المحافظة على الإسلام؟ أباقتلاع أوقافه، وأكلها أكلاً لما؟ والأوقاف هي الأساس المادي للدين؟ أم بتحويلها للمساجد الكبيرة كنائس؟ أم بحسن اختيارها لرجال الدين؟ أم بأعمالها (المشكورة) في حرية الحج؟ أم بتدخلاتها المعروفة في الصوم والإفطار والأعياد؟ أم بتنشيطها على الزرد و(أعراس الشيطان)؟»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 109.

(2) نفسه، ج2، ص 113.

(3) نفسه، ج2، ص 114.

وهو بهذا الأسلوب الساخر يلفت نظر الأمة إلى حقيقة الاستعمار ونواياه الخبيثة تجاه الدين في وخزة تحفيزية للعقل النائم ليستفيق من غفلته، ويتفطن لهذه السياسة الخبيثة التي تخفي وراءها الكثير من الكره والحقد والظلم والسموم القاتلة.

ويكشف الإبراهيمي عن سر تسلط فرنسا على الدين الإسلامي وتمسكها بضرورة فصله عن الدولة، وتسيير شؤونه بطريقتها الخاصة، فبين حقيقتها في استعباد الأبدان وطغيانها على دينهم فتخفق حريتهم حتى في أبسط حقوقهم وتحقق بذلك مرادها من التسلط على الجانبين الروحي والمادي: «وعلى هذه الحقيقة فوضعية رجال الدين الإسلامي عند هذه الحكومة ليست وضعية رجال الدين، وإنما وضعية الجزء المكمل للجهاز الحكومي كالجند والبوليس»⁽¹⁾؛ بحيث تسخرهم لكل الأعمال وتحرمهم من أبسط حقوقهم.

ويظل الإبراهيمي متمسكا بصموده أمام هذا التعسف الفرنسي الذي يسعى جاهدا وبكل الوسائل والطرق إلى محو الإسلام من الجزائر مهما تعددت الغايات وتنوعت الأساليب، ولو باستخدام الشعوذة والترغيب، ثم يؤكد أن غايتها من هذه الأساليب تكمن في ثلاثة أمور أساسية وهي: «تكوين إسلام جزائري مقطوع الصلة بماضي الإسلام الحقيقي، وتكوين مسلمين مقطوعي الأسباب من جميع المسلمين، وتكوين طائفة تقوم لها بذلك ممن تسميهم رجال الدين تنشئهم

(1) المصدر السابق، ج2، ص 115.

على الشروط (الوظيفية)، وتروضهم على الأساليب الحكومية، حتى ينسوا أنفسهم، وعلاقتهم بالدين»⁽¹⁾.

ولا يسأم الإبراهيمي في كل الموقف من تصوير سياسة فرنسا في قمع الدين وأساليبها في طمس معالمه، وتشويه مبادئه، ساعياً إلى إيقاظ الضمائر ونشر الوعي خوفاً من الاستمالة الخبيثة التي تستند على الإغراء فيلجأ إلى تصوير سياسة السلف في التعامل مع سموم فرنسا، فيقول: «يا قوم: إن هذه الحكومة تقدم الارتياح على الاصطياد، وقد ارتادت سلفكم القريب فوجدتهم أصلب منكم عوداً، وأعلى منكم همّة، وأوفر حظاً من الشجاعة؛ لأنهم كانوا على بقية من إيمان، وعلى فضلة من شهامة، وعلى شيء من الاعتزاز بالشرف الديني، وعلى نسبة ما من القرب من الله، والاتصال بالأمة، فحماهم ذلك كله من تأثير سحرها واستهوائها»⁽²⁾؛ وما لجوء الإبراهيمي إلى تمجيد السلف في موقف كهذا إلا لرغبة قوية في تحفيز الأمة وإذكاء فطنتها للتصدي لهذه السياسة الخبيثة.

ويذكر الإبراهيمي أن التجريب من وسائل فرنسا، وطرقها للتخريب، فيضرب لأمتة مثالا رائعا اقتبسه من القرآن الكريم، وضمنه في فكرته الإصلاحية عله يجد في عقول أمتة وعيا لهذه السياسة المتعجرفة: «وإن هذه الحكومة تقدم التجريب على التخريب وقد جربتكم فوجدت

(1) المصدر السابق، ج2، ص 117.

(2) نفسه، ج2، ص 118.

جدارا متداعيا للسقوط، فما أقامته بل خربته؛ لأنه لم يكن لغلامين يتيمين في المدينة ولا كان تحته كنز لهما، ولا كانت هي تنظر بعين صاحب موسى...»⁽¹⁾.

وتسعى فرنسا بكل قواها إلى إثارة الفتنة بين الأمة لتقضي على وحدتها أو تنسف جمعها، وتبث شرورها، فرسمها الإبراهيمي في شكل شيطان يتقمص دور جبريل في إرسال الوحي، ولكن وحي الشيطان من قبس استمده من جهنم فتبعت اللعنة كل من اقترب منه، ويكشف حقيقة فرنسا في موقف ساخر مبهم يقول: «يوحي شيطان الاستعمار إلى الحكومة وحيًا متتابعًا لا فترة فيه، فإذا تلقت الوحي ونزل به الروح الحبيث على قلبها نجمته على فترات، وأوحت في كل فترة إلى أوليائها ما يثير شرًا، أو يوقظ فتنة، وقد أصبح المجلس الجزائري متنزل وحيها، فلا تمضي فترة إلا أوحت إليه شيئًا من ذلك النوع الذي يثير الشرور، أو يوقظ الفتنة»⁽²⁾.

إن قضية فصل الدين عن الدولة جعلت الإبراهيمي يزداد معرفة بخبايا الاستعمار، بل وتعمقت معارفه به إلى حد اليقين، فيتمثله بالشيطان بأبشع صوره، وحقيقة الشيطان أنه عدو للإنسان منذ خلق الله -عز وجل- آدم، وفرنسا عدوة للإسلام ولعنتيه في كل زمان، ولا يشهد لها التاريخ يوما أنها أحسنت التعامل معه: «نعم إن فرنسا الاستعمارية عدو الإسلام في ماضيها كله، وفي حاضرها، فلم يكتب تاريخها أنها حاورته فأحسنت، أو قدرت عليه فعفت، أو عاملته فصدقت، أو حاكمت أهله فعدلت، ودل الواقع المشهود على أنه لم يجن منها إلا الكيد له

(1) المصدر السابق، ج2، ص 118.

(2) نفسه، ج2، ص 125.

بعيدا، والإضرار به قريبا، والعمل على محوه في جميع المجالات، ويجري علينا حكم المجانين إذا تصورنا أن حاضرها في هذا يخالف ماضيها»⁽¹⁾.

إن هذه الحقائق الفظيعة التي كشفها الإبراهيمي عن واقع فرنسا، ومعاملتها للدين الإسلامي، جعلته يدخل معركة فصل الدين عن الدولة بكل جوارحه متوكلا على الله - عز وجل - وموقنا أن النصر حليفه؛ لأنه يدافع عن الحق الذي سيسطع نوره مهما طال الزمن، فكرس لهذه القضية جهدا جبارا كان في كل مرة يسعى لتصوير حقيقة فرنسا وفضح مآربها، وكشف نواياها، وسخر لأجل ذلك كل أنواع الأساليب التحفيزية في شكل وخزات عقلية لإثارة الهمم واستنهاضها من أجل وحدة ثابتة واعية بسموم الخبث، وصامدة لمكائد الاستعمار ومؤامراته، ومؤمنة ببطلان دواعيها: «احتلت فرنسا هذا الوطن بالقوة، وبينها وبينه بحر فاصل، وبينها وبينه دينان متخالفان وجنسان متضادان، ولسانان متباينان، وبينهما - مع كل ذلك - أخلاق متنافرة، واجتماعات متغايرة، بل بينهما شرق وغرب بكل ما بين الشرق والغرب من فروق»⁽²⁾؛ وهو أصدق مثال يضربه الإبراهيمي لتصوير الفرق بين الجزائر وفرنسا.

ونشير إلى أن كتابات الإبراهيمي في المجال السياسي كانت حربا لكل عدو دخيل، فكان قلمه مجاهدا ماهرا في التعامل مع العدو وفي تحفيز الأمة للتصدي له، فأبدع في نقل رؤاه وأفكاره، واستطاع بجدارته أن يشحن لغته بحرارة انفعالاته وأحاسيسه، فخلدها ضمن سطوره، بحيث لا يزال لهيبها مشتتلا في مضامينها إلى يومنا هذا، ويحس به القارئ الغيور على وطنه، فيشعر بحرقه

(1) المصدر السابق، ج2، ص 391.

(2) نفسه، ج2، ص 168.

الإبراهيمي، ويحس بمدى حبه الكبير للوطن، وتمسكه الشديد بالعروبة وغيخته الشديدة على الإسلام وعلى الأمة الإسلامية قاطبة، فعالج أحداثا كثيرة داخل الوطن وخارجه، وتفنن في التعامل معها بقلب ودود، وعين ساهرة، وضمير حي، ونفس متألمة غيورة.

وبهذا كان الإبراهيمي روح الأمة الناطق باسمها والمتألم بآلامها، استطاع أن يوظف اللغة لخدمته وكله أمل في أن ينقشع ظلام الاستعمار عن عالمها، ويسطع نور الحرية في فضائها، وقد انقشع فعلا بعد زمن من هذه الكتابات الاستشراقية.

رابعاً: المجال الثقافي والتربوي

– توطئة

- 1- مكانة اللغة عند إبراهيمي
- 2- التربية والتعليم عند إبراهيمي
- 3- إبراهيمي والتعليم العربي الحر

المجال الثقافي والتربوي:

توطئة

لقد آمن الإبراهيمي بضرورة التجديد والتغيير في جميع الأصعدة، فبات إصلاح حال الأمة هو هدفه المسطر الذي لم يتردد في تجسيده على أرض الواقع بالكلمة الهادفة، مدركاً أن العلم هو مفتاح هذا التجديد، فاهتم ببعث الثقافة العربية في الجزائر، في وقت بهتت فيه معالمها وانحصرت في أماكن ضيقة حتى أصبحت مهددة بالاندثار نتيجة الركود العلمي، والخمود الفكري، خلال قرون عديدة من الانحطاط من جهة، ومحاولة الاستعمار طمس كل رموزها من جهة أخرى⁽¹⁾.

ويؤكد الإبراهيمي أن الإصلاح العلمي من أهم القضايا التي يجدر أن تحظى باهتمامنا والاعتناء بها، ولولا الجانب الديني لكان هذا أول ما تهتم به الجمعية: «إن الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطىها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام واعتناء، ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه وتبذل فيه جهودها؛ لأنه ألصق باسمها وأكثر ارتباطاً بحرفة رجالها ويكفيها دليلاً على خطر الإصلاح العلمي وقيمه - أن أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمتري في لزومه عاقل - يستمدون قوته من شيء يسمى علماً ومن أشياء تسمى علماء»⁽²⁾.

(1) ينظر، محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 359.

(2) الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، ج1، ص 69.

لقد أحسن الإبراهيمي ترتيب أولويات النهضة المنشودة، مراعيًا متطلبات الواقع الذي فرض عليه تقديم الإصلاح الديني على الإصلاح العلمي رغم تمسكه الشديد به: «إن تقديم الجمعية للإصلاح الديني على الإصلاح العلمي ضرورة اقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتى أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم»⁽¹⁾، ولذلك يرى الإبراهيمي أنه من الحكمة أن تبتدئ الجمعية بتطهير النفوس من كل الرذائل، ومن ثم إعدادها لاستغلال الملكات العلمية إعدادًا سليمًا، يقوده الإصلاح العلمي بأوسع مفهومه الذي يتجلى في «اختيار أقرب طرائق الإلقاء لذهن المتعلم واختيار أقرب الكتب لأداء المعنى الصحيح وفهمه وتدريبه على تطبيق النظريات على العمليات»⁽²⁾، وبالتالي يمكن تحقيق الغرض من الإصلاح العلمي بعد اكتساب الثقة في النفس لاقتحام ميادين الحياة بنجاح.

ويشير الإبراهيمي إلى أحد أكبر العوائق لبلوغ العلم وهو المال، فهو يرى أن العلم يحتاج إلى البذل والعطاء ليعطي ثماره: «خصوصًا أن الاستعمار كان قد استولى على الأوقاف الإسلامية التي كانت تؤمن نفقات العلماء والمتعلمين والمدارس والزوايا»⁽³⁾، وهو بذلك يؤكد على ضرورة توفير الإمكانيات المادية في العملية التعليمية؛ لأنها السبيل الميسر للرفع من مكانة العلم: «ودوننا في الوصول إلى القدر الصالح منه عقبات أكبرها فقدان المال، فلو اجتمعنا وتظاهروا وملأنا الدنيا أقوالاً لما أفادنا ذلك من العلم قليلاً ولا كثيراً بدون مال»⁽⁴⁾، وعليه فقد بات من الواجب البحث

(1) المصدر السابق، ج1، ص 69.

(2) نفسه، ج1، ص 70.

(3) محمد دراجي، الإصلاح العلمي ومكانته في التجديد الإسلامي عند الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 51.

(4) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج1، ص 71.

عن سبل توفيره، ولذلك فقد دعا الإبراهيمي: «إلى العمل الجماعي بدل الأعمال الفردية فدعا إلى تأسيس الجمعيات العلمية لكي تنوب عن العلماء والأغنياء في إدارة المؤسسات التعليمية»⁽¹⁾.

ثم كان مجيء جمعية العلماء المسلمين فتحًا كبيرًا للجزائريين فيجميع الأصعدة، ومن ضمنها هذا المجال الثقافي الذي شرعت في توسيعه وتنويع أساليبه، وتوفير مختلف الإمكانيات اللازمة له؛ لأن رئيسها آمن «أن لا حياة إلا بالعلم وإنما العلم بالتعليم، فلن يكون عالما إلا من كان متعلما، كما لن يصلح معلما إلا من قد كان متعلما ومحمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله معلما كان أيضا متعلما»⁽²⁾.

وأما اهتمامات الإبراهيمي في المجال الثقافي التربوي فقد كانت تتمحور حول جملة من القضايا الكبرى، والتي لا يرى دونها نورا للأمة في حياتها، وهذه القضايا تتمثل معظمها في إبراز مكانة اللغة العربية، والدفاع عنها بتسخير كل الإمكانيات لذلك، والسهر على إحيائها، كما ركز على أهمية التربية والتعليم في حياة الأمة مبرزاً أهدافها من أجل بعث حضاري مميز:

1- مكانة اللغة عند الإبراهيمي:

إن حب اللغة العربية يسري في وجدان الإبراهيمي كما يسري الدم في عروقه، فهو يراها شرفا كبيرا للأمة العربية والإسلامية ميزها عن باقي الأمم، فتوسع في علومها وتبحر في أسرارها حتى أدرك ضخامة حجمها في الحياة، فتمنى أن «ينبغ في أهلها عمالقة في الفكر والعلم والأدب

(1) محمد العيد تاورتة، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج2، ص 500.

(2) عبد الحميد بن باديس، ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ص 346.

تكون هي ترجمانا لأفكارهم وعلومهم وخواطرهم، ويكونون هم ترجمانا لعبقريتها وسحرها وجلالها»⁽¹⁾.

وإجلاله لها وافتخاره بها وشعوره بأفضليتها لم يكن «ناتجا عن عاطفة عابرة أو زهو فارغ، بل كان ثمرة وعي عميق بطبيعتها وأسرارها واطلاع واسع في علومها، اطلاعاً أوصله إلى مرتبة النبوغ التي أهلته لأن ينتخب عضواً في المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة ودمشق»⁽²⁾، فأثبت فصاحته بما أوتي من سحر البيان، فكانت «كل الحروف عنده منحوتة من الفصاحة العالية حين يجاور بعضها بعضاً، حتى لكأنها حبات العناقيد الصافية»⁽³⁾.

ويرى الإبراهيمي أن اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة، ولا دخيلة، بل هي في مكانها وبين أنصارها «ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم»⁽⁴⁾، فهي إذن ممتدة بجذورها منذ القدم، ولن تتزحزح ما دام الإسلام قائماً بأركانها في النفوس، فيزيدها القرآن بتلاوته عذوبة وتزيدها الصلوات الخمس تحصناً في القلوب فإذا بها لغة دين ودنيا معاً⁽⁵⁾.

ثم يؤكد الإبراهيمي أن العربية هي اللغة التي دُونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانياته، ثم إنها سلطت سحرها على النفوس البربرية فاستحالت أمامها عربية مطاوعة دون إكراه، يقول: «وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان، وزاحمت البربرية على ألسنة

(1) عبد المالك بومنجل، النشر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 8.

(2) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، ص 360.

(3) عبد الحفيظ بورديم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص75.

(4) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 221.

(5) ينظر، نفسه، ج2، ص 221.

البربر فغلبت وبرزت، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فأحالتها عربية، كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، واقتناع لا يد فيه للقهر، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار»⁽¹⁾، فهذا الخضوع للبربر إنما هو تسليم خاضع للعلم بقدسيته وأسرارها العلمية الكبيرة.

ويرى الإبراهيمي أن هذه العربية هي التي وُحّدت الوطن، فلم يفرقه سوى الاستعمار في عهده الأخير، فالعالم العربي بهذه العروبة «كالجسد الواحد إذا ألمّ بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة، تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث، أو بالتوجع والامتناع»⁽²⁾، مؤكداً على نوايا الاستعمار الخبيثة تجاه اللغة العربية ومحاولاته في طمس معالمها ومحو آثارها فيحاول بالباطل ليدحض به الحق، يقول: «وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الأدب التاريخ ومع كل ذلك - البقاء والخلود، ومع كل ذلك مما يقضُّ مضجعه، ويُطير منامه، ويصْحُ مسمعه، ويقصر مقامه»⁽³⁾، فهو بذلك يسعى إلى محو العربية وقتل العروبة وهدفه من ذلك كله هو إحياء البدع والخرافات، ونشر الأباطيل والمعاني الميئة التي قتلها الإسلام وتصدى لها القرآن.

ويضرب الإبراهيمي مثلاً من آيات بغض الاستعمار لكلمة العروبة، ونفوره منها أنه يرفض الاعتراف بآثارها الطبيعية من تراحم وتعاطف، بل يُعزّي كل مشكل إلى التعصب الديني وكل ذلك ليعيد خيال العروبة مجتمعة الشمل، موصولة الأرحام، فهو بذلك ممن يكتمون الحق وهم يعلمون؛ لأنه يعلم قدسية لغة القرآن وما تنطوي عليه من سحر وعبقورية وعظمة.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 221.

(2) نفسه، ج2، ص 478-479.

(3) نفسه، ج2، ص 479.

لقد عمل الإبراهيمي على إحياء اللغة العربية بكل ما أوتي من فصاحة اللسان إيماناً منه بأنها كانت ترجماناً صادقاً لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شهدتها العرب بجزيرتهم، والتي لا تزال آثارها شاهدة على تلك الحضارات في رونقها وجمالها⁽¹⁾، فقد ازدهرت حضارات الأمم القديمة من العرب وفارس ومصر واليونان ازدهاراً تترجمه لغاتها، فتعكس محاسنه وتكشف حقائقه، ثم اندثرت تلك العلوم وبقيت آثارها منقوشة على الحجارة، ولولا اللغات لم نتبين من الحضارات شيئاً، وظلت على حالها إلى أن جاء الإسلام بالحضارة التي لا تبيد، «فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها والتشريع الإلهي العادل سياجها واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها»⁽²⁾، فجاءت اللغة العربية حاملة لكل ما يحمله الإسلام من معان وفضائل، فكانت بذلك الوعاء الذي يستوعب نظام البشرية وقواعد سيرها.

ويرى الإبراهيمي أن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق لما استطاع السلف الصالح أن ينقل علوم اليونان وآداب فارس والهند «ولا لزمته الحاجة إلى تلك العلوم بتعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عرباً بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته»⁽³⁾.

وهو يرى أنها لغة عالمية لما وسعت علوم العالم واستطاعت أن تترجمها، فاحتوت بعقريتها «هذا التراث العقلي الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة

(1) ينظر، الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 258.

(2) نفسه، ج1، ص 259-260.

(3) نفسه، ج1، ص 261.

الذي إما أن تنقله إليك فتكون قوة فيك، وإن تُنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تظن أسلافنا لهذه الحقيقة فنقلوا العلم ولم يُنقلوا إليه»⁽¹⁾.

ويعترف بذلك بأن جل العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية، وذلك بإجماع الباحثين منا ومنهم، ولذلك يعترف الكثير لها بهذا الفضل، فيمجّدونها ويحترمونها، يقول: «ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها وأنهم يحمّدون للدهر أن هياً لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال إفريقيا...»⁽²⁾.

ويكشف الإبراهيمي الغطاء عن مسألة خطيرة بسبب كثرة المغالطات فيها وهي أن «العرب ليس لهم فيما ترجموا إلا النقل المجرد، وأنهم لم يزودوا شيئاً في التراث الفكري الذي نقلوه، وأن وظيفتهم في هذه الوساطة وظيفه الناقل الأمين الذي ينقل الشيء كما هو ملفوفاً من يد إلى يد»⁽³⁾.

وهي في الحقيقة مسألة خطيرة يجب الوقوف عندها، لأنها تشوه صورة العربي لدى المتعصبين من ذوي الدخائل السيئة من الغربيين فيحكمون عليه ببلادة الفكر وجمود القريحة وقصر النظر، فيحتقرونه رغم أن الواقع يشهد «أن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا

(1) المصدر السابق، ج1، ص 261.

(2) نفسه، ج1، ص 261.

(3) نفسه، ج1، ص 262.

يسموها نقلوا بدافع وجداني إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا ليستقلوا وليشتغلوا، ولينتفعوا بثمره ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم إلا بالتمحيص والتصحيح»⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن اللغة العربية خدمت الإنسانية عامة؛ لأنها لم تخدم علما خاصا بعينه، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بكل الفروع، وهي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم ونصرتة في القرون الوسطى حين كان مستوى البشرية في الحضيض، يقول: «وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى يوم كان العالم كله يتخبط في ظلمات الجهل هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم وأوته ونصرتة»⁽²⁾، ورفعته إلى المستوى الذي يليق به.

إن ارتباط الإبراهيمي باللغة العربية وإجلاله لها وتقديره لمكانتها وشعوره بأفضليتها وافتخاره بأصولها ناتج عن إدراك لا يشوبه شك بأنها «هي التي أفضلت على علماء بكنوزها ودقائقها وأسرارها وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة»⁽³⁾.

وليس من الغرابة في شيء بأن يؤمن الإبراهيمي بقدرة اللغة على الرفع من قيمة الأمة وتنوير فكرها ففتحت عليها آفاقا كبيرة في دفعة قوية نحو الأمام «فحفزت الأفكار الخاملة إلى التحرك وزادت الأفكار المتحركة قوة على قوة»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق ، ج1، ص 262.

(2) نفسه، ج1، ص 263.

(3) نفسه، ج1، ص 263.

(4) نفسه، ج1، ص 263.

ويؤمن الإبراهيمي إيماناً شديداً بأن لغة أمة هي هويتها الحضارية وهي معيار ثقافتها وعنوان رقيها وإن قيمتها بين الأمم مرهون بمدى فصاحة لغتها قوة أو ضعفاً، فهي تعكس -بحق- «صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها»⁽¹⁾.

إن وزن اللغة العربية عند الإبراهيمي ثقل جداً؛ لأنه وعى قدسيته واستوعب عبقريتها، وأدرك قيمتها في استيعاب العلوم القديمة والحديثة بفضل خاصيتها الشمولية، وبذلك وقف بالمرصاد لكل من يرميها بضيق أو قصور من أبناء العرب العاقين ومن أعدائها الذين يقللون من شأنها، فاللغة العربية عند الإبراهيمي هي الجوهر الثمين الذي لا يمكن أن يدنس بأي حال من الأحوال.

2- التربية والتعليم عند الإبراهيمي:

لقد حرص الإبراهيمي على الجانب التربوي في منهجه الذي خطه لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعياً منه بقيمة هذا الجانب في تحقيق النهضة المنشودة، والتي هي حكم كل مواطن طموح لغد أفضل، لأن «نهضة الأمة مرهونة بنوع الجهود الفكرية والتربوية والعلمية التي يبذلها العلماء والمعلمون في مجال التوجيه والإرشاد والبناء الفكري، وتصحيح واقع المجتمع»⁽²⁾، ولذلك ركز الإبراهيمي نشاطه في هذا المجال على ضرورة ضبط النشاط التعليمي وتحديد الآليات التربوية

(1) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، ج3، ص 32-33.

(2) عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 40.

التي من شأنها الدفع به نحو الحضارة وفق معايير الأساليب التربوية التي تحمل في مضامينها أهدافا ورؤى تعليمية وفق اتجاهات تربوية بهدف إصلاح النفوس.

وكانت مواقف الإبراهيمي حول هذه العملية التثقيفية الحضارية تتمثل في الجهود التي بذلها لأجل هذا السلوك الهادف إلى رعاية الفرد وتطوير المجتمع طمعا في الوصول إلى غاية سامية، وهي الكمال الفكري، ومن ثم الكمال الإنساني.

إن التربية بمفهومها الواسع هي ذلك النشاط الإنساني الذي يسعى إلى تنوير العقول وبعث الفعالية في الفكر الإنساني من أجل تحقيق الكمال الفردي، ومن ثم الاجتماعي والإنساني، فهي «الأداة التي تتخذها المجتمعات وسيلة لإعداد أجيالها الصالحة للحياة»⁽¹⁾ إعدادا سليما وفق أسس ومناهج تربوية حضارية تجسد وعيا كاملا بقيمة هذه العملية، وتعكس قناعات عقيدية وسلوكات فكرية وروحية تنتقل عبر الأجيال عن طريق عملية التعليم، وهي بذلك «وسيلة الجماعة للإبقاء على نفسها ثقافيا والمحافظة على كيانها قوميا»⁽²⁾.

والتربية في منظور الإبراهيمي لا تخرج عن هذه الأطر التخطيطية، ولا تميل عن هذه المعاني الفكرية، فهو ينظر إليها بفكر ثاقب وواعٍ بعظمتها في الدفع بعجلة المجتمع الإنساني نحو الكمال والخلود من خلال الدعوة إلى بناء العقول والنفوس، وتنمية المواهب الفطرية وتنشئتها على صحة الإدراك ودقة الملاحظة، وتسخير الواقع وفق آليات المنطق.

(1) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 392.

(2) فاخر عاقل، معالم التربية، دار العلم للملايين، بيروت 1974، ط1، ص 21.

ولعل أسمى أهداف التربية هو ذلك التكوين الشخصي الذي تنبني عليه مقومات المجتمع، والذي يعتمد أساسا على ذلك التوارث التراثي بين أبناء الأمة، وتنشئتهم على ركيزة لغوية قومية متينة، خصائصها حضارية ومميزاتها تراثية عريقة الجذور تغترف من منابع الدين والعقيدة والعربية، وتستقي من روح الوطنية والقومية، ولذلك فقد «واجه المواطن الجزائري محاولات التجهيل وطمس اللغة وتراثها بتمسكه بالحضارة الإسلامية ومقوماتها الروحية وتشبته باللغة العربية»⁽¹⁾، لأنه يدرك قيمة هذه الركائز في بناء شخصيته الوطنية، وقد كان هذا التشبث بهذه القيم الثابتة ناجما عن وعي تام بضرورة فهم الثورة الجزائرية فهما عميقا نابعا من قناعة مفادها «أن الكفاح من أجل الاستقلال في بلد مثل الجزائر مطبوع بالطابع العربي الإسلامي لغة ودينا وثقافة، ولا يمكن إلا أن يقوم على أساس تأكيد العناصر الحضارية التي تبلورت حولها كل أشكال المقاومة الجزائرية منذ 1830 إلى 1954، وهذا يقود إلى التسليم بأن حركة التحرير الوطني في الجزائر لا يمكن تصورها منفصلة عن النهضة الثقافية العربية، وعن بعث القيم الإسلامية وتجديدها»⁽²⁾.

وقد سهر الإبراهيمي على نشر الوعي الشامل بهذه القيم الأصلية من خلال الدعوة إلى تنشئة الأجيال وفق هذه القيم السامية، وذلك لإعداد الأفراد إعدادا سليما يستوعب الحاضر ويشمل المستقبل، فنشط في هذا المجال نشاطا كبيرا حفظته الأجيال السابقة، وتشهد له به الأجيال الحاضرة عندما تستقي من آثاره الخالدة، خاصة ما ورد في أحاديثه الرائعة حول

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 247.

(2) محمد الميلي (المثقفون الفرنسيون والثورة الجزائرية الثقافية، عدد 23 رمضان شوال 1394 هـ أكتوبر-نوفمبر 1974، ص 12-13.

"كلمات واعظة لأبنائنا المتعلمين الأحرار"⁽¹⁾ وما سطره حول أعمال جمعية العلماء والعديد من المقالات حول التربية والتعليم والإصلاح... فكان - بحق - ذلك الأب الكريم، والمربي الحكيم، والوطني الأصيل الذي يقدس القلم ويدرك قيمته، فيقول: «القلم أطوع لي من اللسان في هذا الميدان، وأنا لا أضعه ما دام في عيني بصيص من نور، فهو سلاحه الذي أصارع به الاستعمار وأعوانه من الدجالين والمبطلين، وإن من الأقلام ما يفوق السيف إثمنا في أعداء الحق وأعوان الباطل»⁽²⁾.

والقلم سلاح الإبراهيمي أيضا في التربية والتنشئة الصالحة، يسيل بأسلوب ملائم للعصر ومتماشيا مع حاجيات الأجيال المتجددة، يسخره بفكره لتحديد المجالات الفكرية التعليمية التي تخدم الصغار وتهذب طبائعهم وتهيئهم للسير وفق قيم جوهرية وراثية تستوعب التراث الفكري وتتناقله بأمانة يقول: «الأخلاق والآداب والأفكار والاحساسات والاتجاهات العامة والمشخصات الخاصة هي "الأمثلة" التي يرثها جيل عن جيل، ومنه يتكون مزاجه صحة واعتلالاً»⁽³⁾.

وتعد التربية من أبرز القيم التي تلجأ إليها كل الشعوب للحفاظ على هويتها الحضارية واكتساب شخصية سوية، تتماشى مع ذلك التماسك الاجتماعي القومي بالتخلص من كل السلبيات التي تهددها وتقضي على كيانها، وتعد المدرسة السبيل الذي يُمكن الأبناء من اكتساب هذه الاتجاهات الحضارية، ويُعرفهم بذواتهم وتاريخهم ويورثهم تراثهم وقيمهم، فهي «تعمل على

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 203.

(2) باعزيز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس، د. محمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، بني مسوس، الجزائر، ط2، 2006، ص 107.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 273.

تخليصهم من مظاهر التخلف التي غلبت على المجتمع بغرض تطهير شخصياتهم وتطويرها، وإحداث التغيير المطلوب الذي يفتح للمجتمع آفاق التقدم وميادين الازدهار، دون أن يؤدي ذلك إلى فقدان الخصوصية الحضارية لهذا المجتمع»⁽¹⁾، والمدرسة التي يقصدها الإبراهيمي هي المدرسة العربية، تلك المدرسة «التي تصقل الفكر والعقل واللسان وتسيطر عليها، وتوجه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرق والروحانية»⁽²⁾، وهي بذلك المدرسة التي تعبر عن ذاتية الأمة، وتجسد شخصيتها، وتحمل ثقل الواجب الكبير الذي ينتظره الجيل عن سابقه.

وأما عن الغايات المرتبطة بهذه التربية فقد حددها الإبراهيمي في «توحيد النشئ الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه إلى مضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا، وأصح أساسا»⁽³⁾.

ومن هنا اكتسبت المدرسة أهميتها البالغة في رسالة الحياة، ودورها الكبير في حضارة الإنسان، ونهضة الأمم، فباتت عظمة الشأن في الحفاظ على ركائز المجتمع وأجياله، وأضحى الاهتمام بها قيمة حضارية متوارثة، لأنها تحمل في صميمها غاية عظيمة تتجسد في التربية بأبعد أهدافها، ولذلك يراها الإبراهيمي بمثابة القلب في الجسم، ولا حياة في جسم قلبه مريض أو متوقف، يقول: «تبنى الأمم ما تبني من القصور، وتشيد ما تشيد من المصانع، وتنسق ما تنسق

(1) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 393.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 274.

(3) نفسه، ج3، ص 274.

من الحقائق، وتحف ذلك كله بالسور المنيع، فإذا ذلك مدينة ضخمة جميلة، ولكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب»⁽¹⁾.

ويرى الإبراهيمي أن هذه الغايات السامية للمدرسة لا تتحقق إلا بتخطيط دقيق وبتجسيد فعلي لمناهج التربية وبرامج التعليم، وتوحيدها بتوحيد الإدارة، ومن ثم توحيد الإشراف العام: «... لا يتم هذا على وجه المثمر إلا بتوحيد منهاج التربية وبرنامج التعليم، ولا يتم توحيد منهاج والبرنامج إلا بتوحيد الإدارة ولا يتم توحيد الإدارة إلا بتوحيد الإشراف العام»⁽²⁾.

وفي هذا الصدد لا يغفل الإبراهيمي الدور الكبير الذي يبذله المعلم في سبيل نقل التراث من جيل لآخر، فيشيد برسالته العظيمة، ويقر بالجهد الكبير الذي يبذله في سبيل أداء واجبه، وينقم على ظروفه الصعبة، وراتبه الزهيد رغم نبل رسالته وعظم جهده فيقول ويصف المعلمين: «بالطائفة الصابرة على مكاره الحياة كلها، المحرومة من الراحة والإطمئنان في جميع أوقاتها، فهي في الشتاء تشقى وتتعب، وفي الصيف تضحي وتنصب، وفيما بين ذلك تكابد وتعاني، على ضيق من العيش، وتنكر من الدهر، وتجهم من الولاة، وفقدان للحافز من الرغبة والتنشيط»⁽³⁾.

وهو بسخطه على هذه الأوضاع يحفز -في فكر عميق دارك لهذه العراقيل والصعوبات- المعلم على التحدي، لأنه في رسالة تكاد تكون نبوية، وأن جزاءه عند الله عظيم، وأنه إذا فكر في مكافئته لغبه خياله في هذا العطاء: «أما والله لو استطعت لأعطيت المعلم جمًّا، ثم لأوسعت

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 283.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 274.

(3) نفسه، ج3، ص 277.

العطاء ذمًا، حتى تقوى فيه نزعة الكرامة وشرف العلم، والشعور بأن العلم كالعبادة، وكفاؤه الأجر من الله لا الأجرة من المخلوق ولكن التمني يعلق بخيال»⁽¹⁾.

ويعظم الإبراهيمي رسالة المعلم ودوره الكبير في حياة المجتمع، فيراه مجاهدًا بطلا في ميدانه إما أن يرفع راية الانتصار أو يستشهد في الميدان مؤكدًا أن أجره حق على الله والأمة والتاريخ، يقول مخاطبا المعلمين: «ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد، فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان، وها أنتم هؤلاء خلفتهم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حملوا الدين والدنيا، وقفوا أنفسهم لإحدى خطتين: الدفاع الجيد أو موت الشهيد، فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم، فيجلب العار والهزيمة لجميعكم، واعلموا أنكم عاملون، فمسؤولون عن أعمالكم، فمجزيون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ ومن الجيل الذي تقومون على تربيته كيلا بكيل، ووزنا بوزن»⁽²⁾.

ونظرا لقدسية الرسالة التعليمية المرتبطة بالمعلمين، وجه الإبراهيمي اهتمامه الكبير لهم محددًا المناهج والأساليب التي تجعلهم مستوعبين لأهدافهم ومدركين لأدوارهم، مشيدًا بدور جمعية العلماء في تحفيز المعلم، ومساهمتها في تيسير ظروفه بما تتحمله طاقتها؛ لأن الحكمة كما يرى تتجلى في «اجتذاب الجماهير بالترغيب والمسايرة، لا بالإثارة والسوق العنيف، فهما من دواعي الانتكاس، والانتكاس أخطر ما يعرض للحركات في مراحلها الأولى»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج3، ص 279.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 288.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 278.

ونظرا للدور الجبار الذي تبذله جمعية العلماء في التعليم وتحسينه فقد ارتقى التعليم من ذلك «التعليم التقليدي العتيق، الذي لا يقتصر على تحفيظ العلوم النظرية، دون فهم أو تطبيق، وإنما أصبح تعليما عصريا في مبناه ومحتواه، يضاهي التعليم الحكومي الذي تشرف عليه إدارة الاحتلال»⁽¹⁾، وقد بذل لأجل ذلك جهودا معتبرة خاصة فيما يتعلق بتوحيد مناهج التدريس، فألف دليلا للمعلم أسماه "مرشد المعلمين"^(*)، ينير به الطريق للمعلمين ويوجههم نحو السبل السليمة في تطبيق آليات التعليم، كما يمكنهم من الإطلاع على المناهج النفسية في التعامل مع التلاميذ، وكيفية كسب ثقتهم للتمكن من إصلاح الفاسد منها يقول: «فإن كان هذا التكوين صالحا كانوا صالحين لأمتهم ولأنفسهم، وإن كان ناقصا مختلا زائفا بنيت حياة الحبل كله على فساد، وساءت آثاره في الأمة، وكانت الأمية أصلح لها منه وأسلم عاقبة»⁽²⁾.

ويحرص الإبراهيمي على توعية المعلمين بقيمة العملية التربوية، مركزا على ضرورة التربية قبل التعليم، فكان بذلك الأب الناصح الذي يبرز بفكره في صورة حكيم خبير، لأن ما قدمه للمعلم من نصائح لا تنبع إلا من حكيم متمرس في أصول الحياة يقول: «واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، ... وإنه قوي الإدراك للمعائب والكمالات، فإذا زينتم له الصدق، فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر فكونوا

(1) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 108.

(*) كتبه سنة 1362هـ عندما كان منفيًا من آثاره 15 يوما بعدها نقلا عن المرجع السابق، ص 223.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 157.

صابرين... ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة»⁽¹⁾.

وأروع ما في هذه الآلىء الفريدة أنها لا تزال تشع ببريقها ونورها في وقتنا هذا، ولا أحد يمكنه أن ينكر فضل كل نصيحة في إنارة طريق المعلم والرفع من قيمة العملية التربوية، وكانت هذه الأفكار التربوية تنجم عن «فلسفة تربوية إصلاحية عميقة، تتمثل في اعتقاده الراسخ بقدرة المدرسة في صنع الحياة وإحداث التغيير المنشود في أمة أشرفت على الاندثار»⁽²⁾ بسبب الأمية.

ويعظم الإبراهيمي مكانة المعلمين ويمجد قيمتهم، ويشيد بدورهم الكبير في المجتمع فيراهم أجندة يكافحون الأمية بسلاح العلم، فيرسم لهم بذلك صورة رائعة تزيدهم هبة شجاعتهم وهيبته يقول: «أنتم جنود العلم، ولكلمة "جندي" معنى يبعث الروعة، ويوحى بالاحترام ويجلب الشرف، ويغلي القيمة، لأنه في غاية معناه حارس مجد، وحافظ أمانة، وقيم أمة، لأن من واجبات الجندي الصبر على المكاره واللزبات، والثبات في الشدائد والأزمات،... وإنما أنتم حراس دروب، ومرابطة ثغور، فاصبروا واثبتوا، وقد كفيناكم سداد الرأي، فهاتوا سداد الإرادة وسداد العمل»⁽³⁾.

ويظل الإبراهيمي ساهرا على إعلاء كلمة المعلمين والأساتذة، فيضعهم دائما في أحسن صورة، ويرسم لهم الإطار المناسب الذي يليق بهم في المجتمع، ويمنحهم مكانتهم الحقيقية، ويعمد

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 291.

(2) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 394.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 299.

إلى التعريف بهم بأسلوب رائع يضعهم في أحسن صورة تليق بقدسية الأمانة التربوية التي يحملونها بصدق ويؤدونها بأمانة، فيصف صبرهم وينقل معاناتهم في سبيل رسالتهم يقول: «ونعني بالمعلمين هذه الطائفة المجاهدة في سبيل تعليم أبناء الأمة لغتهم، وتربيتهم على عقائد وقواعد دينهم، وطبعهم على قالب من آدابه وأخلاقه، نعني هذه الطائفة الصابرة على مكاره الحياة كلها، المحرومة من الراحة والاطمئنان في جميع أوقاتها، ففي الشتاء تشقى وتتعب، وفي الصيف تضحي وتنصب، وفيما بين ذلك تكابد وتعاني...»⁽¹⁾.

وهو يستمد هذا الاعتقاد من واقع معيش، وفكر عميق وتجارب حية في واقع ميت طغت عليه الأمية فولدت الجهل والتخلف، لأنها صفة مدمرة «لا تفشو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقها بأخس أنواع الحيوانات ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد»⁽²⁾.

والأمية هي سبب تخلف الأمم وانحطاطهم، فهي تقضي على معظم خصائص الحياة، وتدمر الأمة، لأنها «مرض فتاك، ونقيصة مجتاحة، ورذيلة فاضحة، وشلل وزمانة في جسم الأمة التي تبتلئ بها»⁽³⁾.

وقد انتشرت هذه الآفة في أوساط الشعب الجزائري بسبب سياسة التخريب المعنوية التي انتهجها الاستعمار لتدمير الركائز الروحية وتجهيل الشعب الجزائري والقضاء على مقوماته الدينية

(1) المصدر السابق، ص 306.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 140.

(3) نفسه، ص 140.

والفكرية والعقيدية من أجل السيطرة الكاملة على الوطن شكلا ومضمونا، وقد تطفن الإبراهيمي لهذه النوايا الخبيثة فسال حبره كثيرا بدفقات حارة حُرقة هذا الوضع المزري، لأنه يرى بأن الأمة هي شلل الأمم، وتفشيها في الأمة الجزائرية هو الذي أقعدها عن مجارة الأحياء في الحياة، وبالتالي فتح الباب للاستعمار فتمكن منها.

إن خبرة الإبراهيمي بخفايا الاستعمار ونواياه جعلته ينشط قلمه في سبيل نشر توعية كاملة لهذا العايب الخفي خاصة في مجال التعليم، فيصف سياسته الشنعاء في تدمير الشعب وركائزه، وقتل جميع مقوماته دون رحمة ولا شفقة يقول: «يحرم الاستعمار الإفريقي التعليم على مسلمي الجزائر، ويفرضه على أبنائه وفي وطنه، فأعجب لشيء واحد يحرم في وطن، ويفرض في وطن، ومن عرف الاستعمار معرفتنا به لم يعجب ولم يندهش خصوصا في وطن كـالجزائر لغته العربية ودينه الإسلام، وطن أنهكه الاستعمار»⁽¹⁾.

واستمرت أساليب الاستعمار في قمع التعليم في الجزائر بشكل مظلم إلى درجة أنها كانت تفرض رخصا لكل من يرغب في فتح مدرسة أو كتاب إذ أن: «كل طالب للرخصة تصل أذنيه من أول موظف مكلف، هذه الجملة: «احذر أن تفتح المدرسة قبل أن تأتيك الرخصة»، ثم إن الإدارة الفرنسية لا تمنح هذه الرخصة إلا بشروط قاسية ومهينة»⁽²⁾، تزيد في ألم المعلم، وتضيق خناق العيش، يقول: «فقدت - أنت - أن هذا الطالب المسكين، إنما يفتح المكتب ليتعيش بأجرة تعليم القرآن، أو ليقوت عياله بأجرة تعليم القواعد البسيطة من العلم، فهل يعامله الجوع والحاجة

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 238.

(2) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985، ص 63.

هذه المعاملة البطيئة؟ وهل يعذره الجوع والحاجة إلى أن تتم الإجراءات؟⁽¹⁾، أسئلة موجهة إلى ضمير المستعمر، ولكن الضمير عنده غائب.

ولا تزال سياسة الاستعمار المخربة للتعليم تسري في الجزائر خاصة عندما فتحت أبواب المدارس الفرنسية لبعض أبناء الجزائريين ليتلقوا تعليماً حسب أهوائها ورغباتها، تعليماً ناقصاً خاضعاً لسياسة عنصرية هدفه تجريد الجزائري من دينه ولغته، وإخضاعه لسلطة فرنسا الفكرية، وهكذا تعمدت فرنسا قتل مبادئ الفكر والأصالة في النفوس فلا هي تركت الشعب يتعلم بنفسه ولا هي علمته الأصول على حقيقتها، فكانت بذلك «بمنزلة الهرة التي دخل صاحبها النار بسببها، لأنه لم يطعمها، ولم يدعها تأكل من خشاش الأرض، فلا أنت علمت الدنيا، ولا أنت سمحت لنا بتعليم الدين»⁽²⁾، أيها المستعمر الخبيث.

هذا هو نشاط الإبراهيمي في مجال التعليم ومحو الأمية والحفاظ على ركائز الوطن نشاط حفظته له الأجيال السابقة وتشهد له به أجيالنا هذه من عزة وكرامة واستقرار، فالتطور الحاصل في هذا المجال يشهد له بمجهود جبار يصاحبه تحد كبير، لأن الواقع آنذاك كان مزرياً والظرف التاريخي يفرض الكثير من الصبر والتحدي، ويحتم البحث عن حلول جذرية استمدت قوتها من التعليم العربي الحر، «فبدأت المدارس العربية الحرة تنتشر رويداً رويداً في مدن الجزائر وقراها،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 236.

(2) نفسه، ج2، ص 238.

وامتلات صفوفها بأبناء الجزائريين الذي بدأوا يتعرفون إلى لغتهم، ويكتشفون مبادئ دينهم، ويدركون وضعهم الحضاري بين الأمم»⁽¹⁾.

وكل هذه المقومات وردت عن وعي تام بقيمة العملية التعليمية، وخبرة عميقة في مجال التدريس والتعليم، وتنسيق منظم بين مختلف البرامج التربوية الثقيفية، ومنهج محكم بمختلف الضوابط التربوية تجندت لتطبيقه مختلف الكفاءات المستعدة لنشر التعليم بكل مبادئه وقيمه في رسالة شرفية عنوانها الصمود والتحدي ومبادئها ترسيخ القيم الدينية والحفاظ على اللغة العربية وبث الوعي وإيقاظ الضمائر من أجل إحياء مقومات الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية الأصيلة.

3- الإبراهيمي والتعليم العربي الحر:

نظرا لأهمية التعليم في حياة الفرد، فقد حرص الإبراهيمي على هذا الجانب الحساس من حياة الأمة حرصا شديدا جعله يكرس له كل وقته وجهده وعنايته ليضعه في القلب السليم الذي يليق به، ويجعله يتماشى مع كل التحديات التي تواجه الأمة.

فالإبراهيمي يعلم بأن الأمة العربية في جميع أقطارها خاصة منها الجزائر تعيش أزمة ثقافية حادة بسبب قلة الوعي وطغيان المستعمر، وامتداد سلطانه إلى السيطرة على جميع مجالاتها، فكان لزاما عليه أن يستنهض هممها ليضمن لها وقفة حضارية على أساس متين.

(1) محمد زمران، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الإبراهيمي، ص 399.

ومن أجل نهضة جادة في هذا المجال الحساس في حياة الأمة، فقد سعى الإبراهيمي إلى تخطيط منهج تغييري جذري يمس العملية التربوية في كل مناهجها بحثا منه عن حلول جذرية لهذا التخلف الثقافي الذي حطم الأمة في الكثير من المجالات، ووضعها في ذيل الدول المتطورة.

وكل هذه الظروف جعلت الإبراهيمي ينطلق من أساس سليم ينبعث من أعماق الشعب الجزائري، ويندفع من أصالته وقيمه المرتبطة أساسا بالحضارة العربية الإسلامية، وذلك لإعداد أجيال واعية مثقفة بفكر صاحب وعقل نير ورؤى متحضرة.

وكتب الإبراهيمي مقالات عديدة دمج فيها آراءه حول التعليم الحر مشيرا إلى مختلف القوانين الجائرة التي كان يتعرض لها جراء الإدارة الفرنسية التي تسعى إلى تضيق الخناق على التربية التعليمية الحرة بإرهاق القائمين عليها وشل إرادتهم بكل الطرق، مؤكدا في الوقت ذاته على ذلك الصمود القوي الذي تلقته من أبناء الجزائر حفاظا على اللغة العربية وإلا «فما بقي في الجزائر من يكتب حرف هجاء عرييا»⁽¹⁾.

فالإبراهيمي يدرك قيمة اللغة العربية ومكانتها في توحيد الشعب وإحيائه ويرى أن هذه القيمة تزداد أهمية كلما تواصلت بالتعليم القومي، وكلما ارتبطت بالتربية الصحيحة السليمة التي تصقل الفرد في مبادئه وتهذب ذوقه إلى ملكاتها، ومن ثم تضمن لنفسها الاستمرار في حياته والخلود في أخلاقه وقيمه، لأن التعليم في نظر الإبراهيمي رسالة شرفية يحملها المخلصون من أبناء

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 233.

الشعب وبلغته القومية الأصلية: «والأمة تريد تعليمًا عربيًا عليه طابعها، وفيه أثر يديها، وله ما لها من روح، وعليه ما عليها من سمات»⁽¹⁾.

إن تأكيد الإبراهيمي على أهمية التعليم العربي الحر جعله يصر على إحداث نهضة تعليمية عربية قائمة على أسس سليمة ومناهج عصرية، تتماشى مع مقتضيات البلاد، لأنه يعلم أن «الأمة تريد من التعليم العربي الحكومي الذي يحقق للعربية صفة "الرسمية" أن يكون تعليمًا كاملاً في جميع مراحلها، يبنى على أساس صحيح في المرحلة الابتدائية، وصحة الأساس تكون بالمعلم الكفء، والكتاب الوافي، والبرنامج الكافي، ثم ينتقل -صحيحاً- إلى الدرجتين الثانوية والعليا»⁽²⁾.

ويلح الإبراهيمي إلحاحاً شديداً على ضرورة التعلم، لأنه يرى أن الجهل هو السبب الأساسي في خراب الأمم وضياعها وانحيارها، وأن العلم هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياة الشعوب، لأنه يفتح أبواب الحياة الكريمة، ولذلك يؤكد الإبراهيمي على أن فرنسا تدرك جيداً قيمة العلم في الحياة، ولهذا تسعى للقضاء على وسيلته الأساسية المتمثلة في التعليم فيقول: «وللمتحكمين فينا قصد مصمم في القضاء على ديننا ولغتنا، وفي بقائنا على الجهل والامية وفي حرماننا من جميع أنواع العلم الذي مفتاحه التعليم»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 313.

(2) نفسه، ج2، ص 313.

(3) نفسه، ج2، ص 234.

ويتحدث الإبراهيمي عن سياسة فرنسا الظالمة، فهي تحرم التعليم على الجزائريين وتفرضه على أبنائها، والغريب أن كل ذلك يحدث في الجزائر، يقول: «يحرم الاستعمار إلا فرنسي التعليم على مسلمي الجزائر، ويفرضه على أبنائه وفي وطنه، فأعجب لشيء واحد يحرم في وطن ويفرض في وطن، ومن عرف الاستعمار معرفتنا به لم يعجب ولم يندهش»⁽¹⁾، فقد أنشأ مدارس خاصة بأبناء الجزائريين يقتصر فيها التعليم باللغة الفرنسية وحدها، كما تقدم معها دروسا كثيرة حول تاريخ فرنسا وقيمتها العالمية بهدف إحداث غزو فكري غربي يشوه به الحقائق، ويطمس شخصية المسلم الجزائري، وهو الأمر الذي يثبت ظلم الاستعمار، ويؤكد خبث نواياه بطرائقه المتعجرفة وقوانينه الجائرة، «لأنها مفروضة علينا فرضا في أمر يتعلق بنا وحدنا، وهو ديننا ولغتنا، ولا نحترمها لأنها باطل، والباطل لا يحترم، ولا نقرها، لأنها حرب على ديننا ولغتنا، ولا نحتملها ولو أدت إلى إغلاق جميع المدارس دفعة واحدة»⁽²⁾.

ويبين الإبراهيمي أن هذه القوانين الجائرة ما هي إلا مؤامرة من فرنسا تهدف إلى القضاء على حركة التعليم العربي الحر، لأنها تتناقض في تعاملاتها مع أبنائها وأبناء الجزائر، ولا يهتمها شيء في ذلك، فإذا أراد جزائري أن يفتح مدرسة عليه أن يتهميا لكل العراقيين الإجرائية التي تتخذها السياسة الفرنسية ضده؛ «وقدر - أنت - أن هذا الطالب المسكين إنما يفتح المكتب

(1) المصدر السابق ، ج2، ص 237.

(2) نفسه، ج2، ص 241.

ليتعيّش بأجرة تعليم القرآن أو لِيُقَوّت عياله بأجرة تعليم القواعد البسيطة من العلم، فهل يعامله الجوع والحاجة هذه المعاملة البطيئة؟ وهل يعذره الجوع إلى أن تتم الإجراءات»⁽¹⁾.

لقد أفرغ الإبراهيمي عصارة فكره تخطيطاً وتدبيراً لإحداث تغيير جذري في واقع أنفك الاستعمار بسياسيته وقوانينه خاصة في مجال التعليم، فاستخدم لأجل ذلك كل الطرق والوسائل والمناهج التي تعتمد على الهدم والبناء، فهدم الأساليب القديمة خاصة في الكتابات، وبعض الزوايا، ثم عرضها بمناهج علمية حديثة مسايرة لمتطلبات الواقع، ومطبوعة بالطابع الإصلاحي العلمي، الذي يستند على «التنفيذ الصامت لا على القرارات المعلنة التي تثير النقد والاعتراض»⁽²⁾ من قبل الحكومة الفرنسية التي تسعى للتسلط على رجال العلم والقضاء متجاهلة بأن «العلم رمز الإنسانية والكمال والقضاء رمز العدل والمساواة»⁽³⁾.

وعلى الرغم من كل المتاعب المادية والمعنوية التي كانت تعترض جمعية العلماء في تأدية رسالتها التعليمية؛ فإن الإبراهيمي كان يرى أن الأمة بلا مدرسة كالجسد بلا روح؛ لأنها في نظره -أي المدرسة- منبع الإرواء ومصدر كل تفاخر واعتزاز: «تبنى الأمم ما تبني من القصور، وتشيد ما تشيد من المصانع، وتنسق ما تنسق من الحقائق، وتحف ذلك كله بالسور المنيع؛ فإذا ذلك مدينة ضخمة جميلة، ولكنها بغير عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 236.

(2) نفسه، ج2، ص 247.

(3) نفسه، ج2، ص 247.

(4) نفسه، ج2، ص 283.

ثم يبين الإبراهيمي الجهود التي بذلها الاستعمار في سبيل طمس التعليم من حياة الجزائريين بمختلف القوانين التعسفية التي تقضي بعرقلة المدارس وإرهاق المدرء والمعلمين، وما يترتب عن كل ذلك من جرح لكرامة الإنسان وإلجاء إلى المواقف؛ ولذلك قرر إخوانه العلماء التصدي لكل هذه التحديات، واعتبروا أنفسهم مجندين في حرب مقدسة، جوهرها حماية اللغة والدين، وانضم إليهم جيش من المعلمين يحملون راية التحدي والصمود، فاستحقوا وسام الشرف ليحظوا بلقب "المجاهدين" في رسالة شرفية هدفها الحفاظ على اللغة والدين، يقول: «ونعني بالمعلمين هذه الطائفة المجاهدة في سبيل تعليم أبناء الأمة لغتهم وتربيتهم على عقائد وقواعد دينهم، وطبعهم على قالب من آدابه وأخلاقه»⁽¹⁾؛ ثم سعى في تشريفهم بأسمى القيم وحرص على حقوقهم في الأجر حرص الأب الكريم الذي يزرع في أبنائه حب العلم، فيخوله لهم عبادة: «أما والله لو استطعت لأعطيت المعلم جمًا، ثم لأوسعت العطاء فيه ذمًا، حتى تقوى فيه نزعة الكرامة وشرف العلم، والشعور بأن العلم كالعبادة، وكفاؤه الأجر من الله لا الأجر من المخلوق»⁽²⁾.

ثم بين الإبراهيمي ما ترتب عن ذلك التصدي للقوانين الفرنسية، وما تبعه من غلق للمدارس وتشريد للتلاميذ، واعتقالات واسعة مست المعلمين الأحرار الذين وجهت إليهم تهم التعليم بدون رخصة، فوجدوا أنفسهم مسجونين بأحكام قاسية وغرامات مالية باهظة في محاولات يائسة من فرنسا لكسر شوكة التعليم الحر، ولكن هيهات أن يكون له ما تمنى؛ لأن الإبراهيمي يقول بالصوت العالي: «سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة، وستلقى هذه الأحكام

(1) المصدر السابق، ج2، ص 306.

(2) نفسه، ج2، ص 309.

بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي (بإخواننا المجرمين) في مجالس الأحكام ومقاعد الإتهام... وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا وحسبنا فخراً أن تكون التهمة "فتح مدرسة دينية أو قرآنية بدون رخصة"، وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويحاسبهم على الإجرام»⁽¹⁾، ويقول أيضاً في موقف عزة وافتخار وشرف متباهيا: «ليبلغ الاستعمار ما هو بالغ في التضيق على ديننا والتصميم على هضم حقوقنا بهذه الوسائل... فإن الإسلام حي خالد في داره، وإن العربية حية خالدة في جواره، لا يضيرهما تضيق، ولا يبطئ سيرهما تعويق»⁽²⁾.

لقد سهر الإبراهيمي على نشر الوعي في المجال الثقافي سهرًا تشهد له به الأجيال على مرّ السنين، فقد اهتم بالجانب الثقافي اهتماماً بالغاً مركزاً على كل الجوانب التي تساعد على تكوين فرد صالح في المجتمع، وخصص اهتمامه في الجوانب الحساسة لهذا المجال كالترقية والتعليم، وكان هدفه الأول والأخير تحقيق مجتمع متحضر في مجال المعرفة وكل المجالات.

ونصل إلى القول بأن الإبراهيمي كرس نفسه لخدمة وطنه، فأمضى حياته مناضلاً بفكره، مجاهداً بقلمه، يعالج قضايا شعبه بحكمة ثابتة، وعبقورية فذة، ورؤية صادقة واعية لحقائق الأشياء؛ ولعل كل هذه الجهود أدت إلى أحداث انقلاباً كبيراً في حياة الجزائريين في جميع الأصعدة بثورته العارمة في شتى مجالات الحياة، مستنداً في كل ذلك على أكبر ركائز البلاد من دين وعروبة باعتبارهما رسائل حضارية جاءت لإسعاد البشرية قاطبة.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 384.

(2) نفسه، ج2، ص 384.

ولعلنا نكون بذلك قد أعطينا صورة واضحة عن محتوى آثار الإبراهيمي في عدة جوانب

من الحياة.

الباب الثاني:

البناء الفني لنثر إبراهيمي

الفصل الأول: البناء اللغوي

لنثر إبراهيمي

توطئة

سنحاول ولوج هذه الدراسة من منطلق أن الخطاب الأدبي يتكون من مضمون وشكل، أو من مظهر وجوهر، أو من صورة وإطار، وكلها ثنائيات مرتبطة ببعضها ارتباط الروح بالجسد، ولا يمكن فصل إحداها عن الأخرى بأي حال من الأحوال؛ لأنها تشكل في اتحادها ثنائية الإبداع الأدبي الذي يفقد قيمته سواء الأدبية أو الفنية إذا انفصل جزء من هذه الثنائية عن الآخر؛ لأن «الجمالية في العمل الأدبي ليست مسألة شعر أو نثر، إنما هي رؤية المحتوى، وفنية المضمون وبقدر ما تتكاثف هذه الفنية محتوى وشكلا في عمل أدبي يقترب العمل بهذا القدر من دائرة الفنون الجميلة»⁽¹⁾، ولذلك بات من الضروري أن نقف وقفة نجلو بها المسالك الفنية أو الشكلية أو الأسلوبية أو التعبيرية التي أطرها الإبراهيمي في عرض تلك المضامين التي سلطنا عليها الضوء، وحاولنا إيضاحها في الباب السابق.

ويجدر بنا أن نقف أولا عند روافد هذه اللغة الإبراهيمية؛ ومكوناتها التي دفعت بالإبراهيمي إلى مستوى البراعة، ووضعت في مرتبة الأدباء البلغاء لنستجلي بها براعته في تسخير اللغة لخدمة أفكاره واحتواء معانيها لتحقيق أغراضه؛ محاولين إبراز طبيعة هذه اللغة بكل مستوياتها المختلفة والتي تعد من أبرز الآليات المستخدمة في إبداعاته وفي التعبير عن أغراضه ومقاصده التي يروم لإيصالها، وسنحاول الوقوف عند مختلف الظواهر اللغوية المرتبطة بالبناء اللغوي من مفردات وتراكيب ومعان.

(1) ميشال عاص، الفن والأدب، مؤسسة نوفال، لبنان، ط5، 1980، ص 156.

1- روافد اللغة الإبراهيمية ومكوناتها:

إن المتصفح لحياة الإبراهيمي يجد أن نشأته كانت قوية العود غزيرة المورد، غنية المعرفة، فقد نشأ في بيت ورث عن الأجداد ما يرثه العلماء عن الأنبياء، «وقد خرج من هذا البيت سلالة من العلماء تجاوزت شهرتهم حدود المنطقة(*)»،⁽¹⁾ وكان يشرف على تعليمه عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، فحفظ القرآن الكريم في آخر الثامنة من عمره وألفية ابن مالك، واستوعب بعض متون الفقه واللغة والنحو، وحفظ ألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي، وجمع الجوامع في الأصول، وأشعارا كثيرة لفحول شعراء المغرب والأندلس⁽²⁾ كما وجهه عمه إلى فحول شعراء المشرق، فحفظ ديوان المتنبي وديوان الحماسة وكتاب نفح الطيب، وقد استطاع أن يستوعب هذه المعارف استيعابا كاملا بفضل عمه الذي ظل يلقنه العلم حتى وهو على فراش الموت، يقول: «ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت بحيث أتي ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه، وهو على تلك الحالة»⁽³⁾.

وقد منحه الله تعالى، حافظة عجيبة وذاكرة قوية مكنته من الإمام بأطراف كثيرة من العلم، ويؤكد على ذلك في قوله: «لم يكن شيء من ذلك يرهقني لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة»⁽⁴⁾.

(*) قرية تعرف بأولاد براهيم، وتقع جنوب مدينة سطيف في الشرق الجزائري.

(1) أحمد طالب الإبراهيمي، مذكرات جزائري، دار القصبة للنشر، ج1، 2006-2007، ص 15.

(2) ينظر البشير الإبراهيمي، (أنا)، الثقافة، ع87، ص 13.

(3) نفسه، ص 14.

(4) نفسه، ص 14.

ولقد شدا لسان الإبراهيمي على القرآن الكريم منذ الصغر، فتشرب من ألفاظه ومعانيه وتراكيبه ما غذى روحه وفكره، وانعكس أثره جليا واضحا على لسانه في كل كتاباته، ثم إنه تبخّر في علوم الثقافة الإسلامية بمختلف علومها وأصولها، وخاض في علوم التفسير وعلم الحديث وفقه الدين وغيره، حتى تفتحت قريحته وانفكت كل العقد من لسانه، فلم يعد يحول بين فكره ولسانه حائل، وانعكست هذه الثقافة الواسعة على معجمه اللغوي، فأكسبته ثروة ضخمة استطاع أن يخرق بها واقعا معيشا تمكن من قلبه رأسا على عقب، فاستطاع أن يذيب الجليد المتحجر في النفوس فعادت إلى الصواب بفضل براعته في شحن ألفاظه بمختلف المعاني وفي العديد من المجالات؛ فإذا بها تخرج من لسانه محملة بطاقات فكرية وانفعالات عاطفية تشع في نفس قارئها فترسل ألوانا جديدة كلما أمعن القارئ في سرها، على اعتبار قدرتها الخارقة في فرض كينونتها عبر الزمن.

وقد وهبه الله ذهنا ثاقبا وحسا متفردا وبراعة خاصة في مختلف أنواع المعارف، فهو «مفسر محدث، وأصولي نظار، متضلع في معرفة أسرار الشريعة ومقاصدها»⁽¹⁾، يخوض في دقيق المعاني وعميق الأفكار بلغة قوية ولسان فصيح.

ولاشك أن كل هذه المعارف المتنوعة وهذا المخزون الوافر من روائع الأدب العربي، وهذه الثقافة العربية والأدبية العميقة الواسعة كان لها أبلغ الأثر في توجيه نشره الفني تلك الوجهة

(1) محمد إبراهيم الكتاني، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 8.

المستقيمة التي رفعت من مقام الأدب الجزائري وجعلته يضاهي آداب المشرق في قديمها وحديثها⁽¹⁾.

إن للإبراهيمي قدرة خارقة على استعمال اللغة في كل خطبه وكتابات وأشعاره، فإذا تحدث يقف المستمع مبهورا بفصاحته مشدودا للغة الفذة، فهو يستحضر مفرداتها وشواهدا من الكتاب والسنة وأمثال العرب وأشعار الجاهلية والإسلام في مختلف العصور سواء أموية أو عباسية أو أندلسية أو مغربية⁽²⁾.

ثم إن الدارس لنثر الإبراهيمي يتبين له في جلاء مدى اتكائه على التراث العربي الإسلامي في مختلف أطواره، يغرف منه في كل حين، حتى لا يكاد يخلو نص من نصوصه من أثر الثقافة التراثية، اقتباسا أو تضمينا⁽³⁾، خاصة وأن جل موضوعاته تصب في بحر الإسلام والعربية والجزائر، فانطبع أسلوبه بالطابع العربي الإسلامي⁽⁴⁾، متأثرا ببعض الاتجاهات الأدبية وعلى رأسها المدرسة الشرقية التي يمثلها ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمداني وابن العميد وعبد الحميد الكاتب⁽⁵⁾، فقد أخذ الترادف الصوتي والتقسيم المنطقي للعبارة عن الكاتب وابن المقفع، وأخذ الإسهاب والتكرار والإتيان بالأضداد والسخرية عن الجاحظ، وأخذ الزخرفة اللفظية والتشبيه عن

(1) ينظر، عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، 90.

(2) ينظر، محمد إبراهيم الكتاني، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 8.

(3) ينظر، محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي: نضاله وأدبه، ص 223.

(4) ينظر، نفسه، ص 223.

(5) ينظر، عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 90.

ابن العميد وبيدع الزمان⁽¹⁾، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة في المجال البلاغي سنوردها بشيء من التفصيل في حينها.

وكما تأثر الإبراهيمي بالمدرسة الشرقية تأثر أيضا بالمدرسة الأندلسية التي يمثلها ابن بسام وابن عبد ربه وغيرهما، وخاصة في أناقة الأسلوب⁽²⁾؛ حتى أن «بعض التأثيرات الأندلسية ظلت قائمة في أسلوب الإبراهيمي إلى أواخر حياته»⁽³⁾، فعرف كيف يوظف مكتسباته «ويستعملها في نثره بالحجم الذي يريد، دون أن يكون صورة منسوجة عن أديب سابق»⁽⁴⁾؛ لأنه بارع في التجديد، وأسلوبه مميز في مجال الإبداع، جامع بين القديم والحديث، حتى غدا رائدا للمدرسة المحافظة في الجزائر دون منازع بفضل ثقافته الواسعة، وموفور حفظه للكثير من المقامات والأشعار والخطب والأمثال ونوادر اللغة، التي لا تحول بينه وبين فكره فهو يصطنع السجع حين يرغب حتى قال فيه محمد الغسيري بأنه «إمام العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعية التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصناعة»⁽⁵⁾، وأروع مثال لإبداعه الفائق على اصطناع الأسلوب القديم في التعبير عن قوة أحاسيسه رسالته المشهورة «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة»⁽⁶⁾.

(1) ينظر، محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 223.

(2) ينظر، عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 324.

(3) نفسه، ص 324.

(4) عبد المليك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 91.

(5) الملك مرتاض فنون النثر الأدبي الجزائري، ص 329.

(6) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، ص 252.

وقد ساعده احتكاكه بأساليب البلغاء في المشرق من تحصيل سعة ضخمة من محفوظ اللغة، ورصيد أضخم من مفرداتها، وهذا ما أعانه على قوة الاستدعاء اللغوي لما يرومه من التعابير والأساليب والتراكيب دون أن يجهد نفسه في تصيدها.

والمتمعن في قوة أسلوب الإبراهيمي يعتقد للوهلة الأولى أن مصدر هذه القوة يرجع إلى فصاحة مفرداته وجودة تراكيبه، غير أن السر الحقيقي في ذلك يكمن «في حسن الربط بين المفردات ومعانيها، وفي القدرة على توظيف مفردات وتراكيب التراث، أو المفردات والتراكيب العامة أو غيرها... حتى ليصبح من شبه المستحيل البحث عن غيرها لتأدية نفس المعنى في نفس السياق»⁽¹⁾.

وختاماً إن الروافد المكونة لشخصية الإبراهيمي وأسلوبه المميز كثيرة ومتنوعة وتصب في معظمها في قالب التراث العربي الإسلامي الأصيل بما فيه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأمّهات الكتب والمصادر العربية والغربية والشرقية.

2- البناء اللغوي:

توطئة:

إن من يحاول الاقتراب من لغة الإبراهيمي وأدبه ينبهر من عبقريته الفذة وفلسفته الخارقة إن هو لم يكن معداً لاستقبال هيبها، ذلك أن لغة الإبراهيمي «ذات أحجار كريمة يصعب نحت

(1) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد الإبراهيمي، ص 620.

مثلها، ولا يتاح البناء بها إلا للمهندس الذي أوتي مهارة خاصة من حيث الذوق، وخبرة متميزة من حيث الشوق»⁽¹⁾، ولذلك وجب على القارئ الذي أراد الخوض في غمار أسلوب الإبراهيمي أن يكون بارعا في اللغة متمكنا من ناصيتها؛ لأن لغة الإبراهيمي سمت إلى مراتب عليا بلغت أحيانا حد الغموض، وهذا ليس عيبا في اللغة، ولا في الإبراهيمي بقدر ما هو في الدارس الذي لم تؤهله قدرته التكوينية على استيعاب الأفكار والمعاني التي تجاوزت مستوى القارئ العادي الذي لا يستطيع لمس الانفعالات التي شحن بها الأديب ألفاظه، فقد أشار النقاد إلى أن القدرة الإيحائية التي تميز النص الأدبي عن الخطاب العادي إنما تأتي من شحن اللغة بمقدار غير عادي من الانفعالات، لكن هذا الشحن لا يترك الألفاظ على حالها الأصلي، بل يزيحها عن واقعها الأصلي العادي الذي يتماشى مع اللحظة الانفعالية التي يولدها الأديب ضمن ألفاظه.

وقد احتار النقاد في تحديد مرجعية هذه الظاهرة، فأسندوها بعضهم إلى عبقرية اللغة في حد ذاتها، وأسندوها آخرون إلى قدرة الكاتب المبدع نفسه الذي يشكل بعبقريته الفذة إبداعا حيا لا يمكن الوقوف عليه في المعاجم اللغوية والذي يتطلب قارئاً خبيراً بطاقات الكلمات وأبعادها.

ولقد اعتمد الإبراهيمي في صياغة فنون نثره الأدبي المختلفة «اعتمادا كلياً على أصول عبقرية اللغة العربية ورصيدها الزاخر من الألفاظ والتراكيب والمترادفات والغريب والمشارك»⁽²⁾، لذلك لقب بأمير البيان العربي دون منازع «حتى أن الخبير بالأسلوبيات يدرك بسهولة إذا قرأ نصاً غير معزٍ إليه، أنه لمحمد البشير الإبراهيمي لا لسوائه من الكتاب، وأكبر أمانة على عظمة المنزلة

(1) عبد الرزاق قسوم، فلسفة الحب عند عفيف الدين التلمساني، مجلة الوعي، دار الوعي (تلمسان عاصمة الثقافة)، ع4-3، 2011، ص 129.

(2) مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، ص176.

الأدبية لكاتب من الكتاب، أنه حين يغتدي معروفا بأسلوبه بين الناس فتراهم يقولون هذا أسلوب فلان، أو شبيه بأسلوبه، إذا حاكاه محاكيا في الكتابة كشأن أبي عثمان الجاحظ، وبديع الزمان الهمداني، وابن الخطيب الأندلسي، وسوائهم من عمالِق البيان العربي الآسر»⁽¹⁾.

فلغة الإبراهيمي رفيعة المستوى قلَّ أن يحاكيها بارع؛ لأنه «ذو قدرة خارقة على استعمال غير مألوف في خطبه وكتابات وأشعاره وأحاديثه الخاصة، فإذا تحدث في اللغة خلته أبا علي القالي في اطلاعه واستحضاره وفهمه وأمانته»⁽²⁾، فهو لا يتعامل مع المصطلح تعاملًا معجميًا بما اصطلح له من معانٍ معجمية بقدر ما يلف تراكيبه بشحن من طاقات في الأفعال، ومن أروع ما يشهد للإبراهيمي بلوغه الذروة في الوعي بضرورات البيان «أنه جعل بين الكلمة والثقافة نسبا، فكان ينتقيها ويجعل منها مشهدا من مشاهد الانتماء، وهو في ذلك يتبع المنهج القرآني الذي يجعل من الكلمة الطيبة كشجرة طيبة»⁽³⁾.

إن الحديث عن الإبراهيمي بهذه الصورة مهم؛ لأنه يمنح للمتلقى صورة أولية شاملة للرؤية المعرفية عند الإبراهيمي، كما أنه يوفر له المعايير العلمية والفكرية واللغوية التي تكشف له فيما بعد عن براعة الرجل وعبقريته؛ «والحق أن الرجل رزق بيانا ساحرا، وتأنقا في العبارة يذكركنا بأدباء العربية في أزهى عصورها»⁽⁴⁾.

(1) عبد الملك مرتاض، محمد البشير الإبراهيمي، أمير البيان، (موقع إلكتروني).

(2) محمد إبراهيم كنان، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 8.

(3) نفسه، ص 77.

(4) نفسه، ص 47.

فما طبيعة هذه اللغة الإبراهيمية التي استخدمها أداة تعبيرية في صياغة نثره الذي ملكه خاصية الانبهار عند الوقوف عنده؟ وكيف سخر مختلف الظواهر اللغوية لاحتواء أفكاره الإصلاحية؟ ولعل المباحث الموالية تجيبنا عن هذه الأسئلة.

3- طبيعة اللغة الإبراهيمية:

إن المتأمل في لغة الإبراهيمي يعجب لسعة محفوظه منها، وضخامة تحصيله من معاجمها، ولعل ذلك ما يفسر سيولة مداده؛ لأنه يمتلك قدرة فائقة على جعل اللغة مطاوعة لأفكاره بأسوب أقل ما يقال عنه أنه استحق الخلود، لأنه فرض نفسه عبر الزمن، فلغة الأربعينات هي نفسها في الخمسينات، وهي بنفس الفصاحة والحدثة في وقتنا هذا، بل ويمكن القول بأن لغته لا تماثل عبقرية البارع في عصرنا هذا؛ لأنها تحمل من البيان والسحر ما تقف أمامه العقول مندهشة، ولا غرابة في ذلك لأنه يستحق بجدارة أن يلقب بأمير البيان، وما يجب تأكيده هو تلك الثقافة الشمولية التي عرف بها، والتي انعكست على آثاره بمعجماتها المختلفة والتي تجلّى تأثيرها واضحا في فكره الأدبي وفي صياغة فنونه النثرية المتنوعة.

إن الإبراهيمي عالم مصلح قبل أن يكون أديبا متفرغا للأدب، فهو يصوغ أفكاره الإصلاحية بأسلوب أدبي راق، فيه من السحر والبيان ما يذهل العقول ويجعلها تنجذب لأفكاره الإصلاحية؛ لأن لغته مؤثرة ينصاع لها العقل بفضل عبقريته في تطويعها لحمل رؤاه الفكرية، إذ يفتح قاموسه المعجمي ثم يستدعي مفرداته بارتجال، فتنتال عليه انثيالا مرتبة في الصياغات التي

يستدعيها المقام، ويقتضيها الموقف الإصلاحى الذي يث فيه روحه الفكرية، فإذا بمفرداته تتماسك وتتآزر فيما بينها، وإذا بها تتوالد وتتناسل في صياغات منظمة، وتراكيب مرتبة، لتعكس فكرا عبقرى قل أن نجد مثله في وقتنا هذا.

وسنحاول فيما يلي الوقوف عند ظاهرة المفردات لدى الإبراهيمي لنستجلي طبيعتها، ونسترد قيمتها الفكرية وشموليتها المعنوية، محاولين الإجابة على الأسئلة الآتية: ماهي طبيعة المفردات عند الإبراهيمي؟ وكيف استطاع الإبراهيمي أن يطوعها لنقل أفكاره الإصلاحية؟ ثم كيف استجابت هي بفضل عبقرية اللغة لهذا التطويع؟

4- ظاهرة المفردات عند الإبراهيمي:

إن أول ما تقوم عليه اللغة هو الألفاظ أو الكلمات أو المفردات؛ ولذلك خصها العلماء والنقاد باهتمام كبير منذ القدم، فتحدثوا عن مختلف المعاني التي تحملها، ودرسوا حروفها وتبينوا خفتها وثقلها، وأخضعوها لمقاييس الإبداع الأدبي والفني والبلاغي، كما عرضوها لمقاييس فصاحة الكلمة على عدة مستويات منها الصوتي والدلالي والصرفي والنحوي، فبرزت عدة علوم مختصة في دراسة الكلمة كاللسانيات على أصولها وفروعها، وغيرها من العلوم التي تصب في خدمة شمولية اللغة وتهتم بالبنية اللفظية⁽¹⁾ التي تعكس الوجه الحضاري لمستعملها، وتكشف عن مدى رقيهم الفكري أو انحطاطهم العلمي؛ ولذلك وجب على دراس اللغة «أن لا يهمل الجزئيات اللغوية

(1) ينظر، رومان ياكسوه، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافى العربى د ط، د ت، ص83.

والنحوية التي تعين على فهم عقل الأديب»⁽¹⁾، وتكشف حقيقة النص؛ لأن «عملية الإبداع الأدبي تتمثل أقوى ما تتمثل في إبداع اللغة»⁽²⁾، وإبداع اللغة يتوقف على عدة معايير وأصول تركيبية للجزئيات اللغوية والنحوية.

واللغة عند القدامى مجرد أصوات يعبر بها كل فرد عن أغراضه، وهي بذلك أداة تواصل موادها الأولية هي الأصوات، وغايتها نقل المعاني من مرسل إلى متلقي⁽³⁾، فهي بذلك الركيزة الأساسية لكل مبدع يريد إيصال مشاعره وعواطفه وانفعالاته، ولذلك تصدرت كل الاهتمامات حتى عدها البعض «العمود الفقري الذي يقوم عليه العمل الإبداعي»⁽⁴⁾، وليس لأي أديب دونها من وسيلة لتحقيق هدفه الإبداعي، بل عليه أن يخوض في عالمها، ويغترف من ظواهرها ويتسلح بمعاييرها وقوانينها و « يظل يكتسب من هذا الرصيد ما بقي على قيد الحياة، لأن الاختراعات والمصطلحات والقدرة على تطويع اللغة للتعبير عن الحاجة الإبداعية كل ذلك يظل ينمو مع الأيام »⁽⁵⁾، ويظل يُكتسب مع التوسع في علوم اللغة والاحتكاك بمقاييسها ومعاييرها.

إن الكاتب المتمكن القدير هو الذي يمتلك معجماً خاصاً يميز شخصيته الفنية عن غيره؛ لأنه يحسن تطويع اللغة لإيصال أفكاره، وهذا التفوق إنما وارد من تفرد في اختيار الألفاظ التي تناسب مواقفه وتتماشى مع انفعالاته، وهذه الشمولية هي التي أعطت للألفاظ مكانة كبيرة وأهمية عظيمة في الأدب العربي بل العالمي ككل؛ ذلك أنها «الأداة الوحيدة التي تتاح للكاتب

(1) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964 ص 147.

(2) عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية والمعنوية) دار العودة، بيروت، لبنان ط3، 1981، ص 178.

(3) ينظر، أحمد العماري، نظام اللغة في الأدب الإصلاحي عند الإبراهيمي، نص الإنسانية: ألامها واستغاثتها " أنموذجاً "، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ع29، 2013، ص 252.

(4) محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 355.

(5) أبو قاسم سعد الله، أفكار جامعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص190-191.

ليستطيع بواسطة تركيبها وحسن رصفها نقل أفكاره وآرائه وبث عواطفه وأحاسيسه»⁽¹⁾ التي تحتلج في نفسه.

إن إقرار الإبراهيمي بالمنزلة الراقية للغة العربية حقيقة لا جدال فيها، فاللغة عنده ليست مجرد أداة للتواصل فقط وإنما هي «هويته وأصالته وشخصيته المشبعة بالعروبة، ودينه الإسلام»⁽²⁾، ولذلك بات الاهتمام بها واجبا مقدسا لا مفرّ منه، فهو يرى فيها المتسع والغنى والشمولية اللامتناهية، فيقول مفتخرا بقيمتها: «لو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم البيان وآداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته»⁽³⁾.

إن وعي الإبراهيمي بمنزلة اللغة في حياة الفرد جعلته يتفرد بنظام خاص ولغة متفردة ينسج بها نصوصه الإصلاحية، وينشر بها أفكاره ورؤاه بأسلوب أقل ما يقال عنه أنه نال درجة الخلود والرفعة، لأنه فرض نفسه عبر أزمنة مختلفة حملت ضمن طياتها تلك الثقافة الشمولية التي عُرف بها الإبراهيمي، والتي انعكست على آثاره بمعجماتها المختلفة، فتجلى تأثيرها واضحا في فكره الأدبي، وفي صياغة فنونه النثرية المتنوعة.

(1) محمد زرمان، المقال في أدب مصطفى صادق الرافعي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي الحديث، 1987، ص284.

(2) أمحمد العماري، نظام اللغة في الأدب الإصلاحي عند الإبراهيمي، نص "الإنسانية: آلامها واستغاثتها" أنموذجا، ص253.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص376.

إن الحديث عن كيفية اختيار الوحدات اللفظية هو جزء من الحديث عن أسلوب الإبراهيمي في انتقاء المفردات التي تنتظم في صياغات مختلفة، والتي تشكل في ارتباطها مجموع الوحدات اللفظية التي تعكس سمة الإبداع في كتاباته، وتكشف عن قدرته في تشكيل الصورة الفنية؛ ذلك أن «المفردات اللغوية في مفهوم الإبراهيمي ليست هدفا في ذاتها، وإنما هي وسيلة لأهداف أخرى منها التعبير عن الواقع، وعن المشاعر، ومنها التواصل الفكري بين المواطنين... وأهم من ذلك كله هو التأثير في المتلقين لتحريكهم نحو الأفعال»⁽¹⁾، وهو الهدف الأساسي الذي يسعى الإبراهيمي جاهدا لتحقيقه.

إن غرض الإبراهيمي في إبداعاته أن يبلِّغ أفكاره ويرسل رؤاه، التي آمن بها، وارتضاها لأمته فسعى لإيصالها بكل الأساليب، ولذلك بات لزاما عليه أن يسخر لغايته ألفاظا مألوفة لا تحير العقول وقوية تبعث في النفس رغبة ورهبة، فجند لأجل ذلك كل ما توافرت فيه شرائط الفصاحة، وأحسن مثال لهذا المظهر نختار أقرب الأمثلة إلى الواقع رسالة وجهها إلى الشعب بعنوان "نداء إلى الشعب" يقول في مطلعها: «إذا أصيبت الأمة بكارثة من كوارث الزمان ووجد فيها من يتألم لتلك الكارثة ويهتز فذلك دليل قوي على حيوية الأمة ورشدها ومقياس صحيح لتقدمها ونهوضها ... أما إذا كانت الأمة غافلة على واجبها نحو المجموع لا يفكر أفرادها إلا فيما

(1) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في فترة 1929-1939، ص 618.

حولهم ولا تنظر جماعتها إلا إلى محيطها الخاص، فهي أمة غبية ليست خليقة بالاحترام ولا جدية بما تصبوا إليه من حرية»⁽¹⁾.

فالألفاظ كما نرى ألفاظاً مألوفة سهلة واضحة لا يجد المتلقي عناء في فهمها، ولا صعوبة في استيعابها، وهي في الآن ذاته مشحونة بطاقة من المعاني التي لا يصل إليها إلا المتمعن في عبقريتها، فهي تحوي من الترغيب والترهيب ما يشرح النفس أو يرهبها، فكلمة الكارثة تجعل الذهن يتصور كل ما هو مرعب ومخيف، وعندما يربطها بالزمن فثمة وقفة أخرى للفكر عند مسلمات الدهر، ثم ترد مصطلحات "حيوية، الأمة، رشدنا، مقياس صحيح، تقدمها، نهوضها" كلها مفردات تبعث الأمل والرجاء، وتنير العقل والوجدان، وتشرح الصدر والقلب، وفي مقابل هذه المصطلحات نجد الألفاظ "أمة، غبية، خليقة" وهي تبعث الرعب في النفس والخوف في القلب، والاشمئزاز في الفكر، وهي الثنائية الضدية المتمثلة في الترغيب والترهيب، وهو الأسلوب الذي يعتمد إليه الإبراهيمي في جل رسالاته، رغبة منه في تحريك الهمم واستثارة الوعي المنشود، مستخدماً الألفاظ القوية الحساسة التي تتناسب مع مقاماتها وأغراضها، «فالمفردات التي تناسب الحديث عن حركة الجهاد والقتال لا تستعمل في مقامات الشفاعة أو التهاني، والكلمات الخاصة بتقرير المودّات والأمداح لا تستخدم في العزاء والرتاء، والألفاظ الصالحة للتشويق لا توظف في

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 187.

نثره في سياق الدعابات والتهكم»⁽¹⁾، فهو بذلك يوظف كل لفظة في مقامها المناسب وضمن غرضها المناسب.

والذي يلحظه قارئ النصوص النثرية للإبراهيمي بخصوص الألفاظ والمفردات هو استعماله بشكل كبير للألفاظ المترادفة، وهي الألفاظ التي تشترك في المعنى الواحد «والتي يجئ بها عمدا لتقوية أسلوبه ليزيد بها أفكاره ومعانيه وضوحا»⁽²⁾، وخير مثال ننير به هذا الموقف هو رسالته المشهورة "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽³⁾ والتي يقول في جزء منها «وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تنزل بها - من الملا الأعلى - الملائكة والروح؛ ونفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدق برهان الحق قولها الشارح بفعلها المشروح وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادر الوعود، لا صوادر الرعود، لا تخلف ولا تمين، وسحائب من الرحمت تنهل سواكبها، وكثائب من المبشرات تزجي مواكبها»⁽⁴⁾ وهي في معظمها مفردات مكملة لبعضها في المعنى.

ولعل السمة البارزة في أسلوب الإبراهيمي أنه حين يتحدث عن خصمه يركز على ألفاظ شديدة ملتهبة بالغیظ والضرر فيرميه بألفاظ حداد كأنها شفرات ماضية، أو شظايا محرقة، فأسلوبه عن الخضام يبدو حروف ألفاظه لهب، وجمله جمر، وعباراته الجارحة سياط من العذاب!⁽⁵⁾ لعل هذا الأسلوب الساخر كان ينتهجه الإبراهيمي بكثرة عند الحديث عن

(1) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ج2، ص 189.

(2) نفسه، ص 189.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 53.

(4) نفسه، ص 54-55.

(5) ينظر، عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ص 388.

الاستعمار الفرنسي؛ لأنه يمثل أكثر الأعداء تدميراً للحياة على الإطلاق، ولعل أروع مثال يجسد ذلك هو مقاله " الاستعمار والشيطان "(1)، فيقول بكل شجاعة: «الاستعمار كالشيطان ملعونا بكل لسان، مجوجا اسمه في كل سمع، ممقوتا في كل نفس، مستنكرا من كل عقل، ومن ذا يرضى عن الطاعون الذي يبقى من السبعين سبعة، أو على السل الذي يختزل الآجال من التسعين إلى تسعة؟» (2).

إنها جرأة كبيرة في اختيار هذه المواصفات؛ فمصطلح الشيطان هو أدم خلق الله -عز وجل- وأكثرها شرا على الإطلاق، ولفظ الطاعون من أفظع الأمراض فتكا بالجسم، والسل من أسوئها على الإطلاق، وهي مصطلحات مناسبة لتشبيه الاستعمار بها، فاستنفر النفوس منه واسترهب العقول من مكائده وسمومه.

إن الإبراهيمي حين يقف في موقف هجاء لا يبالي بصاحبه ولا يهاب ردود أفعاله، بل يطلق العنان لألفاظه فتتشال عليه معانيها اثيالاً، فانظر إليه حين يخاطب السعيد الزاهري في بعض خصوماته «...أتذكر يا شيخ ماضيك الصحافي، وصحائفك الماضية التي تحاوت في مثل عمر الزهر، وقد ماتت كلها بالهزال والسّم؟! ولو كانت مما ينفع الناس لمكثت في الأرض! فاحتفظ بما بقي من أعدادها، فسيحتاج الناس إلى ما فيها يوم ينكس الناس طباعهم، يطمس على بصائرهم، فيصبح السب والكذب عندهم من الفنون الجميلة، فيشيدون المعاهد العلمية

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص95.

(2) نفسه، ج5، ص95.

لتعلمها، ويقتبسون النماذج الرفيعة من تلك الجرائد... كن شريفا ولو لحظة من عمرك واعترف بهذه الحقيقة!»⁽¹⁾.

نحس هنا بقيمة العنف اللفظي الذي يستخدمه الإبراهيمي ضد هذا الصحفي الشقي الذي خلف ماض صحفي أسود، فرشقه الإبراهيمي بألفاظ كانت سهاما حارقة خاصة عندما يتعلق الأمر بالشرف والرجولة، حينها تسقط كل القيم، فينزع اللجام لتكشف الحقيقة أمام القارئ، وله أن يحكم على الموقف بميزان العقل، على الرغم من أن الإبراهيمي لا يترك ثغرة في أسلوبه يرتد فيها العقل ليفتح نافذة للشيطان لأنه يعي المواقف العقلية التي يصب فيها عصارة فكره خاصة عندما يتعلق الأمر بالحقائق الإنسانية والتاريخية، واستثارة العقول نحو القيم الإنسانية، ولذلك نجد الإبراهيمي يولي الكلمة عناية فائقة؛ لأنه يُفرغ فيها شحناته الشعورية، فهي «ذات شأن كبير في نسقها الأسلوبية وذات قيمة عاطفية وظلال ذاتية في نسقها التعبيري العام»⁽²⁾ الذي يجسد باتحاده الإبداع الأدبي، الذي يركز بشكل رئيسي على الكلمة، والتي تعد في أدب الإبراهيمي مثل «حبات العقد منها الماس والياقوت والزمرد، ومنها البراق والقاتم وقد يكون للحبة قيمة وأثر في ذاتها، ولكنها تزداد بهجة وروعة إذا انتظمت مع غيرها من حبات العقد، وقد تكون الحبات ضئيلة القيمة في ذاتها، ولكنها تكتسب الرونق والروعة حين ينالها الانسجام ويتنظمها حسن النسق»⁽³⁾.

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص377.

(2) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي، نضاله وأدبه، ص233.

(3) عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964، ص36.

وللكلمة قيمتها العالية عند الإبراهيمي؛ فهي جوهر اللغة وعمودها الفقري الذي يركز عليه لصب شحناته العاطفية وانفعالاته الشعورية عبر رسالته الإصلاحية؛ لأنها «تتضمن معني فكرية بحثا وآخر شخصيا عاطفيا، يفرغ فيه شحنة شعورية قوية»⁽¹⁾، فتتوالى الأفكار بتوالد الألفاظ وتتشكل الصورة الإصلاحية التي يرغب في إيصالها إلى القارئ بأسلوب فصيح يعكس شخصية موسوعية مشدودة إلى الماضي، ومستغرقة في الحاضر، وواعية لكل الأساليب التراثية والتي تركز على الموهبة والخبرة؛ لأن الأسلوب الفني من أكثر العناصر الفنية حاجة إلى الموهبة والخبرة، والتي تتوافر لدى الإبراهيمي إلى حد يجعله يعتبر اللغة موقفا وتطورا وتكييفا وارتباطا مستمدا من الحياة، ومن كل ما تقتضيه من مواقف ومشاعر، ولذلك نجده يستحضر الألفاظ فتدافع إليه كما تدافع الصور في ذهنه، وتتناسل مع بعضها في شكل مرادفات تتناسق لتجسيد الصورة المستهدفة، ومن ذلك قوله «... ولكن ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالهدى ودين الحق، هو مولد لكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق، فهو مولد للإصلاح والإصلاح والهداية والرحمة والخير والعدل والإحسان والأخوة والمحبة والرفق، وهو مولد لجميع الشرائع السمحة التي غيرت الكون وطهرت النفوس، وصححت الحدود»⁽²⁾.

إن كل هذه الألفاظ: «الهداية، الرحمة، الخير، العدل، الإحسان، الأخوة، المحبة، الرفق...» تشترك في معان واحدة تدور حول الخير والرحمة، فقد تناسلت من بعضها البعض وتوالدت من معان سامية وكلها تشترك في خدمة هدف واحد هو إبراز صورة الرسول صلى الله عليه وسلم

(1) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 233.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج 4، ص 142.

للإنسانية جمعاء، فهو « يجعل اللغة بهذا التوارد مفعمة بالدلالات الإنسانية، سخية بالدفقات الشعورية»⁽¹⁾، فتوالت مرتبة حسب ما يقتضيه المقام لتمر الصورة اللغوية في ذهن القارئ بشكل أحسن.

كما يركز الإبراهيمي أيضا على الثنائيات الضدية لإيصال صوره الذهنية مستغلا ما لها من إيقاع موسيقي يزيد في شمولية المعنى، ويوسع دائرة الصورة الفنية، ويكشف عن ترادف ذهني؛ لأن الأسلوب عند الإبراهيمي « ليس مجرد تعابير، ولكنه طريقة تفكير وتعبير معا، طريقة إحساس، وتخيل وتمثل»⁽²⁾.

ولعل خير مثال يجسد هذه الثنائيات الضدية في أسلوب الإبراهيمي هو قوله: « فالمرأة والرجل، والأمير والمأمور، والحر والعبد، والكبير والصغير، والأب والابن، والجار وجاره، والعربي والأعجمي، والأجير والمستأجر، والغني والفقير، كل أولئك أصبح راضيا بحاله، ناعما في عيشه، سعيدا في حياته آمننا من ظلم خليطه»⁽³⁾، وهذه الظاهرة تسمى كما هو معروف في البلاغة العربية في علم البديع بالطباق.

والدارس لألفاظ الإبراهيمي تصدمه دهشة في تنوعها، وإعجاب بثرائها وغناها ووفرة ظلالها، فيشعر بامتلاك الإبراهيمي لخاصية اللغة، وقدرته الخارقة في تطويعها لخدمة فكره، فينبهر لما يتولد عن ارتباطها من جمال في الفكر، وقوة في الحس، فانظر مثلا روعة تركيبه في الفقرة

(1) محمد زغبنة، المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 83.

(2) عيسى الناعور، أدب المهجر، دار المعارف، مصر، ط 3، 1997، ص 62.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج 4، ص 142.

التالية: « صبيب المزن أوله قطرة، وعصف الريح مبدؤه نسمة، وصادق الوحي أوله رؤيا منام، وبعد تلك البدايات ينهمر الماء، أو تعصف الأعاصير، أو يتواتر الوحي، فلا عجب إذا كان هذا الاجتماع فتحا لباب، وعنوانا لكتاب، ومقدمة لنتائج»⁽¹⁾ (*).

ويقول في موقف آخر: « أما الأدب ففن ثابت الأركان، باسق الأغصان، قوي الدعائم، محفوظ الأصول، ثري الريع والغلة، نهدف إليه لأنه في ذاته غاية سياسية، ونريده لأنه تراث روحي حصيب، وتخف إليه قلوبنا لأنه كنه الحياة، ولغة التعبير الصادق عن جمالها الباهر، وجلالها القاهر، لهذا نرَبُّ به أن يكون الوسيلة وهو الغاية، وخادما وهو المخدم، ونطمح أن نراه رفيقا للفلسفة يساعدها وتساعده»⁽²⁾.

إن المتأمل في هذه الألفاظ التي اختارها الإبراهيمي لحمل رؤيته الفكرية حول الأدب يتبين له منذ القراءة الأولى أنه يصطفي حروفه اصطفا فتستوي متناسقة متجاذبة «فكل الحروف عنده منحوتة من الفصاحة العالية حين يجاور بعضها بعضا، حتى لكأنها حبات العناقيد الصافية»⁽³⁾ التي تتناسق مع بعضها لتعطي صورة العنقود المشهية، فالحروف التي اجتمعت في عبارة "جمالها الباهر" تكاد تكون نفسها في العبارة الموالية "جلالها القاهر"، وبعبرية فريدة استطاعت أن ترسل في العبارة الأولى تأكيداً مميزاً يتجسد في قمة الجلال بصورة تكاد فيها الحروف أن تنطق عن مكنونها قبل أن تستوي الألفاظ كاملة مرتبة في مقامها الصحيح، وهذه ميزة في أدب الإبراهيمي

(1) المصدر السابق، ص 155.

(*) نموذج من الكلمة التي افتتح بها الإبراهيمي الاجتماع المنعقد يوم 8 ديسمبر بباريس بعنوان " تحية الجزائر"، المصدر نفسه، ص 155.

(2) نفسه، ج2، ص 348.

(3) عبد الحفيظ بورديم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص 75.

بحيث تأتي حروفه «نسيجا من البهاء يبلغ بها الذروة في الإبداع الذي لم يُقدّر إلا لقلة من الأدباء والمترسلين قديما وحديثا»⁽¹⁾.

إن من يتتبع سلطان الكلمات عند الإبراهيمي تلفته خاصية الدقة في ألفاظه، بحيث أنه يعين لكل كلمة مكانها المناسب في الموقف المناسب دون أن يحدث خللا في المعايير والقوانين اللغوية بحيث أننا إذا أردنا - في كثير من المواقف - أن نستبدل كلمة مكان أخرى لوجدناها عاجزة أن تؤدي ما أراده لها الإبراهيمي من معان، فالكلمات قد تتشابه في الدلالة على المعنى، ولكنها لا تستوي في الإفصاح عنه، والأمثلة على ذلك كثيرة، يقول مثلا متحدثا عن الشباب الجزائري: «أتمنله برا بالبدواة التي أخرجت من أجداده أبطالا، مزورا عن الحضارة التي رمته بقشورها فأرخت أعصابه، وأثنت شمائله، وخشت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يذهب القفص من الأسد في بأس وصوله»⁽²⁾، فإذا حاولنا أن نستبدل كلمة البدواة بكلمة "البيئة" على سبيل المثال، فإن المعنى لا يحتل بالقدر الذي ينحط في مضمونه وفي قيمه وفي شموليته؛ لأن البدواة هي مسرح الشعر العربي كله، فالنبي صلى الله عليه وسلم نشأ في بادية بني سعد، والأمير عبد القادر فاخر الفرنسيين بفضلها، وما من عيب فيها إلا المروءة والإقدام والبدر⁽³⁾، فكانت هذه الكلمة مثالا لما يدور بين الفصحاء في عصر من العصور، أما كلمة البيئة فهي تفتقد إلى ما تحمله البدواة من قيم ومثل ورجولة، ثم أننا إذا أردنا أن نستبدل كلمة الأسد بأي حيوان آخر فإن السياق سيتغير مهما كانت طبيعة الحيوان المختار، لأن الأسد

(1) المرجع السابق، ص76.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 509.

(3) ينظر، عبد الحفيظ بودريم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، ص75.

هو سيد الحيوانات، وارتباطه بالرجولة أمر يزيد في قيمتها على عكس أي حيوان آخر، والأمثلة على هذه الدقة في اختيار الألفاظ كثيرة وعديدة، وإنما أردنا فقط أن نبرز هذه السمة في لغة الإبراهيمي؛ لأنه استطاع أن يضيفي روحه على لغته فإذا بها تكتسب بعدا متطورا أبعد ما يكون عن اللغة القاموسية المباشرة، لغة الانطلاق العفوي التي اتحد فيها اللفظ بالشعور اتحاد الجسد بالروح.

وقد بلغ الإبراهيمي تلك الغاية التي تشرف الأدب العربي بأسلوبه القوي الأصيل، وبألفاظه الدقيقة المحكمة في تجانسها وتراكيبها «كقطع الغيار الأصلية التي إن نرعت بعضها من محرك لم يعمل، وإن عوضتها بسواها فيه - من قطع أخرى أجنبية عنه - لم تتخذ مواضعها التي وضعت لها، ولم تستقر في مستقرها الذي هيئ لها بمقدار معلوم، فلا تصنع أيضا لهذا المحرك شيئا!»⁽¹⁾.

والنماذج لهذه السمة غزيرة غزارة فكره السخي، ومتنوعة تنوع معجمه اللغوي، حتى أننا نقف أحيانا عند بعض الفقرات التي تجسد جميع الخصائص الفنية التي ترتبط بالوحدة اللغوية بمختلف حقولها الدلالية وأنظمتها التركيبية، فقد تمكن الإبراهيمي من بث روحه الحسية في ألفاظه القاموسية فأخرجها من عتبتها المعجمية ومنحها بعدا فكريا يتناسق مع الموضوع الذي تركزت فيه الجملة.

ولنقف عند هذا الأمر بوضوح ونأمل بعض الكلمات التي وردت في آثاره وتجاوزت عتبتها القاموسية إلى أبعاد أخرى أرادها لها الإبراهيمي بفضل قدرته على ابتكار المعاني، فاستجابت له

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، (1931-1954) ص337.

بفضل عبقرية اللغة، فانظر مثلاً قوله: «أيها الإخوان الزملاء، لا يفهم الناس من نادي القلم أنه متحف للأقلام يضم أنواعها وأشكالها وتطورات جواهرها على الزمن من القصب إلى الذهب، وإنما يفهمون - على الأقل - أنه شيء غير ذلك، فما هو هذا الشيء؟ لقد أحسنتم وهديتم إلى الطبيب من العمل حيث لم تقيدوه بمكان، فرفعتم بذلك أوهاما منها أنه ناد كالنوادي، وجئتم بكمال يظنه الناس نقصا، وهو أنه فكرة محلها القلوب الواعية، ومظهرها الهمم الساعية، وبقي أن يعرف الناس آثارها الظاهرة»⁽¹⁾، إنه يريد أن يجعل القارئ يتجاوز المعنى المباشر للقلم ككونه وسيلة للكتابة بقدر ما يرغب في إعطائه بعدا آخر أكثر تحضراً وأوسع شمولية، ويتضح ذلك أكثر حين قال: «إن في العراق جفافاً لا تحييه إلا غيوث المداد من الأقلام الراشدة»⁽²⁾.

ولاشك أن الأقلام في هذا الموضع قد حملها الإبراهيمي بعدا آخر تجاوز معناها الحقيقي المباشر والذي يتمثل في تلك الوسيلة التي تستعمل للكتابة والدليل على ذلك أنه وصفها بالراشدة، وهي الصفة التي تتعلق بالإنسان مما يوحي بتشبيه حذف أحد طرفيه على سبيل الاستعارة المكنية، وهي الظاهرة التي لا نهدف إلى دراستها في هذا الموقف بقدر ما نود أن نبرز تلك الروح الحيوية التي ييئها الإبراهيمي في ألفاظه فتتقلب إلى محسوس مفعم بالحياة بعد أن كانت جمادا لا قوة لها، وهذا الأسلوب يكثر بقوة في أدب الإبراهيمي؛ لأنه يسعى دائما إلى بث الحياة في النفوس، «وما حرصه على انتقاء الكلمات إلا دليل على معرفة بالغة بأن النفوس

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص207.

(2) نفسه، ج4، ص207.

والأذهان لا تصفو إلا إذا صفت الكلمات من الشوائب»⁽¹⁾، وهو يدرك تمام الإدراك بأن لكل كلمة ميزاتها الخاص، وتركيبها المميز الذي يؤهلها لحمل معنى من المعاني يقول: «إن الفارق بين لفظي العرب والغرب نقطة، وفيها كل السر، وفيها كل الشر»⁽²⁾، إنه يريد أن يلفت نظر القارئ إلى هذه النقطة السوداء التي ميزت كلمة العرب عن الغرب فَبَرَأَتْ منها الكلمة الأولى وبذلك تَبَرَأَتْ من الشر الذي يستتر خلفها، وربما حازت على الكلمة المضادة للشر وهي الخير، في حين كانت هذه النقطة مصدر شر كبير حينما وضعت على حرف العين، وكلمة الشر هنا كلمة تشمئز منها النفوس، وحين جاورت كلمة الغرب فإن مجال شموليتها لكل ما ينفرُّ النفس من منطلق ما تحمله كلمة الغرب من معاني الاستعمار وما يصاحبها من كل ما هو سيء ومنفرد ومشمئز.

إن انتقاء الإبراهيمي للحروف وبراعته في خلق الانسجام بين كلماته لتأتي مرتبة منتظمة «تستمد ظلالها وخطوط ألوانها من تناسقها وتوازنها وبخاصة حين نتأمل التوزيع الموسيقي، والأضواء النفسية»⁽³⁾ التي يضيفها على مصطلحاته «ولعل ما يتفوق فيه الإبراهيمي هو قدرته على توظيف المفردات توظيفاً موسيقياً، مع حسن الربط بينها، وبين المعاني، والسمو بالأسلوب»⁽⁴⁾ إلى مرتبة البيان الساحر، غير أنه لم يكن يصطنع المحسنات الثقيلة التي تفسد المعاني إلا حين كتب بعض الأحاديث حول "سجع الكهان"⁽⁵⁾ و«التي لم تخل من بعض هذه

(1) عبد الحفيظ بورديم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ج2، ص 76.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 602.

(3) محمد زغينة، المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 80.

(4) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 332.

(5) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 595.

المظاهر الناشئة التي تجعل الكلام كالجلباب المرقع، أو الثوب الممزق الذي يحاول صاحبه تزيينه بالترقيع»⁽¹⁾، فيظهر عيبه بمجرد النظر إليه، ويحس الناظر أن هناك تكلفا وتصنعا؛ لأن ذلك يصاحبه أحيانا ابتداء لفظ ووضعه في غير مكانه المناسب، فيصبح الحديث أصواتا موسيقية بلا معان، غير أن هذه السمة نادرة في آثاره إلا ما ورد عفو الخاطر؛ لأن حرصه على الزخرفة في بعض الأحيان جاء عفو الخاطر ودون إفراط.

والمتمعن في ألفاظ الإبراهيمي من حيث التنوع والتوسع يجدها تصب في مجالات مختلفة، تحمل في معظمها الطابع الإصلاحي باعتباره الهدف المسطر في إبداعه الفكري، ولا يخلو قاموسه اللغوي من الألفاظ الدينية المستقاة من التراث الإنساني على اعتبار ثقافته الدينية الواسعة، ومن أمثلة ذلك أنه تحدث عن العيد في مقال بعنوان من "من وحي العيد"⁽²⁾ فتعامل مع هذا اللفظ تعاملًا واسعًا، وبث فيه روحًا متحولة تارة إلى الفرح وتارة إلى الحزن والنكد، وهي ميزة مستترة خلف معاني بعض المفردات التي يوظفها الإبراهيمي، ويلونها بألوان متعاكسة متضادة ليشكل صدمة للقارئ الذي تنشرح صدره للفظ العيد بكل ما تحمل من فرح وسعادة ثم يندهش حين يقرأ قوله: «إنك يوم كالأيام، من عام كالأعوام، ولدت كما ولدت هي بين أبوين - الشمس والأرض - لم ينزع بك دونها عرق مختلف عنها، ولم تتميز - لولا الدين والعرف - بشيء منها فأنت مثلها غاد على قدر، رائح على قدر، ومنا لا منك الصفو والكدر»⁽³⁾، وهنا يدفع القارئ إلى سؤال حتمي حول هذا المعنى الغريب الذي لفه الإبراهيمي لكلمة العيد، فتراه يسترسل في

(1) المصدر السابق، ص 81.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص480.

(3) نفسه، ج3، ص 480.

القراءة باحثاً عن سبب هذا الإلزام المفتعل فإذا به يجد: «والحقيقة هي أنني ما زلت كلما أصلي عيداً من أعيادنا الدينية أو القومية، أظلتني معه سحابة من الحزن لحال قومي، وما هم عليه من التخاذل والانحلال والبعد عن الصالحات، والقرب من الموبقات»⁽¹⁾، فتتضح بذلك الرؤية للقارئ ويفهم السبب الذي جعل الإبراهيمي يستل من العيد معانيه الموحية بالخير والفرح، وينفث فيه روحه الحزينة المتحسرة على حال الأمة، فلا يجد للعيد صلة من صلاة الهموم: «وأني له أن يشعر بمثل تلك المعاني وقد صارت منسوخة نسخ تعطيل»⁽²⁾ بفعل قدرته اللغوية والإيحائية التي تجعل من الكلمة لعبة في فكره يديرها بالشكل الذي يريد، ويشحنها بالمعنى الذي يليق بالقلب الجديد ضمن شمولية الإبداع.

كان عالم المفردات عند الإبراهيمي عالماً فسيحاً واسعاً لا حدود له، متشعباً تشعب اللغة في حقولها الدلالية، وحقولها المعرفية، فقد أعطى الإبراهيمي للغة الضاد خاصية متفردة من العلو والأهمية جعلته يتمثل قوانينها ويحسن سكبها إلى درجة عالية عكست موسوعية شخصيته التي ثقفت أدب القرآن وعرفت بيانه ووعت أسرارها، وتوغلت في علم الحديث واستوعبت أفكاره ومعانيه، فخاض في علوم كثيرة عديدة لا يمكن عدها، ولا غرابة أن يتوسع بحره اللغوي فيشمل جل العلوم دون إطناب، فهو - بحق - رجل ذو بلاغة فصيحة، يحسن استغلال قاموسه اللغوي فتتضح ألفاظه بالقيم وتقطر «بالموسيقى، والمعنى والذاكرة والبساطة والزخرفة والصورة والفكرة

(1) المصدر السابق، ج3، ص 481.

(2) عبد الحفيظ بودريم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص76.

والقوة والدرامية والتركيز الغنائي والعبارة الصريحة والكنائية واللون والضوء والقوة»⁽¹⁾، فاستطاع أن يتحدى النماذج العربية العالية، وأن يترك بصماته عليها بما استحدثه فيها من معانٍ وقيم.

5- التراكيب:

ملك الإبراهيمي ناصية اللغة، فلانت له ألفاظها وتراكيبها من كثرة ما اغترف من شسالات الإسلاميين الأصيل، وما انتهل من أسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما استزاد من أمهات الكتب ومصادرها وعلومها في مختلف المجالات، فجاء أسلوبه مميزاً بالخفة والقوة والرصانة، جزلاً «جزالة الألفاظ وقوتها، وتناسق العبارات وتجانسها وتألفها، وكرم المعاني وعلوها وتألقها، وأصالة اللغة وفخامتها»⁽²⁾.

ولا شك أن «اللغة المتميزة هي غاية ومبتغى الأديب المبدع في كل عصر، ففيها تظهر المزية، وبها يتأتى التميز والخصوصية، وعليها تنعكس البراعة في الصنعة»⁽³⁾؛ وهي السمة التي يكتسي بها أسلوب الإبراهيمي، وتتجمل بها لغته، انطلاقاً من تجاوز الكلمات إلى بعضها البعض وصولاً إلى صورة واضحة متجلية الدلالة.

ورغم قيمة الكلمة في العملية الإبداعية إلا أنها لا تكتسب جلالها الإيحائية إلا حين تتجاوز مع بعضها البعض في عبارات وتراكيب خاصة، وفق معايير وقوانين لغوية محددة تبرز وظيفتها، ثم تفتح لها المجال لتبوح بمكنوناتها وفق السياق الذي قيلت فيه، وهو ما يؤكد عبد

(1) نور الدين السد، القطبية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب، ص 91.

(2) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 100.

(3) حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، دط، 1996، ص 707.

القاهر الجرجاني في قوله: «أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد»⁽¹⁾.

غير أن ضم الكلمات إلى بعضها البعض ليس مقياسا يجعلنا نقف أمام كلام سليم؛ لأن الهدف الأساسي لهذا الضم إنما هو الوصول إلى المعنى، فهو يعتبر من «أهم الجوانب في دراسة الاتصال اللغوي»⁽²⁾ الذي يتم بين المرسل والمتلقي، والذي يسعى فيه هذا الأخير إلى إدراك مقاصد المرسل بالتنقيب عن المعنى الذي ينبع من التركيب اللغوي الذي يصنعه المرسل.

وقد تصادف المرسل عقبات تحول دون نجاح مشروع الاتصال، وهذه العقبات إما أن ترد عمدا، وإما عن غفلة، «فأما العمد، فإن اللغة قد تكون وسيلة إلى إخفاء المقاصد الحقيقية لدى المرسل وتضليل المتلقي ... أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالإلغاز والتعمية مثلا»⁽³⁾، وأما الغفلة فقد يأتي خفاء المعنى بسبب جهل المرسل للقواعد النحوية أو العرفية، التي تجعل الكلام إما سليما صحيحا واضحا، وبالتالي فالمجال مفتوح أمام المتلقي ليخوض في معانيه دون عقبات، وإما فاسدا متحولا بسبب بعض التراكيب التي تعثره من اللبس الذي له أسبابه المتعددة والمتعلقة إما بعيب في المرسل أو المتلقي، ونهدف من كل ذلك إلى تبيان أن الصحة هي أساس جودة الكلام وجوهره الخفي الذي ينطلق به نحو فضاء الإبداع، ونخص بالدراسة أمير البيان محمد البشير الإبراهيمي.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية، ص 362-363.

(2) تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، ج 2، ط 1، 2006، ص 295.

(3) نفسه، ص 295.

ولا نسهب إذا قلنا بأن جمل الإبراهيمي وتراكيبه مسيطرة للنحو العربي على أصوله وعروقه، ولا نسرف إذا قلنا أننا يمكن اعتبارها مصدرا لاستنتاج قواعد جديدة لم تخصصها الدراسات النحوية من قبل، إذ بمجرد أن تقرأ آثاره «يخيل إليك أنك أمام عبد الحميد كاتب أو ابن المقفع في تقسيمه المنطقي للعبارة، والترادف الصوتي، أو الجاحظ في إسهابه وتكراره وإتيانه بالأضداد، أو بديع الزمان وابن العميد في سجعه وجناسه وطباقه وتشبيهاته وإيراده للأمثال والاقتراس والتضمين من التراث»⁽¹⁾، فالملمح الواسع للغة جعله عالما في أصولها وقوانينها حتى أنه «يخيل إليك إذا تحدث أنك أمام حكيم من حكماء العرب وخطيب من خطبائهم»⁽²⁾.

وقبل الولوج في استحضار نماذج تطبيقية لاستنتاج مضامينها، واستقراء تراكيبها، واستبيان براعة الإبراهيمي في الربط بين الطرفين، يجدر بنا أن نقف وقفة نحيط بها للثام عن مصطلح "التراكيب" بصورة مختصرة حتى يتسنى لنا استخراج أهم سماتها المشكلة للنص الإبراهيمي، ومصطلح تراكيب - جمع تركيب syntax - يعد «ذلك الجانب من النحو الذي يصف القواعد التي يتم بواسطتها تأليف الجمل من الوحدات الدالة»⁽³⁾، ويتداخل مصطلح التركيب مع مصطلح النحو الذي لم يكن يختص بدراسة المركب من الكلام وحده، بل كان يتناول جميع مظاهر الكلام من مفردات وتراكيب⁽⁴⁾.

(1) محمد مهناوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص224-225.

(2) شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، الثقافة ع1، 190/87.

(3) Jean Dubois et autres, Dictionnaire du linguistiques p480.

(4) ينظر، كمال قادري، التركيب النحوي في الآيات المدنية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، ص5.

وعلم التراكيب يدرس العلاقات الناشئة بين المفردات المتجاورة ونظامها التألفي المعتمد على التناسق المنطقي، كما يدرس «العلاقات الناشئة بشكل مطرد بين الصيغ الصرفية أو الكلمات التي تظهر في تراكيب اللغة، كما يعني دراسة نظام وتأليف الكلمات في جمل»⁽¹⁾، وعليه فإن اهتمامنا بالتراكيب الإبراهيمية سيكون منصبا حول الجملة بأنواعها المتوافرة في الآثار الإبراهيمية العاكسة لأهم الأبعاد الدلالية والإيحائية باعتبارها وليدة التراكيب، ولذلك سنقف أولا عند بناء الجملة في آثاره.

أ- بناء الجملة عند الإبراهيمي:

نسعى في هذا البحث إلى استنطاق بعض الجمل الإبراهيمية التي وردت في آثاره، والتي كلفها بحمل رؤاه وأفكاره، وشحنها بعواطفه وانفعالاته، وضمنها روحه الإصلاحية المتشعبة بالتراث الإسلامي الأصيل، وبالفكر العربي العريق باعتبارها البنية التعبيرية التي تضم قاموسه اللغوي بكل ألفاظه وتراكيبه وصوره، «فالجملة هي الحد الأدنى من الكلمات (منطوقة أو مكتوبة) التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه»⁽²⁾، وقد ترد هذه الجملة فعلية عندما يكون المسند فعلا، تقدم أو تأخر، أو دل على التجديد، يقول المخزومي معرفا للجملة: «هي ما كان المسند فيها فعلا سواء أتقدم المسند إليه أو تأخر، تغيرت صورته فيها أم لم تتغير»⁽³⁾، كما قد ترد اسمية، عندما يتصدرها اسم، غير أننا لا نهدف في هذا المقام إلى توضيح أنواع الجملة بقدر ما

(1) زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1988، ص232.

(2) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، 32/1.

(3) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1964، ص47.

نسعى إلى إبراز مفهومها العام؛ فهي «الغاية الأولى لكل نظام نحوي، إذ يعمل على كشف تركيبها، ويحاول أن يربط بين الصورة الصوتية المنطوقة لها والمعنى المراد منها من خلال النظام العقلي الذي يحكمها»⁽¹⁾.

إن النص النثري في آثار الإبراهيمي يركز في الأساس على الجملة بمختلف أنواعها، وسنحاول أن نستنتج هذه الجمل ونكشف عن بنيتها التركيبية، وأبعادها الدلالية من خلال جملة من النماذج التطبيقية.

ب- الجمل الفعلية:

لقد أتقن الإبراهيمي اللغة العربية إلى حد الإبداع، فأجاد اختيار الألفاظ، وأتقن ربطها ببعضها البعض، وسعى إلى إبراز أفكاره بأسلوب يجمع بين العناية بالفكرة واللفظة معا⁽²⁾، فكان متمكنا من كل القواعد النحوية والصرفية المرتبطة بالجملة «وكان تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء، وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رزق بيانا ساحرا، وتأنقا في العبارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها»^{(3)(*)}.

وإذا تصفحنا الجمل الفعلية التي وردت في آثار الإبراهيمي وجدناها أقل كمًا من الجمل الاسمية، لأن معظم تراكيبها اللغوية «تأتي في جمل قصيرة خفيفة، وعبارات مسبوكة متلائمة

(1) محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، القاهرة، 1983، ص9.

(2) ينظر، محمد مهداوي، الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص235.

(3) مقدمة آثار محمد البشير الإبراهيمي، الآثار.

(*) قول للشيوخ محمد الغزالي (رحمه الله) في وصف تحكم الإبراهيمي من ناصية اللسان العربي.

الفواصل والإيقاع، مع ميل إلى الإطناب في أغلب الأحيان، إذ ينزع إلى الوصف المستفيض، وتقصي الدقائق في شرح المعنى المطلوب، وذلك ما يدفع به إلى تكرار المعطوفات والمترادفات والنعوت»⁽¹⁾.

ونختار من روائعه النثرية هذه الفقرة المميزة التي حرص فيها على صب مفرداته في قوالب أسلوبية مرتبة ومنتظمة وجميلة، يقول: «يعز على هذا القلم الذي لا يكاد يحف مداده، ولا تنقطع من القريحة أمداده، أن تصاب تونس العزيزة في مناط أملها بل في نياط قلبها فلا يسمع لها جرس، ولا يصير بكلمة على طرس.

يعز على هذا القلم الذي براه البارئ لينضح العسل المصفى للمقسطين، وينظف الصاب والحنظل للقاسطين، ويرسل الحمم مدرارا على المستعمرين أن تنتهي مظلمة المنصف إلى غايتها الشنعاء من موت الغربية، ومهانة الأسر، وتعنت الاستعمار، فلا يشنها غارة شعواء على التعنت والمتعنتين»⁽²⁾.

إنه نموذج يصور فيه الإبراهيمي تراكيب متناسقة في أسلوب مميز بلغة واضحة غنية بمختلف التشكيلات المركبة للبناء اللغوي، والتي تعزيتها الأفعال بزخاء لتصور الأحداث، وتحرك النص حركة متناسقة تدفع بالقارئ إلى أغوار النص، ومن ثم الانفتاح على المعاني التي يحملها، وانظر الجمال الفني في التركيب الأول «يعز على هذا القلم الذي لا يكاد يحف مداده» حين ينسب الفعل يعز إلى القلم رغم أن المراد بالقلم هو الإبراهيمي نفسه، فكان بإمكانه أن يقول: "يعز

(1) محمد مهناوي، الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص236.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص636.

علي" غير أنه أصر على التستر خلف القلم، ومع كون هذا الأخير جمادا إلا أن الفعل لم يفقد دوره الوظيفي بالقدر الذي رفع من أسلوب النص، وجسد براعة الإبراهيمي في تسخير اللغة لخدمته، ثم يكرر هذه الجملة مرتين ليؤكد إصراره على تصوير ما يختلج في نفسه من تحسر وألم لما آلت إليه تونس العزيزة جراء المستعمر الغاشم.

وتبرز أهمية الجمل الفعلية في إبراز الأحداث وتنوعها داخل النص، فانظر مثلاً قوله: «رمضان نفحة إلهية تهب على العالم الأرضي في كل عام قمري مرة، وصفحة سماوية تتجلى على أهل هذه الأرض فتجلو لهم من صفات الله عطفه وبره، ومن لطائف الإسلام حكمته وسره، فلينظر المسلمون أين حظهم من تلك النفحة؟ وأين مكانهم من تلك الصفحة؟»⁽¹⁾.

تصور هذه القطعة مقدار حرص الإبراهيمي على التألق في الشكل بأسلوب ساحر جميل، ونلاحظ في الوقت ذاته كيف أتقن اختيار الأفعال التي تليق بالقيم العظمى التي يتحدث عنها، فهو يدرك كيف يجعل لفظه مطاوعاً لمعناه، فيعرف متى يركب الجمل الاسمية، ومتى يشكل الجمل الفعلية، ثم يتقن المزج بينهما في مواطن التعبير الصالحة لكل منهما في تمسك منه بما لاحظته من أسلوب القرآن، وبما اكتسبه من اطلاعه الواسع لما استخدمه الفحول في تعابيرهم وتراكيبهم، فقد ابتدأ حديثه باسم "رمضان" الذي يملك دلالة الثبات والاستقرار، ثم يخصه بجملة إخبارية لا تخطر على بال القارئ حين جعله "نفحة إلهية" تبعث في النفس جلاله ورهبة، وبدون فواصل يربط بين هذه الجمل الاسمية جملة أخرى فعلية "تهب على العالم الأرضي في كل عام قمري مرة"، فيدفع

(1) المصدر السابق، ج2، ص540.

القارئ من الثبات إلى الحركة دفعة قوية قوة فعل الهبوب، وخاصة فيما يسنده إلى خالق الكون فيزيده قوة وحركة وتجددًا، ويحافظ الإبراهيمي على هذه الرتبة التركيبية فيجدها بنفس جديد في التشكيل الموالي حيث يقول: "صفحة سماوية تتجلى على أهل هذه الأرض"، فيدعو بذلك القارئ مرة أخرى إلى أخذ نفس وسكون في لفظ "صفحة" ثم يدفعه دفعة أخرى مع الفعل "تتجلى" وكأنه يحمله بذلك إلى طابق آخر على نفس الدرج داخل النص ليريه عظمة رمضان كلما ارتفع في بناية النص، وفي آخر كلامه يوجه له سؤالاً بمثابة صفحة ليحمله يستفيق من غفلته: "فلينظر المسلمون أين حظهم من تلك النفحة؟ وأين مكانهم من تلك الصفحة؟"، وكأنه به يرغب في إيقاظ القارئ من غفلته حين يترك له السؤال مفتوحاً ليراجع نفسه، ويقمّم مكانته.

إنه أسلوب يعمل على إيقاع واحد متناسق يحرك الفكر تارة، ويدعوه إلى الثبات تارة أخرى، ثم يوقفه عند نقطة استفهام مصيرية، وهي ميزة اعتادها الإبراهيمي في كتاباته.

والمتمثل في السياقات الإبراهيمية التي تخص الجمل الفعلية يجد بأنها ترد في معظمها جملاً قصيرة في مبنائها، غير أنها قوية في معناها مشدودة إلى تراكيب مكملة، فهو لا يأتي بالتراكيب كاملة، ولكنه في الغالب يصوغها مركبة من جزئين: «الأول نعه البنية التركيبية الأصلية والثاني البنية التركيبية الفرعية، بحيث أن هذه الأخيرة قد تُبعث من سابقتها، بين أن يكون بينها فاصل أسلوبى، وهذا هو سر انسياب البنية الفرعية، فكأنه لم يحدث أي تغيير جوهري»⁽¹⁾.

(1) عبد الحميد بوزينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص68.

فأما البنية التركيبية الأصلية فهي تمثل البناء الأول للجملة، والذي يعد بمثابة الأصول المنتظمة كما وردت في السياق، وأما الفرعية، فهي الفروع التي تكمل الأصول، ولكي نوضح ذلك أكثر نستدل بالقطعة التالية: «والحج في نظر الاستعمار أداة مهيأة لاستعباد الأمم الإسلامية التي أوقعها القدر في قبضته، يصرفهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه، كما تشاء أهواؤه لا كما يشاء الإسلام وتقتضيه حكمته»⁽¹⁾، فأما البنية التركيبية الأصلية، فهي تتمثل في البناء الأول للجملة وهو " والحج في نظر الاستعمار أداة مهيأة لاستعباد الأمم الإسلامية"، وأما الفرعية فهي تتمثل في ما يكملها من متممات، والتي تتمثل في قوله: "التي أوقعها القدر في قبضته"، وتزداد هذه الأساليب قوة وجمالاً كلما زينها الإبراهيمي بما يضيف عليها من الإيقاع والحس والجمال من بديع الكلام ومحسناته.

وتستمر اللغة الإبراهيمية في التصوير الحركي للجميل الفعلية المتجددة في الكثير من المقامات التي يقتضيها التجدد والحركة والدفع نحو الأمام، خاصة فيما يتعلق بقضايا الاستعمار، والتي يهدف من خلالها إلى نشر الوعي وإيقاظ الهمم، فانظر قوله: «الشعب الجزائري طلب حقوقه المشروعة بالوسائل السياسية، وقدم من البراهين على استحقاقه لذلك ما فيه الكفاية والإقناع، فلما أعياه الأمر لجأ إلى الموت، فشهر السلاح، وعقد العزم على التحرر والخلاص،

(1) الإبراهيمي، البصائر، ج2، ص57.

وحمل المستعمر الظالم على احترام حقوقه بهذه الوسيلة التي لم يبق له سواها، وهو ماضٍ في سبيل التحرير مهما كلفه ذلك»⁽¹⁾.

وهذه الجمل الفعلية تجسد مظهرًا من مظاهر الإصاغة في تركيب الجمل ضمن أسلوب الإبراهيمي، فالأسلوب الخطابي هنا أضفى على النص حركة تصاعدية مما عمق فكرة الكاتب، فربطها بتناسق تصاعدي في ذهن القارئ؛ لأنه جعل الأفعال (طلب، قدم، أعياء، لجأ، عقد،..) تتوالد وتتناسل من بعضها البعض تناسلاً منطقيًا؛ لأن طلب الحق يستوجب تقديم البراهين، واليأس والعياء يتطلب اللجوء والقوة وإشهار السلاح، وكل ذلك يحصل بعقد العزم على التحرر، ومن ثم المضي، وهذا ما يعرف «بأسلوب التدرج المنطقي، لأن الكاتب يخلص من فكرة إلى فكرة أخرى، كما تتولد النتيجة من السبب»⁽²⁾.

وهكذا تتوالد هذه الأفعال مع بعضها البعض، وتتناسق في جو منطقي يوحى بجمالية الأسلوب عند الإبراهيمي الذي نراه في الغالب ينتقل من فعل إلى مدلول فعل آخر يستلزم مدلول الفعل اللاحق في صورة منسجمة تسير في وتيرة الزمن الفعلي⁽³⁾ الذي سعى النحاة العرب إلى توضيحه، غير أنهم لم يتمكنوا من الإحاطة بكل الأزمنة الدقيقة للفعل، فتظل الأحكام على دقتها نسبية، ومع ذلك فقد استطاع الإبراهيمي أن يجسد في ذهن القارئ مضي هذه الأفعال، من خلال حشده، فغلب عليها الزمن الماضي والذي يدل على أن الشعب الجزائري قد بذل فيما

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص59.

(2) كمال عيد، فلسفة الأدب والفن، ص41.

(3) ينظر، سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخارجي، القاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ج1، ط2، 1983، ص15.

مضى محاولات كثيرة في استرجاع حقه المشروع، وطبعي أن يلجأ الإبراهيمي في هذا الموقف إلى الأفعال الماضية، لأنه يسرد أحداثاً مضت.

وعموماً فإن توظيف الإبراهيمي للجمل الفعلية يستمر بشكل واسع على مدار آثاره النثرية في أسلوب منتظم غني بمختلف القواعد النحوية والظواهر اللغوية في براعة تعكس عبقرية اللغة في تحريك الأحداث، وإخراجها من سكونها وجمودها إلى صور متحركة مفعمة بالحركة والحيوية والنشاط.

ج- الجمل الاسمية:

إن أول ما يتبادر إلى الذهن من مصطلح الجمل الاسمية هو ذلك الثبات والوقار والسكون الذي ينطبع في الذهن؛ لأنها في العادة ترتبط بالأسماء التي تتعلق بخاصية الجماد، والجملة الاسمية عند النحاة هي الجملة المؤلفة من المبتدأ والخبر، والمبتدأ هو المسند إليه الذي لم يسبقه عامل، والخبر هو ما أسند إليه المبتدأ، وهو الذي تتم به مع المبتدأ فائدة⁽¹⁾.

إن المتأمل في سياقات التعبير الإبراهيمية يحس بكثرة الجمل الاسمية التي ترد في شكل «جمل قصيرة خفيفة وعبارات مسبوكة متلائمة الفواصل والإيقاع»⁽²⁾، فهو شغوف بالوصف وتوضيح الفكرة، وتقصي الجزئيات والإكثار من المرادفات التي تتناسل من بعضها وتصب في قالب يتسع ليشمل معناها العام، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة نذكر منها قوله: «إن هذه الأمة - يا

(1) ينظر، مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية المكتبة العصرية، صدا، بيروت، ج2، ط4، 1997، ص254.

(2) مهداوي محمد، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص236.

أبنائي - هي أمتنا، وهي رأس مالنا شئنا أو أبينا، وهي عوننا على العلم وهي مددنا وملاذنا، وهي نصرتنا ومعاذنا، وهي مناط قوتنا، ومظهر أعمالنا»⁽¹⁾.

ويسعى الإبراهيمي من خلال كل هذه الجمل القصيرة إلى إعطاء صورة واضحة حول الأمة الإسلامية، وكأنه لا يكتفي بوصف واحد، بل يوسع مجال المعاني ليعطي صورة أوسع، فجاءت الجمل التالية قصيرة متناسقة تزيد في توسع المعنى كلما زادت في تجاوزها، ومن ذلك أيضا قوله: «لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية - زيادة على ذلك القدر المشترك - أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها، تدعوه وتعترف، وتبوء بها إليه فيما تقترف، وتؤدي بها حقوقه...»⁽²⁾، وهنا نلاحظ زخاء الإبراهيمي اللغوي، ومكانه من الانفتاح على أكثر من معنى للغة الأمة، وأن كل جملة اسمية تعكس وعي الإبراهيمي بقيمة هذه اللغة التي «تجمع من خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه في لغة الزنج أو لغة الصين»⁽³⁾.

إن الوحدات اللغوية التي ينسج بها الإبراهيمي نصوصه الثرية يختارها بعناية فائقة «تتجاوز عناية الصائغ وهو يختار الحجارة الكريمة ليرصع بها حليا»⁽⁴⁾، فهو يمتلك قاموسا لغويا هائلا، وقدرة خارقة على توظيفه بأسلوب زاخر؛ لأن «الكلمات التي لا ينتظمها تعبير، كلمات معجمية

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 270.

(2) نفسه، ج3، ص281.

(3) نفسه، ص281.

(4) أمحمد العماري، نظام اللغة في الأدب الإصلاحي عند الإبراهيمي، "نص الإنسانية: آلامها واستغاثتها" أنموذجا، مجلة الحكمة للنشر والتوزيع، ع29، 2013، ص 257.

ميتة، فإذا ما صاغ منها الأديب تعبيرا نفخ فيها حيوية وحرارة»⁽¹⁾، وقدرة الإبراهيمي على نفخ هذه القوة والحرارة فائقة النظير، انظر إلى قوله: «الشيطان حقيقة روحية، لا تدرك بالحواس، ولا تعرف بالحدود، ولا تقاس بالموازين البشرية، وإنما نعرفه بآثاره في أوليائه، ومن القابلية للشر، والاستجابة للمنكر والباطل، والتهور في الفسوق والعصيان، والمصارعة إلى المساخط، والعكوف على الضلال، وسرعة التلقي لوحي الشيطان وتليسه، والمحاذاة لله ورسوله فيما أمرا به، أو نهيا عنه»⁽²⁾.

لقد وجد الإبراهيمي في الجملة الاسمية ما أراد من توظيف يتلاءم مع البنية الأولية التي جسدها في فكره وأمر الكلمات بحمل رسالته إلى القارئ، ووصفه للشيطان في هذه الفقرة وصف يجسد بشاعته ونذالته كلما استرسل في ربط جملة الاسمية ببعضها البعض، فوسع بذلك من سخطه لهذا العدو الفاسق، وفتح للقارئ آفاقا واسعة لتخطي هذه العقبة في الحياة، ثم يزيد مجاله توسعا عندما يستشهد بالآية الكريمة: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (81) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (82)﴾⁽³⁾.

وانظر إليه في قطعة أخرى كيف يتفنن في وصف هذا العدو اللدود بجمل قصيرة في تركيبها، كبيرة في معانيها: «ولكن يبدو لنا أن الشيطان المكلف بالعمالة الوهرانية بليد القريحة، جامد

(1) أمحمد محمد الخوني، بلاغة الإمام علي، دار النهضة، مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1977، ص246.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص319.

(3) الآية 81-82، سورة ص.

الفكر، خامد الذوق، جاني الطبع، كثيف الحس، خشن المس، بدوي النزعة وحشي الغريزة، فكل ما يأمر به أوليائه وأتباعه فهو من جنس طبعه، سمج عث من الجمال والفن والذوق»⁽¹⁾.

ولعل استعمال الجمل الاسمية قد حقق أهداف الإبراهيمي في إعطاء الفكرة أبعادا دلالية أخرى، وفتح للقارئ آفاق التوسع في الإحاطة بالمعنى، وبخاصة عندما يؤكد بها بمختلف أدوات التأكيد والتثبيت: «إن الجزائر والشمال الإفريقي كله فلذة من كبدة الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبيرة، وبقية مما فتح عقبة والمهاجر وحسان، وإن هذا الوطن هو أحد أجنحتكم التي تطيرون بها إلى العلا»⁽²⁾.

فاختيار أداة النصب "إن" أضفى على النص بعدا عميقا، ما كان للجمل الاسمية أن تحققه لو وردت للدلالة على الإخبار وحده، كما وجه الدلالة لمصطلح العربية وخصصها، والأمثلة في ذلك غزيرة في نثر الإبراهيمي منها قوله: «ومع أننا نعلم أن الطرق منتشرة في العالم الإسلامي وأن آثارها فيه متشابهة، وأنها هي السبب الأقوى في كثير مما حل به الأرزاء والنكبات، وكثيرا ما كانت مفتاحا للاستعمار ممالكه، فإن حربنا موجهة أولا وبالذات إلى طريقة الشمال الإفريقي»⁽³⁾.

وخلاصة القول فإن الدارس لنثر الإبراهيمي يلحظ ميل الإبراهيمي إلى الجمل الاسمية بدءا من العناوين التي تندرج ضمنها مواضيع عديدة يركز الإبراهيمي من خلالها على الكثير من الجمل الاسمية، ولعل مبرر ذلك أنه يسعى إلى تخليد أفكاره وتصورات له لتبقى راسخة في الأذهان،

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص320.

(2) نفسه، ج4، ص156.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص174.

رسوخ الأسماء لمسمياتها، وخالدة خلودها في قواميس اللغة، وثابتة ثبوت شخصية صاحبها الرجل الهادئ الرزين، وهو ما يضيفي صفة خاصة على أسلوبه.

6- الخصائص الأسلوبية في آثار الإبراهيمي:

إن الدارس لآثار الإبراهيمي يلمس قوة أسلوبه وسحر بيانه، ويشعر بانسيابية اللغة وتدفقها عبر كتاباته بأسلوب متنوع بتنوع أغراضه ومختلف باختلاف القضايا التي صب فيها رؤاه؛ لأن «الأسلوب هو نظام فني مستقى من حصيلة عناصر تشكل العمل الفني»⁽¹⁾، فهو الطريقة التي يختارها الأديب ليركب ضمنها ما يدور في ذهنه من أفكار ضمن نظام لغوي محدد تحكمه قواعد وقوانين لغوية تجسد انفعالات الكاتب في صورة متناسقة منتظمة، وهو بذلك صياغة الأديب لمخزونه الثقافي على نحو مميز يعكس سماته وملامحه⁽²⁾، ويضيفي عليه من روحه فإذا به يكتسب بعداً آخر أبعد ما يكون عن اللغة القاموسية المباشرة، لغة الانطلاق العفوي الذي يتحد فيه اللفظ بالشعور اتحاد الروح بالجسد.

والأسلوب هو «طريقة المتكلم الخاصة في تكوين أفكاره واختيار ألفاظه، وتأليف كلامه وعرض حجمه وقضاياه والتعبير عما يريد نقله للسامعين في معان وأفكار تعبيراً ملائماً له وللسامعين»⁽³⁾، وتختلف هذه الطريقة من كاتب لآخر حسب تمكنه من اللغة وقوانينها؛ لأنها «مرتبطة بالتفكير والتصوير والتعبير»⁽⁴⁾، وبقدر ما تتوافر هذه العناصر في الأديب يمكن اعتبار

(1) كمال عبيد، فلسفة الأدب والفن، ص 41.

(2) ينظر، ركز نجيب محمود، فلسفة النقد، دار الشروق، بيروت، ط2، 1983.

(3) محمد الطاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ج1، دار المعارف، مصر، (ت.ت)، ص39.

(4) محمد يوسف نجم، فن المقالة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، ص123.

عمله إبداعاً؛ لأن «عملية الإبداع الأدبي تتمثل أقوى ما تتمثل في إبداع اللغة»⁽¹⁾، فاللغة هي العمود الفقري الذي يبنى عليه العمل الإبداعي، ومن خلالها يستطيع الأديب أن يثبت شخصيته وتميزه؛ فهي تعني الطريقة التي يتبعها هذا الشاعر أو ذاك بحيث لا تتحقق إلا من خلال الرؤيا والإحساس والانفعال، وهي الركائز التي نجد فكر إبراهيمي يقتر بها.

إن الدارس لأسلوب إبراهيمي يلحظ دقة ألفاظه، وجزالة عباراته وتناسقها وتآلفها، وواقعية لغته وارتباطها بالعقل والمنطق بللمسة شعورية تنبعث من إحساس عميق؛ لأن أسلوب إبراهيمي «ليس هو الألفاظ والتراكيب، وليس هو الأفكار والآراء... وإنما هو الأفكار والآراء والمشاعر والأحاسيس في ثوب من الألفاظ والتراكيب، لأن الألفاظ والتراكيب لا تعبر عن ذلك جميعاً، إلا من خلال تفاعلها مع جميع تلك العناصر في نسيج واحد هو ما نسميه بالأسلوب»⁽²⁾.

وسنحاول فيما يلي توضيح أهم الخصائص الأسلوبية التي ينطبع بها أسلوب إبراهيمي من منطلق أن «الأسلوبية تتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي يُحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية الجمالية»⁽³⁾، وهي السمة التي يزخر بها أدب إبراهيمي.

(1) عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية والمعنوية) دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1981

(2) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد البشير إبراهيمي، ص641.

(3) المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ص32.

أ. أسلوب السخرية:

تعد السخرية صورة من صور الأساليب الإبراهيمية في نثره، عالج بها قضايا متعددة كان لها أثرها البارز على الحياة العامة في الجزائر، لأن السخرية مرآة عاكسة لصدى الحياة بمختلف مجالاتها لأية أمة؛ ولذلك فهي «تعد مقياسا من مقاييس ذوق الأمة، وحسها الحضاري، ومعيارا من معاييرها في الحكم على الأشياء، والنظر إلى الأمور»⁽¹⁾، فقد بات من اليسير على الباحث أن يكشف بها نمط تفكير المجتمع، وطريقة أبنائه في معالجة قضاياها إنطلاقا من كونها وسيلة للتعبير والتصوير بأسلوب مضحك وممتع وطريف تنشرح له النفس⁽²⁾، وتأنس لحفته، فيتناولها الناس فيما بينهم «معلقين عليها بين المعارضة والتأييد إلا أن ذلك في نهاية الأمر لا يمنع من أن تعمل السخرية عملها في تجريح الشخص المستهدف بالسخرية وهذا هدف الكاتب في نهاية الأمر»⁽³⁾.

إن الساخر مبدع له قدرته الخارقة في تسخير اللغة لأهوائه النفسية وميولاته الشخصية، فهو «فنان يملك خيالا مرنا وعقلا راجحا ومشاعر محتدمة، وذكاء لمحا وروحا مرحة، وقدرة على الصياغة، وملكة لاختيار ما يحقق غرضه من الكتابة... بفضل هذه المعطيات يتناول المسخور

(1) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، جمعية التراث الجزائري ط1، 2011، ص28.

(2) ينظر، نفسه، ص28.

(3) عبد القادر رزق الطويل، المقالة في أدب العقاد، الدار المصرية اللبنانية ط1، 1987، ص310.

منه بالعبث والمداعبة والتفكه والتهكم والتندر»⁽¹⁾، ولذلك تختلف أساليب السخرية باختلاف الساخر نفسه، وباختلاف الجوانب التي تتناولها والتي تعد مجالا واسعا لا حدود له.

ويعتد أسلوب السخرية من أهم الظواهر اللغوية التي نلمسها في أسلوب الإبراهيمي، التي نوع فيها بحسب ما توافر له من دوافع وظروف، وبحسب ما تراءى له من تهكم وتفكه، إذ ليس هناك قوانين تضبط أنواع الأساليب الساخرة ولا أشكائها ولا قوالبها، وإنما هناك «خيال واسع يستخدم وسائل متعددة في سخره بحيث لا يمكن إحصاؤها أو عدها، وهي معرضة دائما لابتكار العقول المبتكرة، بحيث لا يمكن للبلاغي حصرها في اصطلاحات ضيقة فمثلها كحروف الهجاء في أي لغة من اللغات، يمكن للإنسان اشتقاق آلاف الألفاظ منها والتعبير بها عن آلاف الأحاسيس، فتكون طيعة في يده، يستخدمها كيف يشاء»⁽²⁾.

ونلمس في آثار الإبراهيمي أنواعا مختلفة من أساليب السخرية نتناول بالدراسة نماذج منها على سبيل المثال.

1. الأسلوب الاستفهامي:

من بين أساليب المعاني الاستفهامية التي وردت في كتابات الإبراهيمي قوله: «فأين نسبتنا من هؤلاء؟ وأين مساعينا من مساعيهم، وأين خطباؤنا؟ لم لا يحملون على الأمية حملة شعواء؟...؟ وأين شعراؤنا؟ لم لا يشاركون في حملة منظمة ويدعون إليها بقصائدهم المثيرة المحركة؟ وأين

(1) محمد ناصر بوحجام، السخرية في الأدب الجزائري الحديث (1925-1962)، جمعية التراث للنشر، القارة، الجزائر، ط1، 2004، ص273.

(2) نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيق للطباعة بالأزهر، ط1، 1979، ص47.

علماؤنا الذين برأهم الله من داء الأمية؟ لماذا لا يسعون تطيب غيهم منها؟ أم هم يريدون أن تبقى الأمة أمية ليقوا سادات ومشائخ؟⁽¹⁾.

إنه تساؤل متهم ساخر ساخط على ما يحيط بالإبراهيمي من وضع متعفن جراء الأنانية التي سادت المجتمع من طبقة لم يكن في الحسبان أن تحط من علوها الذي منحه الله - عز وجل - لها، وصفعة مؤلمة - في الوقت نفسه - لعلماء الأمة كي يلتفتوا إلى واقعها ويؤدوا واجبهم نحوها بدل من أن ييقوا وحدهم سادات ومشائخ.

إنها أسئلة متتالية أرسلها الإبراهيمي ليصور واقعا معيشا دُئست فيه القيم حتى أصبح العالم لا يأبه بأمية أمته، وطغت فيه الأنانية حتى ماتت الضمائر في نفوس الشعراء والعلماء في واقع نامت فيه الضمائر عن واجبها، ثم يطرح سؤالا آخر أكثر سخرية، فيقول: «وأي سلاح تحارب به هذه الأمة الصماء؟»⁽²⁾، وكأنه هنا يزيد من حدة سخريته حينما ينسب إلى الأمة صفة "صماء"، وهذا التصور اللاعقلي هو الذي يجعل من الكلام مضحكا؛ لأنه يشكل له صدمة لا منطقية، وهذا الخروج عن المنطق هو الذي يجعل المتلقي يضحك، ويجعل المسخور منه يغضب.

ومن هذا اللون التهكمي نلمس أيضا قوله: « يقول فريق من الناس ممن لم يرزق صوابا في الرأي ولا سدادا في التفكير، إن الجمعية فرقت كلمة الأمة وجلبت عليها الاضطراب والفتنة

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج1، ص 204.

(2) نفسه، ص 204.

والتشويش، في الكلمات من هذا القبيل لا تصدر إلا ممن لم يعرف موقعه من الأمة ولا موقع الأمة منه، وليت شعري متى كانت هذه الأمة مجتمعة حتى يقول قائل إن الجمعية فرقتها؟⁽¹⁾.

إن هذا الأسلوب الساخر يعكس فطنة الإبراهيمي، ويصور قوة بصيرته، وقدرة الرد والتصدي للأعداء، وكأنها دعوة منه إلى إعادة النظر في حال هذه الأمة التي يعتقد أعداؤه أن جمعيته فرقتها، فيردّ رداً حكيماً ساخراً بليغاً: «متى كانت هذه الأمة مجتمعة حتى يقول قائل إن الجمعية فرقتها؟»⁽²⁾، فالسخرية هنا صورة من صور التحدي والتصدي للمهجو، «وتعجيز له وإبداء لضعفه، وتصغير وتحقير لعقله وعمله، وإبراز لبلهه»⁽³⁾.

وأسلوب الاستفهام وسيلة يلجأ إليها الإبراهيمي لينفس بها ضغطاً نفسياً إزاء ما يراه من مناكر وفساد وظلم «فلا يجد في التعبير المباشر القدرة على تحقيق ذلك، بل يرى الجدوى في التعبير غير المباشر بواسطة السخرية»⁽⁴⁾، ليدعو المهجو لمراجعة الأمور من جهة، ويمتد القارئ من جهة أخرى.

ونشعر أحيانا بذلك الضغط النفسي الذي يكاد ينفجر به الإبراهيمي عندما نتمتع في أساليبه الساخرة، فهو يشرح للقارئ أولاً سبب هذا الضغط، ثم يختم شرحه بسؤال ساخر، ومن ذلك قوله: «أليس من الشائع في معتقدات العامة التي هي من وضع أيديكم أن من زار مقام

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 139.

(2) نفسه، ج2، ص 139.

(3) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، ص 32.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 117.

فلان ثلاث مرات كتبت له حجة؟ وهل في التعطيل لأركان الدين أشنع من هذا؟ لكم الويل أكل هذا في سبيل إشباع بطونكم».

إن السخرية في هذا اللون من الأساليب التي تحمل طابع الإحراج والخزي، لأن إشباع البطون عندما يتحول إلى هدف ينحط به الإنسان إلى مرتبة الحيوانية، وهو أسلوب يجعل المرء يستحي عندما يضرب في إنسانيته، وهنا تظهر براعة الإبراهيمي في معالجة القضايا بأسلوب ساخر قوي فيه من التحدي والتعجيز ما يجعل العقل يعود إلى صوابه، والمرء يعود إلى إنسانيته استحياء من نفسه وخجلا من محيطه .

إن هذا الأسلوب الاستفهامي وسيلة يعبر بها الإبراهيمي رفضا للواقع المتعفن الذي تعيشه أمته والذي ولد في نفسه ضغطا وقهرا فاندفع ليقاومه بأسلوب ساخر تنفيسا عن هذه المكبوتات.

وهناك أساليب بلاغية ساخرة نجدها في نثر الإبراهيمي نذكر منها الجناس الذي يمثل لونا من ألوان البديع الذي يعرف بجماليته الخاصة في الإبداع الأدبي لما يصدره من إيقاع جميل يحدثه التكرار الصوتي بين لفظتين «ويستغله الفنان أحيانا ليولد منه سخرية، تهزم المسخور منه، وتمتع المتلقي»⁽¹⁾.

وكذلك السجع باعتباره صفة طاغية في نثر الإبراهيمي، وملازمة له بحيث لا يكاد يخلو نص منها، فهو يستخدمها عمدا لإضفاء الإثارة في أسلوبه، ودون عمد لخدمة فكرة أو تنوير

(1) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، ص34.

قضية، غير أنها في الغالب لا تكاد تفارق نصاً أو قطعة من نثره، ونجدها بكثرة في عنوان "سجع الكهان"⁽¹⁾ حتى أنه صرح بنفسه بأنها تحمل الكثير من السخرية والتنكيت في قوله: «هذه فصول، إن لا تكون فيها روح الكاهن، ففيها من الكاهن سجعه، وإن لا يُخْلُ في جوانبها صدى الكهانة ففيها من ذلك الصدى رجعه، فيها الزمزمة المصفحة، والتعمية المبصر، وفيها التقريع والتبكي، وفيها السخرية والتنكيت»⁽²⁾.

ويبين الإبراهيمي سبب صناعة الكهان للسجع فيقول: «... اصطنع الكهان السجع ليرقوا السامع ويرعوه، وليسهل على الناس فيحفظوه ويعوه»⁽³⁾.

وقد استطاع الإبراهيمي أن يوظف هذا اللون من السخرية في العديد من المواقف ليزيل عن نفسه غما كان قد أصابه جراء ما رآه من تناقض في أفعال البشر، وما يحدث أمامه من أمور غريبة تتنافى مع العقل والمنطق، فلجأ إلى اللغة يسخرها ليغير بها واقعا هزيعاً عله يساعد الناس ليستفيقوا من غفلتهم، ومن ذلك قوله: «أيتها البحيرة، مالك في حيرة؟ لقد شهدت لبدر بن عمار بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوة؟... وحدثني الوالي يا (ولية)، أيهما كان عليك بلية، ذاك الذي وردك زائراً أم هذا الذي وردك خائراً؟ إنهما لا يستويان، ذاك أسد غاب، رزقه في الناب، وهذا حلف زُزار رزقه على الجار...»⁽⁴⁾.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 518.

(2) نفسه، ج3، ص 518.

(3) نفسه، ج3، ص 519.

(4) نفسه، ج3، ص 519.

وهناك نماذج أخرى تحوي هذا الأسلوب الساخر في نثر الإبراهيمي منها "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽¹⁾ و"تحية غائب كالآيب"⁽²⁾ وغيرها...

وهناك لون آخر من الأساليب البلاغية يستخدمه الإبراهيمي في أسلوبه الساخر، وهو الطباق، وهو قرن الشيء بضده ليتضح المعنى ويتسع صداه لدى القارئ، وبالتالي يتحقق الهدف الرئيسي للعملية الإبداعية، وهو التأثير في المتلقي، « وهذا الأسلوب يعتمد على الكاتب للكشف عن التناقض الحاصل في تصرفات بعض الناس وتقديم ذلك تقديمًا متهمًا ساخرًا مستهزئًا »⁽³⁾.

والطباق عند الإبراهيمي وسيلة يكشف بها عن متضادات الحياة وتناقضاتها، ويصور بها واقعًا مليئًا بالأضداد، ويعكس حياة شعب يسير إلى الوراء مع تقدم الزمن، فيبرز من خلاله الصفات السيئة للخصوم، ومن أمثلة ذلك نورد قوله: « أوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشر ناجمها، وهجم - لدفتك بالخير والعلم - هاجمها، وسجم على الوطن بالملح الأجاج ساجمها، إن هذه الأحزاب، كالميزاب، جمع الماء كدرا، وفرقه هدرًا، فلا الزلال جمع، ولا الأرض نفع »⁽⁴⁾.

إن أسلوب الطباق صورة منقولة لواقع مؤلم، يخاطب به الإبراهيمي فكر هؤلاء الذين أصيبوا بعقم عقلي لاغين لأنفسهم، متوكلين على غيرهم فلا خيرا جلبوا ولا ضرا دفعوا⁽⁵⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص65.

(2) نفسه، ج2، ص480.

(3) سعود محمود عبد الجابر، النص الأدبي والمتلقي، مجلة الفكر، عدد8، 1997، ص18.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص265.

(5) ينظر، محمد زغبنة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، د ط، 2005، ص76.

وأما عن المقابلة فهي الأكثر تصويراً من الطباق لمواقف السخرية، وتبرز في آثار الإبراهيمي بصورة واضحة خاصة «عندما يتعرض إلى صراع الحق - الذي تعمل من أجله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع الباطل الذي يغري به (شيوخ الطرق) عامة الناس»⁽¹⁾، فصور الإبراهيمي هذا الواقع بمقابلة الجمعية للطريقين معتمداً على ما يملكه هذا اللون البلاغي من تصوير للواقع وضده فرفع من قيمة الجمعية وخط من أعدائها بصورة رائعة حيث قال: «وفرق بيننا وبينهم أننا ندعو إلى السنة وهم يدعون إلى البدعة، ونحن ندعو إلى أخوة الإسلام... نشد بكتاب الله حباها ونجمع بسنة رسول الله أوصالها....»

وفرق آخر بيننا وبينهم، أننا نذكر الأمة بكتاب الله وما صح من سنة نبيه، وهم يذكرونها بالطبل والمزمار»⁽²⁾.

2. أسلوب التصوير الهزلي (الكاريكاتوري):

إن التصوير الكاريكاتوري هو التصوير الذي يفرغ فيه الكاتب جام سخطه على المسخور منه فيبرز عيوبه بشكل واضح كما يفعل الفنان الذي يرسم كاريكاتورا لشخص يمقته فيبرز نقاط الذم فيه، ويركز عليها لإبرازها بصور كبيرة وواضحة للتعميق من السخرية، «وهو أسلوب يعنى بالمبالغة في عرض أشكال المسخور منه وإشاراته وحركاته الظاهرة، وتصرفاته اللافتة للنظر، وفي

(1) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 663.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج 1، ص 48.

تشخيص ملامحه الخلقية والخلقية»⁽¹⁾ بصورة لافتة للانتباه «كأنما يريد أن ينمي الضعف أو العيب الذي يكمن فيه إلى أقصاه»⁽²⁾.

وقد ورد هذا النوع من السخرية في أسلوب الإبراهيمي ليصحح ما أفسدته الفطرة الإنسانية في غياب العقل الواعي؛ وكأنه شعر بأن الصرامة والجدية في بعض الأحيان لا تفني بغرضه الإصلاح، ولذلك لجأ إلى أسلوب التفكه والسخرية والضحك عله يصلح موقفاً أو يغير واقعا، فيضخم أحيانا الصغائر ليلفت النظر إليها، ثم يضفي عليها طابعا فكاهيا ليزيد من حدة السخرية، ويعكس بذلك حقيقة المهجور، وكأنه يقدم له صورته الحقيقية على مرآة كبيرة أمام الجميع ليحط من قيمته، ويصغر من شأنه تحقيرا لعقله الجامد الذي لا يرى المواقف بعين الصواب، ونختار لذلك النموذج الآتي: «دخل الجميع - لأول مرة في تاريخ حياتهم - جمعية، لا يدرون بمن تدار، ولا كيف تدار، وسمعوا لأول مرة كلمات (النظام والاشتراك والمواد واللجان) وسمعوا خطبا مأجورة، لا فرق عندهم بينها وبين عزائم الجاه، ثم تقاضتهم الجمعية بما لا عهد لهم به، ولا ألفتهم نفوسهم وهو المال، الاشتراك، التبرع، الإعانة، فقالوا في أنفسهم: إن هذا لشيء لم نخلق له، إن هذا لشيء يراد...»⁽³⁾.

إن هذا الخطاب رد على جمعية السنة التي أسست لتستفز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فصورهم الكاتب في صورهم الحقيقية التي تعكس أطماعهم وتحط من قيمهم، ولذلك قزمهم

(1) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، ص42.

(2) أبو عيسى فتحي محمد معوض، الفكاهة في الأدب العربي، دراسات (ووثائق)، الجزائر، 1970، دط، ص36. نقلا عن المرجع نفسه، ص42.

(3) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الكتاب، الجزائر، 1982، ص60.

عندما وضع الجملة الاعتراضية - لأول مرة في تاريخ حياتهم - وكأنه يريد أن يصور جهلهم وأميتهم منذ بداية الكلام، ثم إنه بهذا الأسلوب الساخر يضعهم في موقف حرج عندما يتساءل العاقل في نفسه: «كيف يعقل أن ينظم ناس إلى تنظيم لا يدرون لماذا حشدوا أنفسهم فيه، ولا يعرفون ماذا يقومون به؟ كيف يتصور قوم لا يفقهون معنى التبرع والإعانة والنظام»⁽¹⁾، فيدرك المسخور منه حينها أي موضع في الصورة هو مكانه، حينما يقرأ تعليقا كهذا.

3. أسلوب الاستهزاء والتهكم:

يحدث الاستهزاء والتهكم عادة بين أعداء الإصلاح فيما بينهم، ويتمثل في «مهاجمة كلامية عنيفة»⁽²⁾ بين عدوين يختلفان في فكرة، ويكون أحدهما أقرب إلى الصواب من الآخر، فتعلوا الأصوات بينهما إلى حد تكون فيه «السخرية لاذعة ماحقة لا تذر فسحة للخصم، مما يوحي بسوء خلق هؤلاء الناس الذين يتنازرون بالألقاب، ويعيرون بعضهم بعضا»⁽³⁾.

وهذا النوع من السخرية نجده في نثر الإبراهيمي خاصة عند مهاجمته لشيوخ الطريقة وأتباعهم، أو فيما كتبه في قضية فصل الدين عن الحكومة، ونموذج ذلك قوله: «ما زالت هذه الحكومة تمزج الصلف بالتصلب، والتردد بالتقلب، وتخلط الممانعة بالمدافعة، وتؤيد التحيل بالتخيل، وتكمل الإصرار على الباطل، بالعناد فيه... وما تزال تهيم في أودية من الضلال، وتتصادم عن الأصوات المتعالية من أصحاب الحق، بطلب الحق.

(1) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، ص 43.

(2) محمد زغينة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، ص 72.

(3) نفسه، ص 72.

ونحن لا نستغرب هذا ولا أكثر من هذا من حكومة تدين بالهوى لا بالعقل، وترتجل الأحكام حيث يجب التروي، وتتروى حيث يجب الارتجال، وتدور على قطب قلق من المكاتب المتعاكسة ورؤساء المكاتب المتشاكسين، وعلى تواطؤ في التباطؤ، يفني الآمال، ويضني الآملين ويضل الأعمال.

إن هذه الحالة هي شر ما تساس به الأمم وتدار به الحكومات، ويصاب به الحاكمون حين يصابون بالأزمات النفسية، والقلق الفكرية، والزعازع الحزبية، والأمراض العنصرية، وهو أسوأ ما تبثلى به الشعوب التي تدور عليها كواكب النحس، فتوزن بموازين البخس»⁽¹⁾.

إنه نموذج مما كتبه الإبراهيمي عن قضية فصل الدين عن الدولة، وقد سال حبره كثيرا حول هذه القضية، وعرض مواقف متعددة لها ساخطا من مواقف الحكومة الفرنسية، فكتب يصور مواقفها وحركاتها وتصوراتها بأسلوب ساخط عساه يجدي في «تليين مواقفها فتستمع إلى مطالب الوطنيين الأحرار، أو على الأقل يتمكن الكاتب أن ينفس بهذا الأسلوب عن نفسه المأزومة المكلمة»⁽²⁾.

والنموذج السابق يعكس أسلوب السخرية الناقمة على الوضع، والساعية لإفحام الخصم وإسكاته وتعجيزه؛ لأنها تحمل من العقل والمنطق والأدلة ما يجعل الخصم ساكتا باهتا متفحما خجلا من وضعه وتصرفاته وحركاته، وقد أعانت اللغة الكاتب على إيصال فكرته وتوضيحها

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص88.

(2) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات عن الأدب الجزائري الحديث، ص45.

واستطاع بفضل بيانه أن يحقق غرضه فيشعر القارئ بالاشمئزاز والسخط خاصة عند قوله: «وهو أسوأ ما يبتلى به الشعوب التي تدور عليها كواكب النحس، فتوزن بموازين البخس»⁽¹⁾.

وهنا قمة الشعور بالهزل بالنسبة للخصم، لأنه نعت "بالنحس" وهي صفة لا يتحلى بها سوى الشخص الديني.

ومن ذلك أيضا قوله: «ولو كانت "البصائر" تنزل للمطاعم الخبيثة، لباعت الجانب السلبي فقط - وهو السكوت - بالثمن الغالي، وصاحبنا التهامي* المغفل ... يعرف الأيدي التي تملك ذلك الثمن، فهل سكنت؟»

قولوا لهذا المغفل: إن "البصائر" وقفت موقف الدفاع عن إخوان أنت منهم ولكنك أبيت أن تكون منهم، فأخرج وحدك صاغرا، وإنها لا تريد منك جزاء ولا شكورا»⁽²⁾.

إن هذه السخرية نوع من إفحام العدو وإسكاته؛ لأن أسلوبها لاذع، وكلماتها قاسية، فكلمة "المغفل" دلالة على أن الشخص المهجو جسد بلا عقل، فهو يغفل عن أبسط الأمور، وأن عقلا لا فائدة منه في الجسم يعد في المنزلة الدونية التي تعادل الحيوان، ويزيده استصغارا عندما يقول له: «أخرج وحدك صاغرا»، إنها عبارة تعكس قمة الخزي والعار، شبيهة بالأسلوب

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص88.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص394.

(*) التهامي هو التهامي الجلاوي الذي وضعته فرنسا على عرش المغرب عندما نفت الملك محمد الخامس، المصدر نفسه، ص394.

القرآني عندما أخرج الله سبحانه وتعالى الشيطان بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (77) ﴿١﴾.

ويبقى الإبراهيمي الرجل الحكيم الذي يتحدى المواقف بعين المنطق وبميزان العقل، ورغم الكلام الجارح الذي نفس به عن روحه وسخر به من التهامي، إلا أنه ختم كلامه بقول لا ينجم إلا عن العقلاء الحكماء: «إننا لا نعلم منزلتك في النباهة، ودرجتك في الحزب، فإن كنت تستحق هذا العتاب فهو تأديب لك، وإن كنت لا تستحقه لحمول قدرك وخسوف بدرك، فأرجعه إلينا مشكوراً وارده علينا معذوراً»⁽²⁾، وكأن الإبراهيمي هنا يريد أن يبرئ نفسه أمام القارئ في هذا الموقف، وكأنها لحظة تصفية ضمير أراد بها الإبراهيمي إقناع القارئ أنه دائماً في خدمة الحق والخير والعدل، وأما قوله: «إن كنت تستحق هذا العتاب فهو تأديب لك» فهو كشف واضح عن السخرية، وهدفها هو تربية المهجو وإعادةه إلى جادة الصواب.

وهذا الأسلوب الساخر يعد ميزة الأدباء الحكماء أمثال الإبراهيمي، ممن يعرفون قيمة العقل في الحياة، ويدركون أهمية استخدامه استخداماً صحيحاً يعود على المجتمع عامة بالخير واليمن والفلاح، ويعود على العالم بأسره بالسعادة والنجاح؛ «لأن إشكاليات الحياة الإنسانية تتمثل في الوعي المعرفي (أي العقلي) للإنسان بالتناقضات التي ترتبط بها حياته الخاصة أو العامة في سياقها السلبي ممثلاً في ما هو كائن وقائم بالفعل، وفي سياقها الإيجابي ممثلاً في ما كان يجب أن

(1) سورة ص الآية 77.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص394.

يكون»⁽¹⁾، وهو الأمر الذي عالجَه الإبراهيمي في مختلف قضاياهِ النثرية بأسلوب فني ساحر استخدم فيه كل الطرق والأساليب البلاغية والفنية لتوضيح الفكرة وإيصال الرؤية وتطويع الأدب باللغة لخدمة الحياة، لأن «علاقة الأدب بالحياة وبالواقع، إنما هي علاقة تحول ومغايرة، أساسها الرؤية الفنية، الخاصة، التي رأى بها وقدم من خلالها المبدع هذا الواقع أو ذاك»⁽²⁾.

ب. أسلوب التعريض:

التعريض أسلوب ساخر يعتمد فيه الكاتب على ذكائه الكبير بإخفاء المعنى المباشر الذي يرغب في إيصاله إلى القارئ باللجوء إلى التعبير غير المباشر، وهو «الكلام الذي لا يقصد به المتكلم معناه، وإنما يقصد معنى آخر، وليس بين المعنيين تلازم»⁽³⁾، ولذلك فهذا النوع من السخرية يحتاج إلى كاتب ماهر يحسن اللعب بالمعاني، وقارئ حاذق يتقن فك الطلاسم، واختراق المباشر.

وقد استخدم الإبراهيمي هذا النوع من الأسلوب في نثره «وبخاصة حين أحس بحدوث أشياء غريبة، تتنافى مع العقل، وتتناقض مع الفطرة البشرية، مما سبب له أسى وحزنًا عميقين، لا يجد معهما إلا أن يتناول المتسبب فيهما بالتهكم والسخرية عن طريق التعريض، فيمرغ كبرياءه في التراب، ويبعث به وبشخصيته، فينفس عن نفسه»⁽⁴⁾، وعن القارئ في ذات الوقت.

(1) عثمان بدري، قسم ونماذج من الأدب العربي الحديث، دراسات تطبيقية، الجزائر، دط، 2001، ص142.

(2) نفسه، ص 143.

(3) حامد الهوال، السخرية في أدب المازني، الهيئة المغربية العامة للكتاب، 1982، ص44.

(4) محمد بن قاسم بوحجام، من أساليب السخرية في أدب الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، ع2، ص68.

وأكثر المواقف التي برز فيها هذا اللون من السخرية في نثر الإبراهيمي نجده فيما دججه في حديثه عن "فصل الدين عن الحكومة" و"فصل الحكومة عن الدين"، لأن العبث بأمر الدين يعد مجالا خصبا لهذا النوع من الأسلوب «خاصة حين يوجد من يسير في ركاب المستعمر، وينفذ خطته في ضرب الإسلام، أو حين يوجد من يسير ويدير شؤون الدين حسب هواه ومصالحه»⁽¹⁾، ومن هذه المواقف نذكر قوله مخاطبا فرنسا: «بدأت فتممي، وخصصت فعممي، وصدعت الحائط فرمي،...وجملت الوجه قليلا فدمي، وقالوا إن فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمى الدليل على أن المسلمين راضون، وشددي اللام من صفتهم، فإذا هم (مسلمون)، ففهمت الحكومة هذه الإشارة، وتلفتها كأنها بشارة، وكيف لا تستبشر والدستور برمته (لا مركزية)؟ من النوع الذي يسيل عليه لعابها، وبنود القضية الدينية منه إطلاق ليدها في التصرف المطلق»⁽²⁾.

إنه تعريض صارخ في هذا الموقف المخزي والمحزن والمضحك في الوقت نفسه، فقد انسابت الأفكار من قلم الإبراهيمي في شكل جمل مسجوعة متناسقة مؤثرة معبرة عما يدور في ذهنه من سخط للسياسة الفرنسية، وتصرفات الحكومة المتزايدة، ويظهر التعريض واضحا بالمسلمين حين شدد اللام على الكلمة فانقلبت إلى "مسلمين"، بمعنى ساكتين مستسلمين لهذه السياسة الفرنسية العوجاء، راضين بما يفعل بهم، وهو وضع يندى له الجبين؛ ولذلك لفحهم الكاتب بهذا التعريض حزنا على حالهم.

(1) محمد ناصر بوحجام، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، 1925-1962، جمعية التراث، الجزائر، 2004، ص282.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج1، ص92.

وختاما فإن السخرية سلاح معنوي قاتل، استخدمه الكاتب لفضح أعدائه، والخط من قيمتهم والاستنقاص من هيبته؛ وهو «تهكم معنوي شديد اللدغ، ثقیل الوطاء، عنيف الوقع»⁽¹⁾، ولقد أبدع الإبراهيمي في هذا المجال إبداعا عكس «سخرية الأديب المبدع الذي يعرف كيف يجعل من البساطة هولا، ومن الفكرة العادية غرابة وشذوذا»⁽²⁾.

وقد لجأ الإبراهيمي إلى هذا النوع من الأساليب معبرا عن خيبة أمله في مواقف كثيرة، وساخطا على واقع مؤلم، فعالج بذلك الكثير من القضايا والمسائل التي رأى فيها انحرافا عن الفطرة وتجاوزا للعقل والمنطق، وكم تمكن من هزم عدوه، وكسر شوكتة جاعلا القارئ يسخر معه فيضحك من الموقف تارة، ويحزن للوضع تارة أخرى بأسلوب أقل ما يقال عنه أنه ساحر.

ج. أسلوب التنويع والتفصيل:

إن القارئ لنثر الإبراهيمي يلمح منذ الوهلة الأولى تمكنه الدقيق من ناصية اللغة، بحيث تنكشف روعة البيان مع انسياب كل كلمة فصيحة تعكس ثقافة دسمة، وسعة ذاكرة، وقدرة خارقة على توليد المعاني، وتشكيل الصور في نسج فريد يكشف منهجا خطايا متفردا.

ويبرز هذا التفرد فيما ينتهجه الإبراهيمي من أساليب تركيبية تتماشى مع رؤاه الفكرية، وتتوافق مع تراكيبه اللغوية وصولا إلى المعاني الجوهرية التي تتوالد في ذهنه فتتناسل في حقل دلالي واسع يجسد شغف الإبراهيمي باللغة العربية الأصلية، وعبقريتها الساحرة، فينوع في أساليبه،

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 384.

(2) نفسه، ص 386.

ويُفصّل في معانيه تفصيلا ساحرا يجذب القارئ في شوق وفضول، ومن ذلك قوله في وصف الشيطان: «والشيطان حقيقة روحية لا تدرك بالحواس، ولا تعرف بالحدود، ولا تقاس بالموازن البشرية، وإنما تعرفه بآثاره في أوليائه، من القابلية للشر والفساد، والاستجابة للمنكر، والتهور في الفسوق والعصيان، والمصارعة إلى المساخط، والعكوف على الضلال وسرعة التلقي لوعي الشيطان وتلبيسه، والمحاذاة لله ورسوله فيما أمرا به ونهى عنه»⁽¹⁾.

لقد اعتمد الإبراهيمي في هذا النموذج أسلوبا مفصلا، تتلاحق فيه الجمل القصيرة تلاحقا متواصلا تكمل فيه كل جملة سابقتها في اتساق وانسجام، وانضمام، وحسن سبك، وكأنه يزيد في اتساع المعنى كلما زاد من هذه الجمل القصيرة المتوازنة التي «تصدر عفوا وتتلاحق أجزاءها تلاحقا رقيقا متسلسلا جاريا كالماء، وكأن بعضها يسلم بعضها، أو كأن بعضها ينبئ بعضها عن بعض»⁽²⁾.

وهو أسلوب رائع يوسع آفاق الفهم للقارئ، ويزيد في عمق المعاني فترسم الصورة واضحة، مما يدل على رغبة الإبراهيمي في إيصال الفكرة للقارئ، ومن ثم إكسابه لونا من التأثير سببه دقة التصوير وحسن التنويع واتضاح الرؤية.

ويستمر الإبراهيمي في وصف الشيطان بتوسيع دائرة المعاني التي تحتويه، فيقول: «ولكن يبدو لنا أن الشيطان المكلف بالعمالة الوهرانية بليد القريحة، جامد الفكر، خامد الذوق، جاني

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص319.

(2) عبد الكريم الياني، دراسات فنية في الأدب العربي، مطبعة الحياة، دمشق، سوريا، دط، 1972، ص44.

الطبع، كثيف الحس، خشن المس بدوي النزعة، وحشي الغريزة، فكل ما يأمر به أوليائه وأتباعه، فهو من جنس طبعه، سمج غث خال من الجمال والفن والذوق»⁽¹⁾.

إن هذا الوصف المتسع للشيطان عبر هذه الجمل القصيرة المترابطة يجعل القارئ يعود إلى طبيعة الموضوع، ويقف عند المعاني التي يكتسبها هذا الموصوف، فإذا به يتجاوز حدود المباشرة لينقلب الوصف إلى شيطان آخر من النوع البشري؛ لأن جل الجمل المترابطة تعكس صورة بشر شيطاني، وهذا الأسلوب يعكس مهارة الكاتب في تتبع جزئيات موضوعه، ويكشف في الوقت ذاته تمكنه من توسيع المعاني وقدرته على تركيب الصورة الذهنية التي تتمحور في ذهنه وترسم بين شفاهه، وتتجسد في كلماته، وتبرز في ذلك الاتصال المترابط والمتلاحق في تسلسل ترسلي قريب من السجع، ومن ذلك قوله: «مازال فيك يا - شرق - ملامح من الخير، ومخايل من الفضيلة، ومشابه من عبقرية العقول التي حلت مشكلات العلم ووسعت آفاق المعرفة، وحطت خطوط الفن الأولي، ومن الأرواح التي اتسمت بالطهر، واضطلعت بالأمانة، وعبرت البرزخ الإنساني إلى أفق الملائكة، فساوق نغمها بكلام الله زجلهم بتسبيحه، فاتسق منها إيقاع حدث به ركب الإنسانية إلى منابع الخير»⁽²⁾.

فهذا التفصيل في المعاني والتوسيع في الأفكار دليل على أن الإبراهيمي يهتم بالجزئيات، ويتتبع المعاني بكل دقة ليزيل كل الضبايات التي قد تعيق فهم القارئ لأفكاره، فالإبراهيمي في هذا النموذج يحاول وصف الشرق بأسلوب قوي فيه من التفصيل في جزئيات الموصوف ما يجعل

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص320.

(2) نفسه، ص487.

القارئ يتصور "الشرق" جنة واسعة، ومن ثم يتولد في نفسه شوق وحنين لرؤيته والوقوف على مواصفاته.

ومن ذلك أيضا قوله: «خلصت إلي من إخوان الصدق في الشرقيين، رسائل تحمل التهنة بالعيد بأسلوب جديد، غير ذلك الرثّ المبتذل الميت الذي عرفناه وألفناه، ولكنه يُشفي اليقظة ويصف الداء والدواء، ويجمع الأمل والعمل، ويسمو بالفكر والروح ويربط الكاتب والقارئ بشعور واحد، ويعدّي نفسا من نفس»⁽¹⁾.

إن هذا التفصيل يعكس ثقافة واسعة وكأن الإبراهيمي انبهر بالأسلوب الجديد للرسائل التي وصلته وأحس أن جملة واحدة لا تكفي لإيصال هذا الانبهار للقارئ فسخر موسوعته اللفظية لتوسيع هذا المعنى في ذهن القارئ وسخر تلك الجمل القصيرة المبنى، الكبيرة المعنى لتجسيد روعة الأسلوب الذي حملته الرسائل، منوعا في تراكيبه من الجمل القصيرة إلى الجمل الطويلة وما يلفها من محسنات وصور وبديع، وكل ذلك بغرض التصوير الفني والتفصيل في أفكاره، وهي خاصية عامة في نثره.

إن أسلوب التنويع والتفصيل سمة ملتصقة أشد الالتصاق بنثر الإبراهيمي تعكس ثقافته الواسعة وتجسد موسوعية قاموسه اللغوي وتصور سحر اللغة المناسبة بين تراكيبه التي تحمل من أنفاسه ما يبعث الانشراح في نفس القارئ.

(1) المصدر السابق ، ص488.

د. جمالية الفواتح والخواتم:

تشع كتابات الإبراهيمي بلغة متفردة تعكس تميزه في الإبداع، وتوحي بجلال العربية وهبتها عبر سائر آثاره، فتتجسد معانيه في علو وتألق بارزين منذ الوهلة القرائية الأولى؛ لأن القارئ يشعر بشوق يغمره في تتبع باقي الحديث، ذلك أن الإبراهيمي يحسن ابتداء كلامه بصورة ملفتة وجذابة.

ولعل إدراك الإبراهيمي لقيمة الفواتح النصية جعله يهتم بها على غرار بقية النقاد العرب الذين أولوا لها عناية كبيرة؛ لأن رؤيتهم الواعية لأهمية الفواتح جعلتهم يعتبرونها من القضايا المهمة في علم البلاغة، فقالوا: «من البلاغة حسن الابتداء»⁽¹⁾

ونقصد بحسن الابتداء أن يبدع الأديب في أول كلامه، فيحسن اختيار مفرداته بما يجلب المتلقي، ويثير الشوق في نفسه، فيندفع إلى استكمال ما ورد في باقي العمل الأدبي، وبالتالي يحيط برؤية الأديب، فيحتوي هدفه المسطر؛ لأن فاتحة الكلام هي أول ما يقرع أذن المستمع، وأول ما تقع عليه عين القارئ، وبالتالي يعد تألقها جذبا له أو إعراضا عنها بحسب براعة الكاتب في ذلك⁽²⁾.

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 136/2.

(2) نفسه، 136/2.

وكذلك تفتن الإبراهيمي إلى الخواتم باعتبارها آخر ما يتلقى القارئ، وبالتالي أحسن خواتمه في كل فنونه النثرية خاصة مقالاته وخطبه؛ لأنه يسعى إلى إيصال رؤاه للقارئ بكل السبل، وبالتالي فالخاتمة هي فرصة للكاتب تستوجب وقفة لغوية ماهرة ليخرج بها القارئ وهو مقتنع بكل ما ورد في المتن، لأن الخواتم مثل الفواتح في الحسن فهي آخر ما يقرع الأسماع، ولهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعية⁽¹⁾ التي ترسم وقعا موسيقيا جميلا في الأذن يجعل المتلقي يستأنس لها فترسخ في ذاكرته.

ونظرا لأهمية الفاتحة في العمل الأدبي فقد أولاها النقاد والدارسون اهتماما بالغاً فمنحوها أولوية العناية على باقي العناصر الأخرى المكونة للنص فباتت عنصرا تسلطيا، له سيطرته الفعلية التي تؤثر في القارئ منذ اللحظة القرائية الأولى، فهي المذاق الأول الذي يدخل ذهن القارئ فيفتح شهيته أو يسدها بحسب البراعة في الاستهلال، وهي وجه النص الذي يقبل عليه القارئ أو ينفر منه.

وعلاوة على كونها مغناطيسا لولبيا تدور حولها جل معاني العمل الأدبي، فإنها تشكل نقطة الإنطلاق الفعلي للقارئ والمبدع على حد سواء، فيتجلى المحتوى الفكري للنص من خلال ما تبوح به المقدمة من إichاءات تدخل القارئ في جو الإبداع الأدبي، وتكسبه فكرة عامة حول مضمونه الفكري، فتحدد بذلك أفق انتظاراته، وتسهل عليه الاستيعاب الفكري، وتمنحه الأبعاد المحتملة لما يلي من العمل الأدبي، لأنها الومضة الأولى التي تربط المبدع

(1) ينظر، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعارف، بيروت، ج1، ط2، 1972، ص 102.

بالمتلقي، وبالتالي المتلقي بالنص الأدبي⁽¹⁾، وهو ما يدفع بالقارئ إلى محتوى العمل الأدبي ويمكنه من الإطلاع على فحواه.

وتحتل المقدمة موقعا استراتيجيا هاما في العمل الأدبي لما تملكه من قدرة في جذب اهتمام المتلقي وإثارة شوقه، فهي عتبة مهمة «يراد بها تحقيق البراعة في أسلوب الابتداء لتقرع الآذان بنغمها، وتستثير العواطف والأذهان بجمالها ودقتها حتى يتوافر في النص عنصر الاهتمام والرغبة في السماع والقراءة»⁽²⁾، وبالتالي تحقيق الهدف المرجو في إيصال الرؤية، لأن وظيفتها تكمن في تقديم ما ينتفع به في الفهم، وما يستعان به على تبصرة القارئ وتوجيهه⁽³⁾، وبالتالي يتمكن من وضع العمل الأدبي في إطاره المعرفي، وسياقه التاريخي وكذا تحديد مضامينه⁽⁴⁾، فيختصر له المسافة في إحاطة أولية بأبعاد النص، وقد اعتبرها جنيت (Genette) من المكونات الأساسية للنص الموازي لأنها تدخل القارئ إلى أعماق النص وفضاءاته الرمزية المتشابكة⁽⁵⁾ التي تفك المقدمة رموزها بما تملكه من مفاتيح محملة بشحنات لنصوص لاحقة.

والمقدمة عند الإبراهيمي عبارة عن مفاتيح قرائية لها أبعادها وآفاقها الإضائية الجادة التي تسعى إلى إحداث ميزة الفعالية في العمل الفني، وبالتالي إكسابه صفة المرونة النصية التي توضع كعتبات في طريق القارئ يتعرف بها عن مناخ النص فيندمج في مضمونه، ولذلك

(1) ينظر، حسن إسماعيل، شعرية الاستعمال عند أبي نواس، دراسة في بنية التناسب النصي، دار العلوم، جامعة المينا، دت، ص 16.

(2) محمد منصوري، بلاغة الفواتح والخواتم النصية في أدب الإبراهيمي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي، غرداية، ع2، 2007، ص 162.

(3) ينظر عباس أرحيلة، مقدمة الكتاب في اللغة والاصطلاح، مجلة جذور، ج11، م ج6، 2002، ص 319.

(4) ينظر، نفسه، ص 320.

(5) ينظر، هند سعدوني، قراءة سيميائية مدينتي، منشورات النادي الأدبي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 169.

تشكل الفواتح الإبراهيمية حدثاً تأسيسياً يحفظ النص من التحول والتغير، ويكسبه مركزية الدلالة، فيكون موازياً لما ضمنه في عمله من أفكار، فيدفع المتلقي إلى رؤية مستقبلية لمتن النص الأدبي.

ويعمد الإبراهيمي إلى التنوع في أسلوب الاستفتاح عبر جل فنونه النثرية، فيستهل قواله بما يتلاءم مع طبيعة الموضوع، وبما يتناسب أيضاً مع الوظيفة المنوطة بفاتحته النصية والمتعلقة باستجلاب اهتمام القارئ بالدرجة الأولى، خاصة في معالجته للقضايا المصيرية التي يسعى قلمه لإصلاحها على جميع الأصعدة، فنجدته يستهل كلامه بالجميل الخبرية وهي الغالبة عادة كقوله: «جاء القرآن لهداية البشر وإسعادهم، والاهتداء به متوقف على فهمه فهما صحيحاً»⁽¹⁾، كما يستهل بالاستفهام كقوله: «هل الفلسفة في خدمة الأدب أو الأدب في خدمة الفلسفة»⁽²⁾، ويستهل كلامه بالقسم في قوله: «أقسم بالذيب الأطلس، والثعبان الأملس، إن المتجر بالأحرار لمفلس، وإن العاقل بين الأشرار لمبلس»⁽³⁾، وابتدأ حديثه بالنداء كقوله: «أيها الإخوان المسلمون، أيتها الأخوات المسلمات»⁽⁴⁾، وابتدأ أحياناً حديثه بالدعاء فيقول: «اللهم باسمك نبتدئ، وبهديك نتهدي، وبك يا معين، نسترشد ونستعين»⁽⁵⁾، وكذلك يستهل حديثه بالمثل كقوله: «عادت لعترها ليس»⁽⁶⁾، وأساليب

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج4، ص 226.

(2) نفسه، ج2، ص 348.

(3) نفسه، ج3، ص 532.

(4) نفسه، ج4، ص 262.

(5) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 15.

(6) نفسه، ج2، ص 379.

أخرى كثيرة تختلف باختلاف طبيعة الموضوع وتركيبته الإصلاحيّة، وباختلاف المهمة المنوطة بالمقدمة إن إغرائية أو إخبارية أو وظيفية⁽¹⁾...

وسنختار فيما يلي نموذجاً من قوالبه الفنية ونبين كيف استهل الإبراهيمي حديثه بما يتوافق مع أهدافه في توجيه المتلقي نحو البصمات الرئيسية لعمله الفني، وبالتالي يكشف له عن قصيدته في جذب المتلقي في جمال يستثير الخيال ويحرك العواطف

والنموذج المختار من مقال بعنوان "أثر الصوم في النفوس"⁽²⁾ يستهل الإبراهيمي حديثه بما يلي: «الإسلام دين تربية للملكات والفضائل والكمالات، وهو يعتبر التلميذ ملازماً في مدرسة الحياة، دائماً فيها، دائماً عليها، يتلقى فيها ما تقتضيه طبيعته من نقص وكمال، وما تقتضيه طبيعتها من خير وشر؛ ومن ثم فهو يأخذه أخذ المربي في مزيج من الرفق والعنف، بامتحانات دورية متكررة، لا يخرج من امتحان منها إلا ليدخل في امتحان؛ وفي هذه الامتحانات من الفوائد للمسلم ما لا يوجد غيره ولا معشاره في الامتحانات المدرسية المعرفية»⁽³⁾.

استفتح الكاتب نصه بجملة خبرية يهدف من خلالها إلى جلب اهتمام القارئ منذ الوهلة القرائية الأولى، فيدعوه إلى التعرف على الإسلام في التعامل مع المسلم في رواية شاملة بأسلوب مميز يسعى إلى تهيئة ذهنية للقارئ من أجل إدخاله في صلب الموضوع والمتمثل

(1) ينظر أندري دي لنجو، في إنشائية الفواتح النصية، ترجمة سعد بن إدريس، دورية نوافذ، ص 20.

(2) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 475.

(3) نفسه، ج3، ص 475.

أساساً في "أثر الصوم في النفوس"، ويلاحظ القارئ هنا أن الإبراهيمي انطلق انطلاقاً موفقة واعية عندما فتح الباب منطلقاً من الكل إلى الجزء، لأن حديثه عن الإسلام قبل الصوم يوحي بوعيه الشامل للقيمة الإنطوائية التي يحملها الإسلام والتي تستدعي فيما بعد أحد أركانه، وهو الصوم وكأنه في محاولة لإعداد أرضية صالحة من أجل إنبات أفكاره المتعلقة بالصوم ومن ثم غرسها في ذهن المتلقي، فيدفعه بذلك دفعة سحرية بأسلوب هادف إلى التخصيص فيما بعد لأحد أهم أركان الإسلام.

ثم إن هذه الفاتحة النصية استدعت ذهن القارئ بأسلوب متميز يوحي ببلاغة الكاتب وذلك من خلال اختياره للألفاظ المتألفة فيما بينها خاصة وأنها تصب في قالب واحد هو القالب الديني وما يخدمه من مفردات دينية كالخير والشر والامتحان والفضائل، والفوائد...

وفي الفاتحة إيماءة شمولية واسعة تنطوي على تخصيص منفرد يسوقه المقال في عرضه الموالي، وتتجسد هذه الشمولية في تلك الرؤية الموسعة للإسلام نحو الفرد قبل أن تكون في أحد أركانه نحو نفس الذات، وفي هذه الإيماءة يكمن سر نجاح هذه الفاتحة النصية لأن انتقال الإبراهيمي إلى توسيع الفكرة في متن مقاله يؤكد تلك الرابطة القوية التي وثقها الإبراهيمي في مقدمتها، ودفعها أسلوبه في مضمونه خاصة فيما يتعلق بالحديث عن تهذيب النفس في الصيام، فتتجسد بذلك رسالته الدينية الإصلاحية التي يجدها القارئ مبنية على أسس وثيقة، وهنا تبرز قيمة البراعة في الاستهلاك.

ويعي الإبراهيمي قيمة الربط بين الاستهلال وموضوع النص ليصل إلى نقطة مستهدفة تحتويها آخر عينة في النص وهي الخاتمة، وبعد ذلك ضمن أكبر الركائز المهمة للوصول إلى تحقيق الوحدة العضوية داخل العمل الأدبي، ولذلك يجعل مقدمته واصله قوية نحو متن الموضوع بخاصته عندما ينطلق من الكل نحو الجزء، فيتوسع في توضيح فكرة الصوم وأثره في النفس مستندا على ما بناه في المقدمة من رؤية شاملة حول فكرة اختبارات الإسلام، ثم يكشف في المتن عن صعوبة امتحان الصوم، ويقدم الأسباب المنطقية لذلك، حيث يقول: «غير أن الصوم أعسرهما امتحانا، لأنه مقاومة عنيفة لسلطان الشهوات الجسمية ومقاوم الشهوات في نفسه أو في غيره قل أن ينتصر»⁽¹⁾.

ويتوسع الإبراهيمي في فكرته مستندا على ما بناه في ذهن القارئ من خلال ما ورد في المقدمة، وهو أسلوب قوي يعمق الصلة بين المقدمة والمتن ويستوجب في الوقت نفسه خروجاً موفقاً يصل به إلى مبتغاه فينفقه في خاتمة ملهمة تستوعب رؤاه بلغة مكثفة وبأسلوب فاخر.

ونتوقف عند نموذج آخر مأخوذ من مقال مطلعته مأخوذ من مقال بعنوان "من مشاكلنا الاجتماعية الطلاق"⁽²⁾، يقول في مطلعته: «الطلاق حل عقدة، وبث حبال، وتمزيق شمل، وزيال خليط وانفضاض سامر، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب،

(1) الإبراهيمي، آثار الإمام، ج3، ص 476.
 (2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 328.

وجرت في آدابهم العاطفية مجرى الأمثال - من التياح وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعا بمعنى آخر، وهو ما يصاحبه من الحقد والبغض والتألم والتظلم»⁽¹⁾.

في هذه الوقفة الاستهلالية البليغة في مضمونها، الأنيقة في أسلوبها والمميزة في أفكارها يعالج الإبراهيمي أحد أكبر المشاكل الاجتماعية التي تقطع شمل المجتمع وتنغص راحته، وهي مشكلة الطلاق، فيستهل حديثه برؤية شاملة لهذا المرض الخبيث قصد استجلاب فكر القارئ للإحاطة بالمعنى الحقيقي لهذا المصطلح "الطلاق" في محاولة لوضع أسس صلبة ينطلق من خلالها إلى معالجة جذور وأسباب هذا المرض عبر متن المقال، فيكشف عن حقيقة هذه الظاهرة في جمل بسيطة مثقلة بمعاني عظيمة تحمل من الخطورة ما يستوجب الالتفات إليه والتمعن فيه، وقد سخر لأجل ذلك بيانه العربي المبين، فاهتدى به إلى أن «الطلاق حل عقدة، وبث حبال، وتمزيق شمل، وزيال خليط...» وكلها جمل لها وزنها الثقيل في الإحاطة بالمعنى الشامل للكلمة المستهدفة، وهذه ميزة الإبراهيمي في التعامل مع القضايا الإصلاحية التي تمس قلب المجتمع في استقراره وكيانه، فينطلق الإبراهيمي من هذه الإشارات الخطيرة ليحرك فكر المتلقي، ويستجلب اهتمامه، وينور بصيرته بالخطورة المصاحبة لهذه الكلمة لم توضع في إطارها السليم الذي شرعه الحق لها، فيسعى عبر متن المقال لتنوير الفكر بأكبر القضايا التي تنجر خلف جهل المسلم لحقائق دينه ولخفايا الحكم المنطوية تحت أحكامه.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 328.

ويتوسع الإبراهيمي في مفهوم الطلاق دون أن يشعر القارئ بأنه تملّص من المقدمة وانتقل إلى العرض، لأنه يربط حديثه بصورة ساحرة مستخدماً حرف "اللام" فينساق الذهن في واصله للكلام دون تقطع حيث يقول: «لهذه الملابس التي هي من مقتضيات الفطر السليمة، والطباع الدقيقة، شرعه الإسلام مقيداً بقيود فطرية حكيمة، وقیود شرعية قویمة، اعتمد في تنفيذها بعد فهم المراد منها على إيمان المؤمن، وشرع له من المخففات ما يهون وقعه كالتمتع ومد الأمل بالمراجعة، وتوسيع العصمة إلى الثلاث»⁽¹⁾.

ويستمر الإبراهيمي في توسيع الرؤية وتنوير الفكرة بأسلوب قوي قوة ألفاظه، وساحر سحر بيانه، فيغرس في النفس شوقاً، فينا في معرفة اللاحق من أقواله، ويدفعه دفعة قوية إلى التطلع والاسترسال في القراءة متشرباً مما أفاضه في حديثه عن أسباب الطلاق مستشهداً بأمثلة ونماذج استقاها من واقعه المعيش، وقد ركز في العديد من هذه الأمثلة حديثه حول سلبات هذا الطلاق مبيناً انعكاساته السلبية على الزوجة والأولاد وتفكك الأسر، وكذا الأمة بأكملها.

إن الإبراهيمي يتفنن في استفتاح قواله وكتابات فتنجدها منطقاً على الوظيفة الإغرائية التي تجلب اهتمام القارئ وتكشف عن دفعة سحرية إلى المضمون دون أن يعتمد على ذلك، ثم إن ينطلق في فواتحه انطلاقاً تحمل الموضوع في شكل إشارات، فتتولد الرغبة في قراءة النص لمعرفة تفاصيله⁽²⁾، وبالتالي يحقق نجاحاً في توقيع أفكاره في ذهن القارئ فيجسد بذلك رغبته القوية في التعبير نحو الأفضل في براعة فائقة بخاصة في اختتام كلامه، لأن الخاتمة عند الإبراهيمي هي

(1) المصدر السابق، ج2، ص 228.

(2) ينظر محمد منصور، بلاغة الفواتح والخواتم النصية في أدب الإبراهيمي، مجلة الواحات، ع2، ص 164.

النقطة الرئيسية التي تستوعب جل حديثه منذ انطلاقه وصولاً إلى خاتمة ينير بها طريق القارئ ويوقع عبرها أفكاره المستهدفة.

ويختتم الإبراهيمي مقاله المعالج لقضية الطلاق بحملة استفهامية تحمل الكثير من المعاني المستترة خلفها حيث يقول: «ليت شعري أيدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمتهم؟»⁽¹⁾، وهو أسلوب استفهامي ضارب في الصميم، ينطوي على حشد فكري ضخّم يمس القارئ في الأعماق، ويدعوه إلى مراجعة النفس وترتيب معطياتها بما يتوافق مع الفكر السديد، لأن الإبراهيمي رجل مصلح يسعى إلى تصويب فكر القارئ، ووضعه أمام الرؤى الثاقبة بمنظار الفكر الإسلامي الملتزم بالأخلاق الفاضلة، فيدعوه بذلك إلى نهضة ثقافية إصلاحية تنطلق من ذاته، وتتوسع رويداً رويداً نحو الأعم والأشمل من أجل استقرار هادف يمس جميع مجالات الحياة، بخاصة أنه ينطلق من واقعه المعيش.

وهذا الأسلوب الاستفهامي في الإختتام ميزة يختص بها فكر الإبراهيمي، فيتبعها في العديد من كتاباته؛ لأنه يشحنها بحشد فكري ضخّم يحمله بعصارة الموضوع ثم يرفه في آخر نقطة في حديثه ويترك القارئ يصارع ضميره، وهو في الحقيقة أسلوب بارع لا يتبعه سوى محنك في الفكر التاريخي، يساعده بيانه العربي الفصيح في صياغته، ومن ذلك أيضاً نجد ما دججه في مقال بعنوان "من مشاكلنا الاجتماعية الشباب والزواج"⁽²⁾، حيث عالج مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشباب وتعرض لأسبابها وموبقاتها ثم تحدث عن سلبياتها، وختم حديثه بأسلوب استفهامي هادف،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 331.

(2) نفسه، ج2، ص 323.

يقول: «إن الزوجة والأولاد حبال تربط الوطني بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإن الإعراض عن الزواج فرار من أعظم مسؤوليته في الحياة، ولمن تخدم الأوطان؟ إذا لم يكن ذلك لحماية من على ظهرها من أولاد وحرَم من في بطنها من رفات ورمم»⁽¹⁾.

وينوع إبراهيمي في الأساليب الإختامية، فيختتم أحيانا حديثه بالدعاء، وهو أسلوب له أبعاده النفسية للقارئ على جميع الأصعدة ومن ذلك قوله في خاتمة مقال بعنوان "دروس في الوعظ في رمضان" يقول: «وفقنا الله جميعا إلى ما يقربنا إليه، وجنبنا ما يبعدنا عنه، وأرانا ما يسرنا في هذه الأمة، ويسرنا لخدمة هذا الوطن وإخراجه من الظلمات إلى النور»⁽²⁾.

وتختلف أساليبه في الاختتام باختلاف الموضوع المعالج، وباختلاف رؤيته الإصلاحية، ولكنها تتفق في هدف واحد وهو إحداث تأثير في نفس القارئ.

وختاماً فإن للإبراهيمي أسلوب بارع في الافتتاح والاختتام، يحسن جذب القارئ إليه من أول كلمة قرائية، ويترك في نفسه أثراً بالغاً في ختم حديثه، وقد ساعد في ذلك بيانه العربي الساحر، ولغته الفذة وعبقريته الفكرية الراقية.

كانت هذه ومضات خاطفة من خصائص أسلوب الإبراهيمي التي نلمحها بارزة في نثره، عاكسة لموهبته في تطويع اللغة بقوانينها وأنظمتها، وإن دراستها فتح لأفاق الاعتزاز باللغة العربية ودعوة إلى توسيع استعمالها لما تحمله من خصوصيات تجعلها متميزة بين لغات العالم.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 328.

(2) نفسه، ج2، ص 314.

الفصل الثاني: البناء البلاغي لدى إبراهيمي

البناء البلاغي:

- توطئة

لقد أظهر الإبراهيمي قدرة كبيرة في التحكم اللغوي حتى عده البعض أميرا للبيان العربي، فقد كان فارسا بارعا من فرسان الكلمة لا يجارى في السحر البياني، فقد «شغل الناس حيناً من الدهر، برائق من الشعر الجميل، وفيض من النثر الأصيل، وسيل من العطاء الخلاق الذي جمع بين الفصاحة، والأدبية، وروعة التعبير، وجمالية التصوير»⁽¹⁾ في أسلوب أقل ما يقال عنه أنه عميق الفكر، نبيل المقصد، ساحر البيان.

إن حب الإبراهيمي للغة العربية وتعلقه بعبقريتها جعله ينهل من أسرارها، ويغترف من بلاغتها ويبحر في سحر بيانها الأصيل حتى اجتمعت في فكره بجواهرها الأصيلة «فارتكزت في ذلك البناء العبقري الرائد الذي صيغ على عين القدرة، فانتظم موهبة تتدفق، وحكمة تتألق، وروحا تسري، وشاعرية تجري لتهب للأمة ذلك العطاء الراسخ»⁽²⁾ الذي لا يزال إلى يومنا هذا يبهر العقول بفصاحته الفذة، ويسحر النفوس بعبقريته الأصيلة، فإذا بك تشعر بالروعة ولا تستطيع أن تتمثلها فتقول هو ذا الممتع... هو ممتع في اصطفاء حروفه، ورائع في انتقاء مفرداته، ومبهر في استواء تراكيبه وجملة وساحر في انسجامها وبيانها...⁽³⁾

(1) مبروك زيد الخير، الإمام الإبراهيمي في شعر محمد العيد آل خليفة، مجلة الوعي، ع2، ص31.

(2) نفسه، ص31.

(3) ينظر، نفسه، ص75.

وقد صبغ الإبراهيمي ما حرره من فنون نثره الأدبي بالكثير من الصور البلاغية والبيانية بفنية متناسقة جعلتها تنساب مع أفكاره انسياباً منسجماً مع تراكيبه المنتظمة في خطابه النثري، فأخرج أنساقها من غرضه الإبلاغي المباشر إلى «شعرية الخطاب النثري»⁽¹⁾ الذي يزخر بأروع الصور.

1/ مفهوم الصورة الفنية:

غالباً ما يتسامى الأديب عن واقعه المعيش إلى عالم خاص به، يوظف فيه رؤية زمانية ومكانية ذاتية، ويفتح فيه مجالا واسعا لخياله، فيحقق داخله أحلامه وطموحاته بعيداً عن الواقع الذي فرضته عليه الحقيقة المانعة؛ ولذلك نجد الكثير من الأدباء يلجؤون إلى المجاز والخيال كالتشبيه والاستعارة والكناية في التعبير عن رؤيتهم الخاصة، وهو ما يطلق عليه في علم البلاغة بمصطلح "الصورة" باعتبارها عنصراً من عناصر الإبداع، ووسيلته المتميزة، وسنحاول فيما يلي أن نورد جملة من المفاهيم المتعلقة بها.

أ- الصورة عند القدماء:

يعود تاريخ ظهور الحديث عن الصورة إلى زمن قديم، بحيث تتجلى معالمها «منذ العصرين الإغريقي والروماني، حتى يمكن القول بأنها قديمة قدم الأدب والفن نفسيهما»⁽²⁾؛ ولذلك بات

(1) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، ص228.

(2) مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954-1962) دراسة موضوعية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دط، 1989، ص371.

من الصعب على الباحث أن يقف عند تعريف شامل متفق عليه بسبب اختلاف الآراء وتعدد المذاهب النقدية حوله.

إن الصورة هي تعبير صادق يلجأ إليه الأديب ليفصح به عما يجول في خاطره من مشاعر وأحاسيس عن طريق الخيال؛ وهي بذلك «وسيلة الشاعر والأديب في نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه أو سامعيه»⁽¹⁾، وبقدر ما يكون هذا الأديب فناً في خلق صوره ورسمها وتلوينها «تتجسد موهبته الشعرية وأصالته»⁽²⁾، وهي بهذا المفهوم تعد وسيلة للتعبير «عن المرئيات والوجدانيات لإثارة المشاعر وجعل المتلقي يشارك المبدع أفكاره وانفعالاته»⁽³⁾.

ويعد عبد القاهر الجرجاني من أكبر النقاد الذين وقفوا عند هذا المصطلح، وحاولوا إيصال مفهومه للقارئ، فهو يرى أن «سبيل الكلام التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم في جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك يقال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه، وكما أننا لو فضلنا خاتماً على خاتم

(1) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ط3، دت، ص111.

(2) وجدان عبد الإله الصانع، الصورة البيانية في شعر عمر أبو ريشة، دار مكتبة الحياة، مؤسسة الخليل التجارية، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص24.

(3) أحمد مطلوب، الصورة في شعر الأخطل، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط7، 1985.

بأن تقول هذا أجود أو فصه أنفس لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلاً له من حيث شعر وكلام»⁽¹⁾.

إن ما أراده عبد القاهر الجرجاني في هذا السياق هو أن الصورة هي الأساس في الشعر، وهي المعيار في اختيار جيده من رديئه؛ لأننا لا نستطيع أن نتصور معنى دون صورة لفظية تحويه، وكلاهما يكمل الآخر ويغنيه.

وفي تراثنا النقدي نقف عند ما أورده الجاحظ في التصوير في مجال تحليله للكلام وتفضيل اللفظ على المعنى حيث يقول: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»⁽²⁾.

فالجاحظ هنا يرى أن الشعر صناعة مادتها المعاني وشكلها الألفاظ، وكل التألق فيه يحدث بعد النسج أو التصوير الذي يعكس تلك المعاني على أرض الواقع عن طريق الألفاظ، وقد «اقتبس الجاحظ لفظة التصوير بمدلولها الحسي ليوضح به مدلولاً ذهنياً»⁽³⁾ تجسد في تلك العملية الذهنية التي يتم من خلالها تركيب الألفاظ وانسجامها لتحمل معنى من المعاني في صورة حسنة يستقبلها القارئ برؤية ذاتية تختلف حسب الأذواق والأهواء.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، شرح عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة القاهرة، مطبعة الفجالة الجديدة، دط، 1969، ص255، 256.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، دط، دت، ص131، 132.

(3) محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، الصورة بين القدماء والمعاصرين (دراسة بلاغية نقدية)، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1911، ص16.

ويرى قدامة بن جعفر أن المعاني مسخرة في خدمة الجميع لها معرضها الخاص، وعلى الأديب أن يختار منها ما يشاء، وما يراه متماشيا مع موقفه الفكري، فهي تعد بمثابة المادة الخام التي يصنع منها الأديب كل ما يمليه عليه خياله من أنماط وصور؛ لأنها في نظره «مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة»⁽¹⁾، بإمكان الحرفي الماهر أن يبهر المتلقي بأروع ما يصنعه خياله الذهني من صور وأشكال ونماذج يختلف حسها وجمالها باختلاف ذوق المتلقي وميولاته.

أما أبو هلال العسكري، فهو يرى أن الصورة تعني الشكل المجسد الذي تصنعه المعاني عن طريق الألفاظ فتحسن إذا احتل كل لفظ مكانه الصحيح، وتختل وتتشوه إذا تغيرت الحلية⁽²⁾، ولذلك فالألفاظ عنده هي الأساس المتين الذي تبنى عليه الصورة، وهي المعيار الذي يقاس عليه جمالها أو رداءتها بكل ما تحمله من معان لا بما ينطق منها اللسان فيحدث أصواتا وأجراسا.

وقد سار عبد القاهر الجرجاني على هذا النحو حيث اعتبر الصورة مجسدة في المعاني التي تحملها الألفاظ، وانطلاقا من هذا المبدأ فقد أورد الصورة على نوعين:

1- نوع يتمثل في الألفاظ من حيث هي أدلة على معان مباشرة، بمعنى أنها لا تخرج عن

الدلالة المعجمية القاموسية المحددة.

(1) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص 65.

(2) ينظر أبو هلال العسكري، الصناعتين (الكتابة والشعر) تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى الباجي الحلبي وشركائه، القاهرة، دت، ص 167، 168.

2- نوع يتمثل في الألفاظ من حيث هي أدلة على معان، بمعنى ما تسوقه هذه الألفاظ من

معان تجاوزت المعنى المباشر إلى معان جديدة تحمل بدورها معان أخرى⁽¹⁾.

وكان اهتمام عبد القاهر الجرجاني بمحاسن الكلام كبيراً، فركز في دراساته على التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وغيرها من الركائز البلاغية باعتبارها أصولاً ضرورية لتلك المحاسن؛ لأنها الأساس في البناء البلاغي للنص الأدبي الذي يبحث عن الجودة، كما أنها «أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها وأقطار تحيط بها من كل جهاتها»⁽²⁾.

وهكذا يتضح لنا أن عبد القاهر الجرجاني كان يؤكد على ضرورة الربط بين اللفظ والمعنى، وهو يرى أنهما متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ لأنهما يشكلان بامتزاجهما الصورة الذهنية التي ترسم في ذهن المبدع فيسخر لها التراكيب التي تحملها إلى القارئ؛ ولذلك «فاللفظ والمعنى أو الصورة والمضمون ليسا شيئين منفصلين، كالكأس وما يكون فيها من شراب، بل هما مترابطان ترابط الثوب بمادته»⁽³⁾.

ب- الصورة عند المحدثين:

لقد أدرك النقاد أهمية التصوير في العمل الأدبي، وأيقنوا أنه عنصر أساسي في العمل الأدبي: الشعري والنثري؛ وأن قيمة الإبداع الفني تتجلى فيما يعكسه العمل الأدبي في جانب التصوير الفني الذي يمتلك علاقة وثيقة بالشعور النفسي، إذ إن الفنان البارِع هو الذي يتمكن

(1) ينظر زكية خليفة مسعود، الصورة الفنية في شعر ابن المعتز، منشورات جامعة فان يونسن، بنغازي، ط1، 1999، ص19.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المدني جدة، مطبعة مدني القاهرة، ط1، 1991، ص27.

(3) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف القاهرة، طه، 1981، ص163.

من نقل أحاسيسه ومشاعره إلى المتلقي فيجذبه إلى عالمه الداخلي، ويؤثر فيه بما يرسمه له من صور صادقة لما في داخله؛ لأن العمل الأدبي هو «التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية»⁽¹⁾، ولذلك فالإيحاء يساعد على الدخول في جو التجربة الشعورية، كما أن التصوير يلعب دورا كبيرا في إثارة العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية⁽²⁾ المرتبطة بالواقع المعيش.

وقد تجاوزت الصورة تلك النظرة الكلاسيكية المرتبطة بالأشكال البيانية وما يحيط بالعمل الأدبي من زخرف القول، خاصة بعد مجيء الرومانسيين بنظرة الخيال التي تغذيها قوة الحواس ووحدة الذاكرة وصدق العاطفة... فأخذت الصورة تنحو منحى جديدا، واتسع مفهومها عند المحدثين ليشمل - إضافة إلى المعاني القديمة - هذه الرؤية الجديدة المرتبطة بالخيال وما يقوم به من الإفصاح عن المشاعر وتصوير المشاهد الذهنية والتعبير عنها بأسلوب ملتصق بالعواطف والأحاسيس؛ لأن اللغة وحدها لا تفي بذلك إذ «مهما بلغت من القوة والحياة فلا ولن تستطيع أن تنهض - من دون الخيال - بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الإنسان، هذا العبء الذي يشمل خلجات النفس الإنسانية وأفكارها وأحلام القلوب البشرية، وآلامها وكل ما في الحياة من فكر وعاطفة...»⁽³⁾.

وقد تعددت تعريفات المحدثين للصورة، فمنهم من يرى بأنها «لوحة مؤلفة من كلمات، أو مقطوعة وصفية في الظاهر ولكنها في التعبير الشعري توحى بأكثر من الظاهر، وقيمتها تتركز على طاقاتها الإيحائية فهي ذات جمال ذاتي تستمد من اجتماع الخطوط والألوان والحركة ونحو

(1) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط5، 1983، ص9.

(2) ينظر مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط5، 1983، ص8.

(3) أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، دط، 1978، ص25.

ذلك من عناصر حسية، وهي ذات قوة إيحائية تفوق قوة الإيقاع لأنها توحى بالفكرة كما توحى بالجو والعاطفة»⁽¹⁾؛ وهذا الإيحاء هو الذي تستمد منه قوتها الحسية وأبعادها الفكرية، وهو يتوقف أساساً على القدرة العقلية للمبدع؛ لأن الصورة في الأساس هي «إبداع ذهني صرف»⁽²⁾ تتحكم فيه القوى النفسية للأديب، فترسم الصورة حسب ما يحيط بها من مشاعر وأحاسيس، ولذلك فهي تعد «تركيبية عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع»⁽³⁾؛ لأن الأديب يلتقط من الواقع ما يخدم فكرته الذهنية فيهمل بعضها الآخر، وهدفه في ذلك تحليلية الفكرة أو الشعور أكثر من تصوير الواقع المحسوس⁽⁴⁾، فدلالته تنحصر في «إحداث الانفعال النفسي في الذات المستجيبة»⁽⁵⁾.

ويرى مصطفى ناصف أن كلمة الصورة تستخدم عادة «للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي، وتطلق عادة مرادفة للاستعمال الاستعماري للكلمات»⁽⁶⁾؛ لأنها تعبير عن عالم داخلي وتشخيص للانفعالات المرتبطة به، وتجسيد لواقع نفسي حسي تسخر له الكلمات بما تحمله من معان لإحداث التأثير النفسي، ولذلك فإن إحسان عباس يتجاوز بها عن التعبير الحسي المجسد في الاستعارة والخيال، ويتمثلها في جميع الأشكال المجازية ويعدها روحاً للشعر⁽⁷⁾ يحيا بها ويموت بغياها، ولذلك باتت حياة الشعر متوقفة على قوة التصوير التي تختلف من شاعر

(1) روز غريب، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص191.

(2) عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، دط، ص70.

(3) نفسه، ص66.

(4) ينظر، يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة تحليلية، ص318.

(5) ينظر، سحر هادي بشير، الصورة في شعر نزار قباني دراسة جمالية دار المناهج للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2011، ص28.

(6) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983، ص3.

(7) ينظر، احسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، دت، ص238.

إلى آخر، فهناك من تأتي صورهم قوية مستوعبة لخصائص التصوير، فتؤثر في المتلقي، وهناك من تأتي ضعيفة مفتقرة إلى ميزات التصوير الرفيع؛ لأن الصورة في واقع المبدع نتاج تتعاون فيه مشاهداته وتأملاته ومعاناته مضيفاً إليها قوة ذاكرته وسعة خياله وعمق تفكيره⁽¹⁾.

أما محمد غنيمي هلال، فهو لا يشترط الخيال للصورة، لأن العبارات الحقيقية قد تحمل في ذاتها خيالا خصبا حتى وإن لم ترتبط بأدوات المجاز، فهو يرى «أن الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب»⁽²⁾ يدفع بالمتلقي إلى تسخير حواسه الإدراكية لاستيعاب الصورة الفكرية؛ لأن الصورة هي «نوع من الكشف والاكتشاف القائم على قوة التركيز ونفاذ البصيرة التي تدرك ما لم يسبق أن أدركناه، ومن هنا تكون حالة الارتياح والتوازن التي ندركها حين قراءتها»⁽³⁾، ويحصل بذلك مشاركة المبدع في جمالياتها، وتذوق حسها، من وسيلتها الأساسية المتمثلة في اللغة؛ لأنها المنطلق الأول لأي إبداع فني، والذي تبرز فيه عبقرية الإنسان في تسخير هذه اللغة لتصوير رؤاه الفكرية، فيتوسل باللغة ليصور ما بداخله من عوالم خفية⁽⁴⁾ مهما كانت طبيعة لغته؛ لأن هدفه الأساسي هو إحداث الانفعال النفسي للمتلقي الذي يجد نفسه متأثرا بما نقله له المبدع من انفعالات كامنة في أعماقه، فمهما يكن الموضوع الذي يتناوله المبدع بالتصوير فإنه لا مناص من أن يتلون بلون نفسيته وذلك ما يعبر عنه بالصدق في التعبير⁽⁵⁾.

(1) ينظر، عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، د ط، 1983، ص 99.

(2) محمد غنيمي هلال، النثر الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، د ط، 1973، ص 457.

(3) محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، د ط، 1981، ص 8.

(4) ينظر، زكية خليفة مسعود، الصورة الفنية في شعر ابن المعتز، ص 21.

(5) ينظر، يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، قسنطينة، ط 1، 1987، ص 302.

إن الصورة هي ابتداء فني يقوم على ضوابط إسنادية لغوية تنبثق عبر تكوينات لفظية وتراكيب تنسيقية⁽¹⁾ تنسجم مع بعضها في عملية عقلية يتحد فيها الفكر بالشعور «فيلتقيان في لقاء باطني ويلتزمان ويؤلفان الصورة معا في لحظة انفجار التجربة»⁽²⁾، فتتجسد للعيان تحدث بذلك «الاستجابة المستمدة من إدراك هذه العلاقات الصورية»⁽³⁾ التي يلتقطها المتلقي عبر معاني التكوينات اللفظية والتراكيب النسقية في اللغة.

وختاما فقد تباينت الآراء في فهم الصورة وتعريفها، وتعددت رؤية النقاد والباحثين في مجالها، فكثرت المفاهيم وتشنت الآراء، وتباينت الأفكار حسب اتساع مجالها، وتبقى الصورة مصطلحا اتسع وتطور باتساع الجهود في مجالها الواسع، وظل التصوير ركنا من أركان الإبداع الأدبي إن لم نقل عموده الفقري يعكس نفسه عند المتلقي فيجعله معيارا للجودة ورفعته كلما تمكن من إحداث اللذة الجمالية في عينه؛ لأنها تمثل ذلك الانبثاق التلقائي الحر الذي يفرض نفسه في لحظة نفسية انفعالية تبحث عن الانسجام مع الطبيعة من حيث كونها مصدرها البعيد، وتنفرد عنها بنظامها وقوانينها تأكيداً لوجودها الخاص، وكل ذلك في غمرة صدق عميق تتداخل فيه الذات والموضوع في علاقة حميمة جدلية⁽⁴⁾.

فالصورة إذن هي إبداع فني كامن في أعماق المبدع، يتدفق في سياقات لغوية تنسجها قوى ذهنية تخيلية في لحظات انفجارية لتسكبها في واقع ملتصق بها حاملة معها طاقة جمالية تنفجر

(1) سحر هادي بشر، الصورة في شعر نزار قباني، دراسة جمالية، ص 31.

(2) إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 253.

(3) كامل محمد عويضة، مقدمة في علم الفن والجمال، سلسلة علم النفس، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص 69.

(4) ينظر، محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، د ط، 1981، ص 33.

في عين المتلقي فتكشف عن قيمة نفسية روحية يلتحم فيها الواقع بالخيال، وتنسجم فيها اللذة الفنية بالعدوى النفسية.

ومن هنا يتبين الفرق في مفاهيم الصورة بين القدماء والمحدثين، فالقدماء يرونها مجسدة في المجاز والاستعارة والتشبيه ويعتمدون على المشابه العقلية المستندة على المنطق، وبذلك يعدونها وسيلة من وسائل تزيين الكلام وتحسينه وتوضيحه، بينما يشترط المحدثون إضافة إلى كل ذلك فسخ المجال للعاطفة والخيال وتوسيعه أكثر حرية الفكر.

2- أنواع الصور البيانية:

لقد تبين لنا فيما سبق أن الصورة في أوضح معانيها تتجلى في طريقة التعبير عن المرئيات ممتزجة مع الوجدانيات لإحداث الانفعال النفسي في المتلقي، وهي سمة بارزة في العمل الأدبي تعكس تجربة المبدع، فيرمز به للواقع الذي يتصوره ويتخيله⁽¹⁾ ويعيشه في عالمه الداخلي.

وهذه الطريقة في التعبير تختلف من مبدع لآخر باختلاف الرؤية للواقع في شقيه الداخلي والخارجي، وباختلاف سعة اللغة للمبدع ذاته، والذي «قد لا تسعفه الألفاظ في اللغة فيجد نفسه مدفوعاً بثورة خيالية إلى تشكيل علاقة لغوية خاصة يؤلفها بخياله المبدع فيعبر عن رؤية

(1) ينظر، سليمان محمد سليمان، رؤى نقدية في دراسات أدبية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ط، 2004، ص 126.

خاصة به»⁽¹⁾ تختلف باختلاف الطوائف حسب نفسية المبدع، وتعكس ذوق الأديب الجيد وحسه المرهف الذي يستهوي القارئ فيتفاعل معه.

والتصوير ليس خاصية مرتبطة بالشعر وحده، فهو موجود أيضا في النثر بل «إن بعض النثر يكون على مقدار من جمال التصوير وروعة الخيال وحيوية الإيحاء يصير به أغنى وأجمل وأبلغ من كثير من النماذج الشعرية»⁽²⁾، وهو ما ينطبق على فكر الإبراهيمي الذي يعد -بحق- مصدرا لكل القوانين البلاغية؛ لأن قدرته على تطويع اللغة لمتطلباته الفنية كبيرة، وبرزت في عظمة ما أنتجه، وانعكست في قيمة ما خلفه، فهو - بحق - «جاحظ عصره، وبديع زمانه»⁽³⁾ أبهر القراء منذ عصره بما أوتي من فصاحة وبلاغة وبيان ساحر.

والتصوير عند الإبراهيمي سمة بارزة في آثاره تنبئ عن قوة مخيلته وسحر اللغة على لسانه، يأتي في قوالب بلاغية متعددة منها التشبيه والاستعارة والكناية وكلها قوالب تحمل معها الأصالة والإبداع والإيحاء، فترد أحيانا مثقلة بالواقع والجدية، خاصة عندما يقف عند القضايا الحساسة المتعلقة بالاستعمار والدين واللغة، وأحيانا يرتقي التصوير سلم الخيال المحض فيرد لغاية الجمال ونجد هذه النماذج في رسالته المشهورة "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽⁴⁾.

وسنورد فيما يلي من الدراسة نماذج لمختلف القوالب البيانية التي ضمّنها الإبراهيمي تصويره الفكري، بما تقتضيه طبيعة البحث مركزين على دوره في إيصال المعنى وتشخيص الصورة لدى

(1) المرجع السابق، ص 126.

(2) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 111.

(3) عمر أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، قراءة في ظل البنية والمتغير، دار الهدى للطباعة والنشر، 2006، ص 19.

(4) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 654.

المتلقي دون التعمق في التقسيمات والتفريعات البلاغية، وسنقف أولاً عند الصورة الشخصية باعتبارها البنية الأولى التي يبنى عليها الخيال الفكري.

وتشمل هذه الأنواع البيانية للصورة ما يلي:

أ- الصورة التشبيهية.

ب- الصورة الاستعارية.

ج- الصورة الكنائية.

أ- الصورة التشبيهية:

من تعريفات التشبيه أنه «علاقة مقارنة تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال، هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني»⁽¹⁾.

والتشبيه أسلوب يعبر به عند إرادة توضيح المعنى وتقريبه للمتلقي، وهو أصل مهم من أصول البلاغة، ويعد «من أقدم صور البيان ووسائل التخيل وأقربها إلى الفهم، ولذلك اعتبره بعضهم من الفنون التي تمثل المراحل الأولى من التصوير الأدبي والربط بين الأشياء لتقريبها وتوضيحها أو إضفاء مسحة من الجمال عليها»⁽²⁾.

(1) أحمد مطلوب، فنون بلاغية (بيان وبديع)، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، 1975، ص 35.

(2) حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، ص 625.

وللتشبيه مكانة كبيرة في علم البلاغة وذلك لقدرته الساحرة على تقريب المعاني وإيضاحها وتوكيدها، فيزيدها رفعة ووضوحاً ويكسيها فضلاً وشرفاً ويصنع عليها خيلاً متمزجاً بحس واقعي، فهو يعمل على «تصوير المعنى وتجسيده للمخاطب في أوضح صورة ممكنة ليؤدي الخطاب دوره في التأثير والإمتاع، لأن الإنسان مجبول على الميل إلى ما سبيله الحس»⁽¹⁾.

وتظهر قيمة التشبيه فيما يقدمه للمتلقي من تقريب للمعاني وفيما يمكن أن يتولد من ذلك دلالات وإيجاءات⁽²⁾، لأن وظيفته تجاوزت الارتباط بالتوكيد والإقناع إلى الكشف عن معان جديدة قد ترتبط بالنص ذاته، وقد تتعلق بالتجربة الإبداعية، وقد تخص القارئ وخياله بحسب تعدد المفاهيم والرؤى والتأويل.

والتصوير بالتشبيه من الوسائل البلاغية التي استعان بها الأدباء في رسم الصورة الفنية لحو الغموض وكشف الخفي وإجلاء المعاني وإنارة العمل الأدبي، وإبراز الغامض بالظاهر الشبيه له من الواقع الحسي.

ويعد الإبراهيمي من أبرز الأدباء الذين استوعبوا قيمة التشبيه في تقريب الرؤية الفكرية للمتلقي، فما كادت تخلو منه نصوصه النثرية، خاصة وأنه رجل مصلح يهدف إلى إيصال الحقيقة للقارئ بكل الطرق، ولذلك أشاع قلمه ولسانه التصوير بالتشبيه في فنون نثره الأدبي لإيضاح معانيه وإضفاء قوة بلاغية في كتاباته لها تأثيرها الخاص على المتلقي.

(1) جابر عصفور، الصورة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992، ص 172.
(2) ينظر، صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، (الأصول والفروع)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1986، ص 195.

والأمثلة في هذا البيان سخية ومتنوعة نسوق منها على سبيل المثال تهكمه ببعض الناس الذين يضعون أنفسهم في مكانة العلماء، وهم لا يستحقونها فيُزخِّزون عن هذه المكانة لمجرد أن يظهر من هم أحق بها، وينقل هذه الصورة مستندا إلى التشبيه الذي يزيد من حدة الموقف، فيجعل القارئ يفهم الموقف الحرج الذي يضع فيه البعض أنفسهم، حيث يقول: «بآية أن علمهم لم يؤهلهم لقيادة الأمة، فتركوا القيادة لغيرهم، وأصبحوا كأدوات التصدير التي يسبقها حرف الجر فيدخل عليها، ويعمل فيها»⁽¹⁾.

إن الصورة التشبيهية عند الإبراهيمي هي مرآة عاكسة للأمور الحسية التي تقف عند التشابه الحسي بين الأشياء من مرئيات وبين المعنويات من مجردات، وهي في كل ذلك ترتبط بانفعالاته النفسية وحالاته الشعورية، فتتفاعل وفق الواقع المحسوس بأبعاده، وتتعامل مع الجوانب التجريدية والفكرية، ومع الإحساس النفسي الداخلي فتتنوع بحسب المواقف الإنفعالية⁽²⁾ التي يعيشها الكاتب، فهو مثلا عندما يتحدث عن عودة (البصائر) بعد غيابها يأخذ الصورة من واقع معيش ملموس يجعله منطلقا لواقعه الداخلي النفسي، ويستمر في هذا الإسقاط بين الواقع المصور والمتصور يقول: «وهذه جريدة البصائر تعود إلى الظهور بعد احتجاب طال أمده، وكما تعود الشمس إلى الإشراف بعد التغيب، وتعود الشجرة إلى الإبراق بعد التسلب، فلا يكون اعتكار الظلام، وإن جلل الأفق بسواده، ألا معنى من معاني التشويق إلى الشمس، ولا يكون صر الشتاء، وإن أعر الأشجار باشتداده، إلا خزنًا لقوة الحياة في الأشجار، والشمس موجودة، وإن

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 639.

(2) ينظر، فايز الداية، جماليات الأسلوب، مطبوعات جامعة حلب، 1982، ص 73.

غابت عن نصف الكون، والشجرة حية وإن أفقدها الصرّ جمال اللون، كذلك صحيفة البصائر، احتجبت صورتها عن العيان، وإن كانت حية في النفوس ممثلة في الأفكار»⁽¹⁾.

إن هذه البنية التشكيلية للصورة التشبيهية في هذا النص توحى بقدرة الإبراهيمي الخارقة على توظيف هذه الصورة في أسلوبه الكتابي، فقد انطلق من واقع الناس حين تحدث عن إشراق الشمس بعد التحجب، وإبراق الشجرة بعد التسلب فأحسن إسقاط معاني هذه الحسيات على جريدة البصائر التي احتجبت عن العيان، إلا أن صورتها راسخة في النفوس، خالدة في العقول، وما احتجباها إلا لمسة إلهية في النفوس تزيدها شوقاً إليها، كما تزيد الظلمة النفس شوقاً إلى الشمس، وهو تشبيه جميل لا يتفطن إليه إلا من أتاه الله فطنة الشعراء.

وقد اصطلح النقاد على أربعة أركان في التركيب اللغوي للصورة التشبيهية والتي تتمثل في المشبه والمشبه به وهما طرفا التشبيه الأساسيان، ثم تأتي أداة التشبيه ووجه الشبه، وقد ترد هذه البنية التركيبية كاملة بكل هذه العناصر، كما قد ينقص عنصر من هذه العناصر بحسب براعة الكاتب في التصوير التشبيهي، وبحسب رغباته النفسية والكتائية، وبحسب الموقف الذي تقتضيه الصورة، وتعكسه التجربة، وقد وردت الصورة التشبيهية عند الإبراهيمي بمختلف عناصرها التركيبية التي تتطافر مع بعضها لتجسد الصورة الكلية حتى وإن اختفت أحد أجزائها، وهذه الصورة بأنواعها تتجسد في نثر الإبراهيمي على اختلاف مواقفه وانفعالاته، وترد على حسب رغبته في تجسيدها وتسخير المحسوسات لخدمة معانيه، فيبالغ أحيانا في التشبيه عندما يصل قمة

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 15-16.

الانفعال، وخاصة عندما يتعلق الأمر بفراق أعز الأصدقاء، وهو عبد الحميد بن باديس رحمه الله يقول: «يا قبر، ما عهدنا قبلك رمسا، وارى شمسا، ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكا دائرا، وتحبس كوكبا سائرا»⁽¹⁾.

لقد تجسد في هذا النص نوع مهم من أنواع التشبيه أطلق عليه البلاغيون اسم التشبيه البليغ، وهو التشبيه الذي «تخذف أدواته ووجه الشبه فيه»⁽²⁾، فيظهر المشبه متحدا بالمشبه به كأنهما شيء واحد، وهي الصورة التي رسمها الإبراهيمي للشيخ الراحل عبد الحميد بن باديس بحيث شبهه بالشمس والفلك والكوكب دون أداة أو وجه شبه، وقد اجتمعت هذه العناصر لتؤلف في مجموعها هذا التصوير الفني البديع الزاخر الذي يكشف عن أبعاد وإحياءات ضخمة لهذا الرجل العملاق (ابن باديس) الذي تساوى مع الشمس والكواكب في كل صفاتها من علو ونور وإشعاع دون أي استثناء، كما أن روعة التصوير تنتج عن هذه التراكيب التي تماسكت مع بعضها لترسم هيئة وجلالة الشيخ الراحل، (رمسا وارى شمسا)، (مساحة تلتهم فلكا)، (تحبس كوكبا)، كل هذه أجزاء للصورة الكلية التي عكست روعة المبالغة في التشبيه، وصورت سحر البلاغة على لسان الإبراهيمي.

وقد عمد الإبراهيمي إلى الإتيان بصورة تشبيهية معتمدا على ملكته الخيالية القادرة على تطوير المحسوس، وربطه باللمس في صورة مقربة للمعاني ومجسدة لملكة اللغة عند الإبراهيمي، ونلمح في ذلك تلك الصورة التي رسمها للصبا حين جعله ريحا، وحين جعل الروح قطعة ثم ركبها

(1) المصدر السابق، ص 15.

(2) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج2، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986، ص 180.

في الصورة الأولى ليرتسم الشكل النهائي للصورة الإجمالية يقول: «أنت يا صبا ريح، وكأن فيك قطعة من كل روح، يجد فيك كل غريب أنسا، وكل حبيب سلوى، وكل مكروب تنفيسا...»⁽¹⁾.

فكل تلك التشبيهات المترابطة «أُلحق فيها المفرد الخفي بالمفرد الجلي، وشبه خلالها الأخرى بالأظهر والأدنى بالأعلى في الصفة، وأنتج من خلال هذا التصوير التشبيهي صورة فنية لها تأثيرها في الإبداع الأدبي»⁽²⁾؛ لأنها تعمل على استثارة العواطف، واستنهاض المشاعر، وتدفع بالمتلقي إلى تكوين الحركة الذهنية الداخلية التي يرسم بها الصورة التشبيهية المستهدفة.

وقد حرص الإبراهيمي في نثره على تشكيل الصورة التشبيهية التمثيلية المركبة، لأنه يعي قيمتها البلاغية في الصورة النهائية التي ترسم لدى المتلقي وبذلك ينمو الارتقاء اللغوي والفكري، وتصبح اللغة عنده لغة إحياء لا لغة تقرير أو خطابة، وحينها تحس بالسلاسة والعذوبة، والانطلاق والإشراق، وتتمزق نواة اللغة الشاعرة فإذا بالكاتب يتوغل بنا إلى عمق المعاني، ويكشف لنا عن ترابط وثيق بين عالم المرئيات وعالم المحسوسات⁽³⁾، يقول: «أما الروح فهي الاستعمار الذي أصبح كالسل في الملازمة والتعاصي عن الطب وفي الفتك في آخر الأمر.. وكما يتتلى السل الأجسام الضعيفة القابلة لسريانه وتأثيره، لأنها غير محصنة بقوة المقاومة في الدم، يتتلى الاستعمار الأرواح الضعيفة القابلة لوسوسته وسحره لأنها غير محصنة بقوة الإيمان»⁽⁴⁾.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 482.

(2) مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية).

(3) ينظر، محمد زغينة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، ص89.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 381.

لقد عمد الإبراهيمي في هذا النص إلى تركيب صور تشبيهية تنسجم فيها الألفاظ مع الأفكار، وتتوالد الصور وتتسع الأخيلة فإذا به يصور الاستعمار في صورة السل، هذا المرض الفتاك الذي لا يبرح جسدا حيا إلا وتركه جثة هامدة، وحاول الإبراهيمي أن يدقق هذه الصورة حينما أورد وجه الشبه بين الاستعمار والسل وذلك بالفتك في آخر الأمر، وهي الصورة النهائية التي يتجسد بها هذا المرض الخطير الذي يصيب الإنسان في جسمه فيدمره، وتعمق الصورة عندما يوسع الإبراهيمي من دائرة التشبيه، ويشرح للقارئ سبب استعمار هذا المرض للجسم، ثم يقابله بالصورة التشبيهية التي تصور سبب ابتلاء الاستعمار للأرواح الضعيفة، وهي في الواقع صورة معبرة ومؤثرة في الوقت ذاته؛ لأنها تدفع بالنفس إلى التفكير في الوقاية والتحصن من هذا المرض الخبيث الذي قد يدمر شعبا بأسره، وهنا نلمس الرؤية الفنية للصورة البيانية وأبعادها الإيضاحية في العمل الأدبي، ونلمس استيعاب الكاتب للموقف الاستعماري استيعابا فنيا له أبعاده النفسية المتوغلة في عمق التجربة، وفي أفق اللاواقع مما أعطى للصورة الفنية دفعا قويا نحو تكثيف المعنى وتوسيعه، فإذا بهذا الاستعمار يبرز في صورة قبيحة مخيفة تنفر منها الحواس على اختلافها، ويقذفها الواقع إلى عالم الخيال ليوسع من حجم بشاعتها، فإذا بالنفس تتجهز لصد جبروتها.

لقد امتلك الإبراهيمي قدرة كبيرة في الإبداع البياني استجمع بها كل الأدوات المعرفية البيانية والقواعد النحوية المتأصلة فسخرها لخدمة رؤاه المعرفية ودعوته الإصلاحية مثبتا ذلك بالبراهين العقلية والحجج المنطقية بمنهج بلاغي رهيب تتكاثف فيه المقدمات النحوية السليمة،

وتتناسق فيه الحجج المنطقية، وكل ذلك بتصوير بياني بارع، وأروع نموذج يصور هذا الأسلوب الرهيب قوله: «في العربية تركيب الإسناد، والإسلام لا يرضى أن يسند إلى فرنسا الاستعمارية، ولا أن تسند هي إليه، وفي العربية التركيب الإضافي والإسلام لا يسمح أن يضاف إلى فرنسا ولا أن تضاف هي إليه، وفي العربية التركيب المزجي، والإسلام وفرنسا كالزيت والماء لا يمتزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كل منهما إلى سنته من المباينة والمنافرة»⁽¹⁾.

إنه تصوير بارع يجسد «عبقرية النص في الخطاب الإبراهيمي من خلال الإبداع البياني»⁽²⁾ الذي يضمن تصويراً مكثفاً لحقائق ملموسة أفضت في النهاية إلى حقيقة واضحة في لوحة فنية قائمة على البرهنة العقلية؛ لأن الإسلام وفرنسا: «كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة، فجاءت كل واحدة منها ناشزة على صاحبتهما، نابية عن موضوعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، ولا يقبله الذوق العربي»⁽³⁾، ولذلك فإن أروع تشبيه يجسد التنافر هو الماء والزيت، وأن اندماجهما لا يحدث إلى في لحظة مزج عنيف تستخدم فيه القوة والسرعة، إلا أن الطبيعة التركيبية لهما تفرض نفسها مباشرة بعد زوال العنف والقوة ليعود ذلك الانفصال الرباني بينهما كما هو في الآية الكريمة: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ "19" بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ "20"﴾⁽⁴⁾.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 350.

(2) نفسه، ص 11.

(3) نفسه، ص 350.

(4) سورة الرحمن الآية: 19-20.

لقد أضفى هذا التشبيه على الفكرة روحاً خفيفة متشعبة بالأصالة والتاريخ واليقين الجاد بأن فرنسا وهذا الإسلام ليس لهما معنىً ممتزجا «لاختلاف المعنيين، ولاختلاف الطبيعتين، ولاختلاف المزاجين، وللبعد السحيق في أذهاننا بين معنى "فرنسا" وبين معنى "الإسلام"»⁽¹⁾، وهكذا ينمو ذلك الارتقاء اللغوي والفكري الذي تنصاع له اللغة فتخفي بين معانيها تركيباً منطقياً يستجيب له العقل بما أوتي من خلفيات حول المفردتين، فينقلب الكلام في صريح عبارته دون إخفاء لهذه الصورة: «فرنسا الاستعمارية -عدو- الإسلام، والحذف من مذاهب لغتنا، وحذف ما يعلم جائز»⁽²⁾، وهنا تبرز عبقرية اللغة على لسان الإبراهيمي، وتتجسد هذه العبقرية في سلطة النص فتعكس جمال الصورة التشبيهية التي تنصاع للغة انصياحاً يجعل الذهن يتحرك ليرسم ما طلب منه عبر ما يفوح من أريج المفردات، فيتوغل بنا الكاتب إلى عمق الحياة ويتنبه الحس، فتنتفتح البصيرة، وتصبح الصورة بكل إشعاعاتها يقينا عميقا في الذهن، وبديهيّة من بديهيّات التصور⁽³⁾ الذهني الذي يربط الواقع بالخيال ربطاً متماسكا تنبعث منه إichاءات وإشعاعات لمعان أخرى فيتوسع الفهم، وتتكشف الحقائق بصبغة ممتزجة تتعانق فيها الأفكار بالمعاني في موج من الخيال المفتعل، وتتجلى حينها قيمة الصورة التشبيهية، وتظهر أبعادها الفنية في تعميق المعنى وتوسيعه وتجسيده الخفي وتجليته.

ويتفنن الإبراهيمي في تصويره الفني مما يدل على خصب مخيلته وقدرته على ربط الواقع بالخيال عبر تناسق تعبيره مفعم بالشعور الذي يربط العالم الخارجي بالعالم الداخلي، فيتطابق

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 351.

(2) نفسه، ص 351.

(3) ينظر محمد زغينة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، ص 91.

الانفعال مع شحنات الألفاظ⁽¹⁾ التي يسخرها الإبراهيمي فتنصاع لخياله الخصب وينقلب بها المحسوس ملموسا والملموس محسوسا في عالم اللاواقع الذي يقذف إلى الواقع بلوحة تشبيهية ممتزجة بالظلال والإيحاءات والمعاني، فيراها القارئ برؤيته الخاصة، وينفعل بها على طريقته.

والإبراهيمي يستعمل التشبيه بكثرة في نثره الأدبي ومقصده في ذلك إيصال الفكرة وتوضيح الرؤية؛ لأن الصورة التشبيهية تعد الوسيلة الأنجع لتصفية الرؤية وجلائها، فتقرب المعنى للمتلقي الذي ينفعل بها فينبثق منه تصور خاص يتوازى في الذهن، فتتوالد عبره المعاني وتتجلى الرؤى، وتبرز أبنية واسعة تزداد اتساعا كلما زادت الرؤية للصورة وضوحا وصفاء، ولذلك يقع التجاوب بين المبدع وموضوعه وتنتقل العدوى الفنية إلى القارئ فيشاركه بخياله عندما يلتقط الصورة ويحسن تركيبها في الذهن وتلوينها في المخيلة، عندها يحس المبدع أنه نجح في رسم الصورة، ويحس القارئ أنه فاز بالتقاطها في ذهنه، وتتجسد الرؤية واضحة، والفكرة خالصة.

ونورد فيما يلي نموذجا آخر للتصوير التشبيهي عند الإبراهيمي الذي أرقته واحدة من أكبر القضايا التي عانى منها شعبه وهي قضية "فصل الحكومة عن الدين"⁽²⁾، والتي كتب فيها عددا مهما من المقالات بأقلام جفت من الحبر دون أن تحرك ساكنا من حكومة صماء، فكثرت أوراقه حتى غطت بها بضعة جدران، ويعترف فيها بأن لا حياة لمن ينادي: «كتبنا في هذه القضية ما

(1) ينظر سيد قطب النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 37.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 142.

إن مداده ليُكوّن عدة جدران، وما إن صحائفه لتغطي بضعة جدران، ولكن كنا مع هذه الحكومة المتصامة -من عتو، ومن استعلاء- كمن يحرق البخور لأصحاب القبور»⁽¹⁾.

إنها صورة تشبيهية جميلة استخدمها إبراهيمي في سياق كلامه ليعبر بها عن استيائه الكبير من هذه الحكومة الصماء، فصب غضبه في صورة موحية ركبها من نسج خياله بعد أن يئس من الحكومة الفرنسية الظالمة، فجاءت الصورة إليها إلهاما متفردًا حينما جعل كل محاولاته معها تذهب هباء، فشبه هذا الوضع المزري بمن يحرق البخور لأصحاب القبور، وينتظر منهم حركة تبعث الأمل أو رجعة إلى الحياة تحدث معجزة، أو قضاء حاجة من الحوائج في عالم الغيب، ولكن هيهات لأصحاب القبور من العودة إلى الحياة، وهيهات للحكومة الفرنسية من الاستماع إلى الوعظ والإرشاد.

ويعكس هذا التشبيه الحالة النفسية للإبراهيمي، ويصور الجهد الجبار الذي بذله في هذه القضية دون فائدة، ويرسم أبعادًا لهذه الصورة التي تجعل المتلقي يرسم صورة خيالية في ذهنه لشخص يقف أمام قبر ويحرق البخور في محاولة منه لاستنهاضه واستنطاقه وبعث الحياة فيه، ثم بحركة ذهنية أخرى يقابل هذا التصرف أمام تعنت الحكومة الفرنسية وتجربها، وحينها يفهم موقف الإبراهيمي، ويحس المتلقي بالحرقة التي تعتريه، ويشعر بالغيض الدفين الذي يغشي الإبراهيمي في داخله، فيشاركه المرارة، ويقاسمه هذا الإحساس، وحينها يشعر بمدى نجاح الإبراهيمي في توظيف الصورة التشبيهية الملموسة لخدمة ما تجرد في ذهنه من المحسوس الذي التصق بذلك التعنت

(1) المصدر السابق ، ص 143.

المميت للحكومة الفرنسية، وعندها تتجلى قيمة هذه الصورة التشبيهية التي تناسقت الألفاظ حولها فأوصلت رائحة البخور للقارئ الحي الذي استطاع أن يحس بالإبراهيمي ويشاركه حسرته، ولم توصلها إلى صاحب القبر الذي وإن وصلت أنفه إلا أن قوة إلهية منعتة من الاستجابة وذلك ليؤدي التشبيه وظيفته فيعكس ويمثل ذلك التعنت الذي طغى على الحكومة الفرنسية.

لقد بلغ استخدام التشبيه عند الإبراهيمي مبلغه من التصوير البليغ الذي أجاله عبر فنون نثره الأدبي، فأجاد فيه إلى حد البراعة خدمة لبيانه الساحر، وتطويعا للغته القوية وانعكاسا لأفكاره النيرة، وآرائه الصائبة والتي جند لها ألفاظه المطاوعة وشكل بها صورا تشبيهية تختلف في أشكالها اللغوية وفي طابعها الإيحائي وفي اكتمال أجزائها واقتصارها على بعض دون الآخر، وفي بساطتها وتركيبها وفي طولها وقصرها إلا أنها تلتقي في نقطة واحدة، وهي تصوير التجربة بأبعادها الفنية والموضوعية، وتلتقي في هدف واحد هي إحداث الانفعال النفسي للمتقّي.

ب- الصورة الاستعارية:

الصورة الاستعارية ضرب من التصوير التشبيهي الذي سبق الحديث عنه، والذي اتفق الدارسون على علو منزلته في البلاغة، غير أن الاستعارة قد تأتي في كثير من السياقات بوجه أهم منه بكثير في مجال التصوير التشبيهي؛ باعتبارها الأكثر قدرة على تخطي الواقع بكل أبعاده.

والاستعارة كما نعلم من المجاز اللغوي، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، وأبقى على الطرف الآخر، فهي مكنية إذا حذف المشبه به، وهي تصريحية إذا حذف المشبه، ويرى السكاكي أن

الاستعارة هي «أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريه الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»⁽¹⁾، ويعد هذا التعريف من أدق التعريفات وأحسنها، لأنه حصر الاستعارتين التصريحية والمكنية في تعريفه كما أكد ذلك الدكتور أحمد مطلوب⁽²⁾.

ويرى ابن المعتز أن الاستعارة هي «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من سنين قد عُرف بها»⁽³⁾، ويبدو هذا التعريف واضحاً قريباً من القارئ العادي، لأن استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها ترسم مباشرة في الذهن صورة المشبه، وتسخير هذه الكلمة لشيء لم يعرف بها ينبه العقل إلى المشبه به، فترسم الصورة النهائية للاستعارة.

أما أبو هلال العسكري فهو يرى بأنها «نقل العبارة عن موضوع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالتعليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه»⁽⁴⁾.

وقد أضاف هذا التعريف لسابقه دور الاستعارة بحيث حصرها في الشرح والتوضيح والتوكيد والاختصار والتزيين.

إن حذف أحد طرفي التشبيه لا يضيق المعنى بقدر ما يفسح مجالاً لحركات ذهنية لترسم الصورة عبر التخيل فتتجلى المعاني في شكل خليط بين المحسوس والملموس يشهد روعته ذلك

(1) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان، دار الرسالة بغداد، دط، 1981، ص 599.

(2) ينظر أحمد مطلوب، فنون بلاغية (بيان وبديع)، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، 1975، ص 126.

(3) ابن المعتز، أبو عبد الله بن المعتز، البديع، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1982، ص 2.

(4) أبو هلال العسكري، الصنائع (الكتابة والشعر)، ص 274.

السياق المتناسق من الألفاظ والعبارات، ولذلك فقد أولاها النقاد والبلاغيون أهمية كبرى في إيصال المعنى وتجليته، وهذا عبد القاهر الجرجاني يجلي مميزاتهما في قوله: «فإنك لا ترى بها (أي الاستعارة) الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس ميتة، والمعاني الخفية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أغرسها ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها، وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل أنها جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت ألطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحية لا تنالها إلا الظنون»⁽¹⁾.

لقد تمكن عبد القاهر الجرجاني في هذا التعريف من إعطاء صورة واضحة لمعنى الاستعارة، بحيث جمع فيه كل خصائص الاستعارة ومميزاتهما، وبالتالي كشف عن قدراتها التصويرية المختلفة التي تنفخ في الجامد من روح الحي فإذا به ينطق ويتحرك كما تستل الروح من الحي فإذا به جامد لا يتحرك، وهي قدرات خارقة تفردت بها الاستعارة عن باقي الصور البيانية؛ لأنها تملك القدرة على خلق الصورة الفنية المعبرة عن رؤية المبدع بصورة متفردة، وعلى الرغم من كثرة التعريفات لهذا المصطلح إلا أنها تدور في فلك واحد وهو «كون الاستعارة نقل الأصل المعروف للفظ أو المعنى الذي دل عليه إلى فرع معنوي لم يوضع له ذلك اللفظ، ولم يعرف به عند أصحاب اللغة وواضعيها»⁽²⁾.

(1) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار الجيل، بيروت، ط1، 1995، ص59.

(2) مختار عطية، علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، دراسة بلاغية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، د ط، 2004، ص 62.

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن الاستعارة تقوم في جوهرها على تسخير الكلمة لموضع لم تعتد الوقوف عنده، بالتالي إلزامها على القيام بوظيفة إيجائية للانتقال من دلالة إلى أخرى وتربط بين الموقفين ميزة المشابهة.

ولقد عني الإبراهيمي بالتصوير الاستعاري البليغ في مختلف صوره عناية كبيرة برزت كالآليء المضافة عبر فنون نثره المختلفة، وقد برع في هذا الاتحاد لما يمتلكه من سحر البيان، فلا يكاد نص من فنونه يخلو من هذا التصوير الذي يسعى به إلى توضيح الرؤية وتوصيل الفكرة وتعميق المعنى، فجاء حَامِلاً لجماليته، وحسن ذوقه، وبعد نفسه وقوة تعبيره، انظر مثلاً قوله: «اللهم يا ناصر المستضعفين انصرنا، وخذ بنواصينا إلى الحق، واجعل لنا في كل غاشية من الفتنة، رداً من السكينة وفي كل داهية من البلاء درعاً من الصبر، وفي كل داجية من الشك، علماً من اليقين، وفي كل نازلة من الفزع، واقية من الثبات، وفي كل ناجمة من الضلال، نوراً من الهداية، ومع كل طائف من الهوى، رادعاً من العقل، وفي كل عارض من الشبهة، لائحاً من البرهان، وفي كل ملمة من العجز، باعثاً من النشاط، وفي كل مجهلة من الباطل، معالم من الحق اليقين، ومع كل فرعون من الطغاة المستبدين موسى من الحماة المقاومين»⁽¹⁾.

وقد تضمن هذا الوصف تصورات استعارية رائعة تعكس دراية الإبراهيمي الكبيرة بعلم البيان، وتبرز جمالية التصوير التشبيهية، هذا التصوير الذي منح للسكينة رداءً وجعل للصبر درعاً، وأضفى على الهداية نوراً، وملك العقل رادعاً، وأكسب البرهان لائحاً وجعل للحق معالم من

(1) الإبراهيمي، البصائر، ج2، ص 15.

اليقين ... كل هذا المزيج العقلي الروحي صبغ على هذا الدعاء صبغة مميزة أفضت إلى صورة كلية مليئة بالظلال والإيحاءات والمشاعر والانفعالات التي تحدث اللذة لدى القارئ، وتبعث في نفسه الرغبة في الاستقاء من بركة هذا الدعاء لما له من سحر مبهر عند القراءة بفضل هذه الاستعارات البارعة، وهذه التقنية المتقنة في تركيب هذه الصور التي تتناسل من بعضها البعض، وتتوالد فيما بينها لتجسد الصورة النهائية المتمثلة في هذا الدعاء الصادق، لأن قيمة الاستعارة تظهر في خدمة الصورة الكلية، فهي من «أكثر الصور أهمية لأنها تتعامل مع شيء ما على أنه شيء آخر»⁽¹⁾، وبالتالي يكتسب صفة من صفاته فيندمج فيه بعلاقة التشبيه.

وتعتبر الصورة إبداعاً فنياً يخاطب الروح والاحساس والخيال معاً؛ لأن ما نحصل عليه من التشابه بين مختلف العوالم من المجازات والاستعارات يكون له تأثيره الكبير في إنهاء الصورة الجمالية الفنية⁽²⁾، وتطويرها وإكسابها أبعاداً حسية نفسية لا يستنشق عطرها إلا قارئ حاذق: «كان الإسلام عزيز الجانب، منيع الحمى، يوم كان يدافع عن نفسه بروحانيته القوية، وحقائقه الواضحة، وعقائده الصافية، وأحكامه السمحة، وآدابه القويمة...»

وكان يدافع عنه جند من أبنائه، عرضهم على ميزاته، فرجحوا، واستعرضهم فنجحوا، وامتنحن قلوبهم للتقوى فتكشفوا عن الطيب والطهر، وتلاقت العقائد الصريحة، والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء»⁽³⁾.

(1) ج كولر، ما النظرية الأدبية، ترجمة هدى الكيلاني، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط3، 2009، ص 84.

(2) ينظر، جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط1، ص 336.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 136.

إن هذا التصوير الاستعاري المتنوع الذي جعل من الإسلام رجلاً عزيز الجانب يدافع عن نفسه بروحانيته القوية على سبيل الاستعارة المكنية يدفع بالقارئ إلى تخيل هذه الصورة الرائعة التي رسمها الإبراهيمي للإسلام، فقد اقتنع أن هذا التصوير الاستعاري التشبيهي هو الكفيل بحمل هذه الرؤية الإيمانية المتأصلة في جذورها؛ لأنه أحس ببعد الناس عن هذه الركيزة الدينية الأساسية، فأصر أن لا يتركها هكذا كلمة عادية بل نفخ فيها من روحه فإذا هي بعظمتها وقديسيتها تتجلى في شكل كائن حي يقوم بحركات فيدافع عن نفسه بما أوتي من روحانية قوية وحقائق واضحة وأحكام سمحة، لأنه يعلم أن العقل الإنساني بطبيعته لا يتأثر بالجماد بقدر ما يتأثر بالحي الذي يبعث في النفس السكينة والهيبة، ولذلك فقد تمكن الإبراهيمي من بعث ومضة فكرية خيالية وفيه لذهن القارئ حتى يدرك حقيقة الإسلام، فيقف عند عظمته وقديسيته، وهو حينما يقول: «...وكان يدافع عن جند من أبنائه، عرضهم على ميزانه فرجحوا، واستعرضهم فنجحوا...» فإنه يؤكد إصراره على ربط الإسلام باللموس حين جعل له ميزانا، وهي دفعة أخرى إلى الذهن لتحريكه واستفزازه ليرسم الصورة المطلوبة المرتبطة بالمشابهة الفعلية للمجرد باللموس على سبيل الاستعارة المكنية التي أضفت بخيالها على هذا الأسلوب طابع الأدبية المؤثر.

إن نثر الإبراهيمي لا يكاد يخلو من التصوير الاستعاري، وكأنه ملتصق به التصاقاً فلا يجهد نفسه في ترصيع كلامه به، وإنما ينثال عليه ضمن كلماته انثيالاً تنبهر له النفوس، وذلك لتمكنه الشديد من ناصية البيان، وعلمه الواسع بأصوله، ومضامينه، فانظر إليه مثلاً في قوله: «أفاقت الأمة الجزائرية إفاقة غير منتظمة، لأن الأحداث التي سببت لها النوم، حققتها بأنواع شتى من

المخدرات، منها ما يفسد الدين، ومنها ما يشكك في اليقين، ومنها ما يزلزل العقل، ومنها ما يشل الإرادة، ومنها ما ينسي الماضي، ومنها ما يغير الاتجاه، ومنها ما يزيح النظر إلى الخير والشر فيغير مفهومها...»⁽¹⁾.

إن هذا النص زاخر بالتصوير الاستعاري الذي يبحث عن المعاني الجديدة التي تنشأ عن هذا الانتقال الذي يكلف به اللفظ، فيؤدي دوراً لم يخلق له، ويسند إلى كلمة، لا يلتقي معها في المنطق والعقل، وإنما بمنطق يفرضه هذه العلاقة القائمة على المشابهة، فالإبراهيمي في نصنا السابق يسند كلمة الزلزال إلى العقل فالقراءة الأولى لهذا التصوير تهدم العقل صدمة خفيفة تجعله يفكك هذا التركيب تفكيكا قائما على المشابهة، فيعيد صياغة التركيب في حركة ذهنية منظمة تبرز صياغتها على النحو المشابه لهذا التركيب: «ومنها ما يزلزل العقل كما تتزلزل الأرض، وحينها يستنتج أن المشبه به وهو الأرض» قد حُذف على سبيل الاستعارة المكنية، وعندها يتقبل الذهن اقتران الزلزال بالأرض استناداً إلى علاقة المشابهة، ورغبة في تسخير أبعاد هذه الكلمة للمعنى الجديد، فيتقبله بإحباطه وظلاله، وهذا ما يؤكد جابر عصفور، يقول: «أننا في كل استعارة - أصيلة - لسنا إزاء طرفين ثابتين متمايزين وإنما إزاء طرفين يتفاعل كل منهما مع الآخر ويعدل منه»⁽²⁾، ويحاول أن يندمج فيه وأن يتجاوب معه، ويسعى إلى التناسق والتكامل لتحصيل سياق عقلي له انفعاله الفكري وتجاوبه النفسي لدى القارئ، ولذلك فإن كل طرف من طرفي الاستعارة يفقد شيئاً من معناه الأصلي، ويكتسب معنى جديداً نتيجة لتفاعله مع الطرف الآخر داخل

(1) المصدر السابق، ج2، ص 285.

(2) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص 226-227.

سياق الاستعارة الذي يتفاعل بدوره مع السياق الكامل للعمل الشعري أو الأدبي»⁽¹⁾، وهذا ما يبدو واضحاً في التصوير الاستعاري عند كل الأدباء، ففي قول الإبراهيمي مثلاً: «إن وراءنا من الزمن سائقا عنيفا، وإن معنا من العصر وروحه زاجرا مخيفا، وإن أمامنا سبلا وعرة، صراطا أرق من الشعرة وإن عن أيما ننا وعن شمائلنا عوائق من الدهر»⁽²⁾.

فنحن لا يمكن أن نتصور أن الزمن يمكن أن ينقلب ذات يوم إلى سيارة لها سائق ولكن السياق الإبراهيمي في النص السابق جعل الزمن وسيلته للنقل وكلف لها سائق ليقوم بمهمة السياقة بفضل خياله الواسع فقد فقد الزمن - وهو المشبه في هذا السياق - خاصيته المحسوسة عندما أسند إليه سائق، ثم تفاعلت المصطلحات مع بعضهما بفضل علاقة المشابهة القائمة بينهما في السياق الاستعاري، وبالتالي يكتسب التركيب اللغوي الجديد معنى آخر بفضل هذا التركيب الغير منطقي لتعطي في النهاية التركيب الجديد الذي يحمل المعنى الجديد الذي سطره الإبراهيمي، في خياله وجسده الاستعارة عبر سياقها.

وقد تنوعت سياقات الاستعارة في نثر الإبراهيمي تنوعا مرتبطا بجدية الموقف وسعة الخيال في شكل يعكس وعيا تاما بأهمية هذه الصورة في تخطي الواقع من أجل تحريك الذهن وتنشيطه لاستيعاب الحقائق وفهم الرؤى والأفكار فهما يربط بين المحسوس والملموس، فيدفع المتلقي إلى إقامة جهد ذهني داخلي يفكك من خلاله الأجزاء المركبة لهذه الصورة في محاولة لإقامة علاقة بين ما هو ملموس فيها وما هو محسوس مرتبط بالخيال، وذلك لاستيعاب الصورة ومنحها الظلال

(1) المرجع السابق، ص 227.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 288.

التي خططها الكاتب واستقبلها ذهن القارئ بحسب قدراته في الالتقاط، ومهارته في التحليل والتركيب، ففي فن المقال نجد مثلاً قوله: «والأُمم إنما تتفاضل بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وما عدا هذه الأربعة فهو فضول عابث، لا يخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكل أولئك مجتمعة ومتفرقة، بنّوا المساجد مظهراً للخير، وشادوا المدارس مظهراً للمنفعة، وأعلوا الحصون مظهراً للقوة، وسمكوا القصور مظهراً للجمال، فضموا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكمال، وقادوا الحياة بزمام، وأنشأوا بذلك للحضارة الانسانية الشاملة نموذجاً من المدنية الفاضلة التي تخيلها حكماء اليونان»⁽¹⁾.

لقد عبر الإبراهيمي في هذا النص عما يجول في خاطره بنظرة عقلية قوامها الواقع الملموس حينما صور تفاضل الأمم فيما بينها بمظاهر عقلية منطقية، فجاء تصويره هذا زائراً بالصورة الاستعارية عندما جعل للفخر أطرافاً، وللمجد حواشياً وللكمال آفاقاً، وكلها تشكل صوراً رسمها الإبراهيمي بكلماته واستقبلها المتلقي في ذهنه بعد تفتيتها وتفكيكها وتحليلها، ولذلك بات من الواجب على القارئ أن يتسلح بثقافة واسعة تقارب حد ثقافة المبدع ليتسنى له فهم معانيه ورؤية صورته.

وكذلك استخدم الإبراهيمي بلاغة التصوير الاستعاري في فن الرحلة إذ ببراعة كبيرة استطاع أن ينقل الصورة للقارئ فيجعله يرتحل معه بخياله، ويكتشف جمال الرحلة معه؛ لأن هذا الفن هو الأكثر احتياجاً لمختلف الصور البيانية من تشبيه واستعارة، فهي تساعد القارئ على تخيل جو

(1) المصدر السابق، ص 285.

الرحلة وتصور تفاصيلها والإحساس بأنفس صاحبها، ونموذج ذلك من نثر الإبراهيمي قوله: «... فأشهد مخلصاً أنني خرجت مرفوع الرأس تيتها، مملوء النفس فخراً، مفعم الجوانح إعجاباً بهذه الجامعة التي هي مفخرة الشرق وحجته على الغرب، وأشهد مخلصاً لقد أحسست بعد الخروج كأن وجودي تضاعف مليون مرة بوجود هذه الجامعة^(*)، ومعدرة لمن يتهمني بالمبالغة، فأنا من قوم يشهدون كل يوم بناء ليس لهم فخره ولا نفعه وبناء ليس منهم أصله ولا فرعه، ويلقون في كل ساعة خصماً يرميهم ويرمي جنسهم بعقم الفكر»⁽¹⁾.

إن صفة العقم لا تعطى سوى للفرد الذي استحال إنجابه وعندما تقترب هذه الكلمة بلفظ الفكر، فإن ثمة صورة استعارية متعمدة من طرف الكاتب، بحيث أنه شبه الفكر بإنسان عقيم وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو العقم في محاولة منه لتسخير هذا المصطلح لخدمة المعنى الجديد الذي يربط الملموس بالمحسوس، فتتجلى الصورة واضحة بمعانيها عندما يكتسب الفكر صفة لا يتقبلها العقل إلا بصعوبة.

ومن روائع استعاراته في المقامات قوله: «كلام الكاهن ليس بالواهي ولا الواهن، كأنما وخزه الماء، أو لامسته السماء ففيه من الماء إिरاق وفيه من السماء إشراق؟»⁽²⁾.

إنه تصوير استعاري رائع زاده روعة ذلك الوقع الموسيقي الناجم عن السجع، فقد أبدع الإبراهيمي عندما جعل للماء وخزاً كالإبر ثم جعل للسماء يداً كالسماء، وما أروع أن تسند

(*) هي جامعة فواد الأول ومديرها آنذاك هو سعادة بن عبد الوهاب مور باشا، نقلاً عن الآثار، ج4، ص 31.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 32.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 596.

للماء صفة الإيثار؛ وهذا الأسلوب يعكس تمكن الإبراهيمي من ناصية اللغة، وتحكمه المتقن في معاني الكلمات فهو ييث الحياة في المعاني المجردة عندما يسند الفعل إلى المستعار له فيثري الاستعارة بالحركة والحيوية؛ ولذلك يعتبر تشخيصه للصورة وتجسيمها ناجما عن إدراك تام بمضمونها، ووعي شديد بأهميتها في إنارة المعنى وتوضيحه؛ لأن «العلاقة بين طرفي الاستعارة هي علاقة انصهار واتحاد، إذ يتحول المستعار له إلى كائن يحمل كل صفاته وخصائصه وملامحه»⁽¹⁾، فانظر إليه مثلا في إحدى رسائله إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة^(*) يقول: «وأحي بأحسن منها إخواني العلماء من حضر منهم في هذا المشهد ومن غاب عنه - أولئك الذين طبعتهم يد الرحمان على أن يكونوا ألسنة العروبة وحرسة الإسلام بهذا الشمال الإفريقي - تحية تحرك النفحات سواكنها وتثير المناسبات كوامنها، في هذه المناسبة التي حقيقتها ومغزاها إعلان الفضل من أهله، ووصل لرحم علمية لو أتى عليها النسيان لأضحت مجفوة»⁽²⁾.

إنه زمن زاخر بالتصوير الاستعاري شحّصه الإبراهيمي في سياق استعارة مكنية حينما جعل للرحمان يدًا مباركة، كما أنه صور التحية في شكل كائن حي تحرك النفحات سواكنها، وهو تشكيل استعاري يتركب من استعارتين ممتزجتين مع بعضهما، لأنه إضافة إلى ذلك التجسيم الذي صبغه على التحية، فقد جسم أيضا النفحات في شكل يتحرك، وهو تركيب يرتقي إلى منزلة عالية من البيان الساحر، لا يتوافر على الألسن إلا لدى عبقري متمكن كالإبراهيمي، ويستمر في نسج صوره الاستعارية التي امتدت إلى النسيان وخلقت له أرجلا للمشي، فجعلته

(1) وجدان عبد الإله الصائغ، الصورة البيانية في شعر عمر أبو ريشة، ص 58-59.

(*) بعث الإمام الإبراهيمي هذه الكلمة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة (تونس)، مشاركة لهم في إحياء الذكرى السابعة لوفاة ابن باديس (أفريل 1947)، ونشرت في جريدة (العبرة)، ع3، تلمسان، الجزائر، 316، نقلا عن الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص152.

(2) نفسه، ص152.

الصورة - بفضل عبقريتها - يأتي مهرولا، لأن الاستعارة بإمكانها أن تضيف على الأشياء المعنوية سمات إنسانية.

تلك أمثلة دالة على التصوير الاستعاري الذي نثره الإبراهيمي عبر فنون نثره الأدبي، وهناك أمثلة كثيرة تستعصى على العد والاستقصاء تأتي على لسان الإبراهيمي عفوية ناجمة في البيان العربي الساحر، الذي سيطر على تفكيره الأدبي سيطرة تكاد تكون تامة بحيث نلمس ظلاله وألوانه عبر لوحاته الإبداعية في مختلف فنونه النثرية، فقد أبدع في تحريك المجردات والجمادات، وبت فيها الحياة بقوة أدبية تعكس مهارة فنية الرسم، وتجسد مهارة التصوير، فتتلون الصورة بما يشبه فيها من معاني تنبعث من روحه المعلقة بين الواقع والخيال مستثمرا لغته الأصلية وما تشع به من إحياء استعاري في كل اتجاه، وذلك بوعي تام بأن الاستعارة تعمل على نقل اللفظ من مفهومه اللغوي المحدد إلى دائرة أخرى جديدة على اللفظ، غير أنها تشمل به بظلالها، إذ لو بدا اللفظ جسما غريبا في كيان الصورة الاستعارية لما تألف معها⁽¹⁾، وهو ما لم نجده في آثار الإبراهيمي بحيث بدا اللفظ منصهرا مع الصورة الاستعارية التي كُلف بها فبرزت للقارئ متواشجة متسقة مع الإطار الذي وُضعت فيه مؤدية رسالتها للقارئ الحاذق الذي يستطيع ربط الخيال بالواقع.

(1) ينظر، مدحت سعد محمد الجبار، الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الداري العربية للكتاب، ليبيا، دط، 1984، ص 163.

ج/ الصورة الكنائية:

تتموضع الكناية ضمن نسق الصور البيانية باعتبارها وسيلة للتصوير الفني، لها وهجها المؤثر في بناء النصوص الأدبية، فهي لغة تعني «أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره»⁽¹⁾، ويقترّب هذا التعريف من المعنى البلاغي باعتباره لفظاً أطلق وأريد به معنى آخر مع جواز إيراد المعنى الحقيقي⁽²⁾، وقد عرفها عبد القادر الجرجاني بقوله: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»⁽³⁾، وهي بذلك ترمي إلى التعبير الغير مباشر الذي ينفخه الأديب خلف معاني كلماته، فيدفع بالمتلقي إلى التأمل والإدراك ويدعوه دعوة غير مباشرة إلى إمطة اللثام عن المعنى المباشر للألفاظ في متعة قرائية تتطلب فنية قارئ حاذق، وهو بذلك «يستثير الشوق والرغبة في نفس القارئ، فيجد كل منهما المتعة الفنية التي يصل إليها بعد البحث والتأمل»⁽⁴⁾.

وتعتبر الكناية عند الكثير من الدارسين عن أبلغ أساليب البلاغة وأكثرها سحراً، وذلك لخاصية التغطية التي تلفها على المعنى بحيث تمكن الأديب من التعبير عن الكثير من المعاني التي يتحاشى الإفصاح عنها مباشرة.

والكناية أسلوب يعتمد الكاتب للتعبير عما يختلج في صدره، ولا يرغب في البوح به، وذلك باللجوء إلى صور «تومئ إلى المعنى وتشير إليه دون أن تفصح عنه، فهي تجعل المعنى المراد

(1) محي الدين فيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (ك ي)، مكتبة مصطفى البابي، ط2، 1952.

(2) ينظر الخطيب القزويني، الإيضاح، منشورات، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط4، 1975، ص456.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة خانجي، مطبعة المدني، القاهرة، ط2، 1989، ص66.

(4) ينظر، محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي، ص249.

مختفياً وراء صورة المعنى الظاهر، فتتخذ بذلك شكل التعبير بالصورة»⁽¹⁾ الموحية التي تحمل مظهرها خارجياً واضحاً وتخفي مظهرها آخر لا يراه الناظر إلا تحت السطور، وبالتالي فهي «لا تعبر تعبيراً تقريرياً مباشراً وإنما تلجأ إلى الأسلوب الأوفر تأثيراً والأعمق دلالة»⁽²⁾، ولذلك فهي تعد من أبرز القيم التي تعزز المعنى وتقويه مقارنة مع الاستعمال المباشر، لأن «السري في بلاغتها أنها في صورة كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها»⁽³⁾، وفي هذا الشأن يؤكد القزويني أن «الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر»⁽⁴⁾، لأن البحث عن الخفي فيها يتطلب الإثبات بالدليل، وهو أبلغ من أن يجيء إلى الحقيقة فيجدها مباشرة جاهزة ساذجة.

إن استخدام أسلوب الكناية في العمل الأدبي دليل على ذكاء المخاطب وفطنته وثقافته الواسعة، وتنشيط لذهن القارئ لاكتشاف الخفي من المعنى ضمن الكناية، ومن خلال تتبعنا لآثار الإبراهيمي اتضح لنا أنه اعتمد هذا الأسلوب في الكثير من مواقفه الأدبية عامة والإصلاحية خاصة، بحيث أنه يعتبر الكناية وسيلة مهمة لتصوير ما يرغب في البوح به عن طريق الكلام المباشر، فالإبراهيمي معروف بعبقريته الكبيرة وتمكنه الشديد من البيان العربي مستنداً في ذلك على قدرة القارئ في تفجير طاقة اللفظة، وبالتالي كشف المستور خلفها وحينها تظهر عبقرية الإبراهيمي وفنية القارئ.

(1) زكية خليفة مسعود، الصورة الفنية في شعر ابن المعتز، ص 282.
 (2) وجدان عبد الإله الصائغ، الصورة البيانية في شعر عمر أبو ريشة، ص 74.
 (3) عبد السلام ضيف، الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، ص 124.
 (4) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ص 468.

ومن أروع نماذج الكناية في نثر الإبراهيمي ما ورد في مقاله الساخر إلى "الزاهري"⁽¹⁾ الذي صور فيه جل سخطه وغضبه لتصرفات الزاهري المسيئة لجمعية العلماء المسلمين، وبين حقيقته تجاه وطنه في مقال زاهر بالصور الموحية لما يكنه الإبراهيمي لهذا الرجل من غضب وسخط وكره صبه في قالب متنوع من الصور المفعمة بالدلالات والمشاعر، وهو أمر طبيعي يصدر من مبدع غيور على وطنه؛ لأنه من الطبيعي أن «يعمد الأديب في التصوير إلى التوسع في الإشارة رغبة منه في مزيد من الإفصاح عن مكنون نفسه، فيستعير صوراً متعددة، أو يعدد الإشارة إلى جزئيات صورة واحدة، ويمنحها دلالات شعورية خاصة، وذلك للتشابه الفكري والنفسي الذي يلحظه الأديب بينها والصورة التي يريد أن يرسمها»⁽²⁾ وينقلها للقارئ ليشاهدها بعيون التأمل والتمعن منشطا ذهنه في محاولة لاستيعاب الصورة الكلية، ومن ضمن أجزاء الصورة الكلية التي رسمها الإبراهيمي للزاهري نقف عند قوله: «كتبتَ أيها الشيخ كثيرا من الباطل، وسنكتب قليلا من الحق... وربما رحمنك من هذه النار التي تصلاها، وهي نار الحقد، ومعدرة... فإن من الميسور أن نطفئ النار ذات الوقود وليس من الممكن أن نطفئ الحقد من صدر الحقد»⁽³⁾.

لقد رسم الإبراهيمي من خلال هذا النص صورة للزاهري ألقى عليها بنور ألوانه النفسية ما أماط اللثام عن حقيقة طبعه السيئ، فعبارة "ربما رحمنك من هذه النار التي تصلاها" كناية واضحة على أن الزاهري رجل حسود وحقد، وهي صفات إذا ما توفرت في الإنسان جعلته يتمنى زوال النعمة للآخرين، وبالتالي فهناك إشارة خفية لتمنيه زوال جمعية العلماء، وهو طبع

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص558.

(2) محمد ناصر بوحجام، السخرية في الأدب الجزائري الحديث، ص 357، 356.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص558.

سيء لا يمكن علاجه، ولذلك يورد بعدها الإبراهيمي صورة تشبيهية كناية لاستحالة إزالة هذا الطبع في قوله: «فإن من الميسور أن نطفئ النار ذات الوقود، وليس من الممكن أن نطفئ الحقد من صدر الحقود»⁽¹⁾ في إشارة منه إلى استحالة علاج هذا الداء الخطير الذي إذا استفحل في النفوس أهلكها وجعلها تهلك غيرها.

ويستمر الإبراهيمي في بناء الصورة الكلية لذلك الرجل الحاقد، وفي كل مرة يضيف عليها شيئاً من الغموض المتعمد بتقنيات متعددة يمارس الخطاب من خلالها آليات الحجب، والتسخير بتعدد الصور الجزئية التشبيهية والاستعارية والكناية، فيفضي بكل مكنوناته للقارئ ليدعه يبحث ويكشف المحجوب بما أوتي من قوة إدراكية لتفجير الصورة واستيعاب طاقاتها الإيحائية، ومن ثم يكشف عن الأوراق السرية التي أخفاها الإبراهيمي ضمن مستنداته الإبداعية، وتركها لقارئ حاذق يحسن فك الرموز، يقوى على تفجير طاقة الكلمة، لأن الإبراهيمي رجل ذكي ويدرك أنه «كلما ازداد الحجب ازداد إمكان الكشف وتنوعت احتمالات القراءة»⁽²⁾، ولذلك تتعدد القراءات للصورة الواحدة بحسب قوة النص في الحجب وقوة القارئ في الكشف، فانظر إليه مثلاً في نفس المقال: «فما عهدناك تصبر على طعام واحد، وما عهدنا أسيادك يسقون الشجرة بعد جني الثمرة»⁽³⁾، وما من شك في أن الإبراهيمي لا يقصد المعنى المباشر للجملتين، فقوله: «لا تصبر على طعام واحد» لا يعني بأن الزاهري يرغب في الكثير من الطعام المتنوع، بقدر ما يرمي إلى أبعاد معنوية تتجاوز الشهوة الجسدية إلى الطمع في كل شيء وعدم الرضى بالقليل، وفي

(1) المصدر السابق، ص 558.

(2) علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005، ص 18.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 558.

قوله: «وما عهدنا أسيادك يسقون الشجرة بعد جني الثمرة» كناية على أن أسياد الزاهري وعملائه هم أناس لا يشكرون النعمة، بل ويقابلونها بالإساءة، فلا يعترفون بالفضل لصاحب الفضل، والفكرة هنا إشارة إلى تلك الأنانية الدفينة في نفوسهم وحب الذات.

ومن روائع الكناية في هذا المقال تلك الصورة الكنائية الإشارية التي استلهم فيها أحد مواقف الزاهري الغريبة المناقضة للعقل والفطرة نتيجة تذبذبه في انتسابه إلى فئات مختلفة متباينة النزاعات، حيث يقول: «كنت متشوقا إلى خدمة من تسميهم باللائكيين ولو أعاروك التفافة، أو أشاروا إليك بغمزة، لكنت اليوم من عبيدهم المطيعين، ولكانت اللائكية في نظرك ملائكية، ثم عرجت على الشيوعيين، ولهم معك ماض معروف، فوجدتهم أيقاظا، ذاكرين لذلك العهد، مثنين عليك بمثل ريح الجورب، ولو آنست في ذلك العهد من جانب الطريقية نارا، لقلت في غير تردد، إني أجد على هذه النار هدى»⁽¹⁾.

لقد تفنن الإبراهيمي في هذه الصورة إلى حد الإبداع، فهو لا يزال يشكل أجزاء الصورة الكلية ويربطها ببعضها في محاولة مستمرة لإبراز صورة نهائية لهذا الرجل الضال^(*)، ثم إن طاقة الإبراهيمي الإبداعية منبثقة من تحرير المشهد القرآني العالق في ذهنه في الآية الكريمة: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى⁹ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى¹⁰﴾⁽²⁾.

(1) المصدر السابق، ص 562.

(*) عن أسباب الخلاف بين الإبراهيمي والزاهري، ينظر آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص121.

(2) سورة طه، الأيتان، 9-10.

لقد استثمر الإبراهيمي إحياء الآية الكريمة عندما خرج موسى - عليه السلام - من مصر هاربا من فرعون وجنوده عائدا إلى مدين، وقد ضل الطريق «وأصابه البرد ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره»⁽¹⁾ واهتدى إلى نار رآها ليأتي منها بجذوة قصد الاهتداء إلى الطريق الصحيح^(*)، محاولا في براعة إسقاط هذه الآية في إشارة كنائية بارعة في صورة معاكسة لموقف الزاهري الذي يتبع نار الطريقة لينتقل عكس ما توحى به الآية من هدى إلى ضلال في صورة كنائية تهكمية ساخرة وظف فيها الإبراهيمي معنى الآية لتسخره في دفعة تنشيطية لفطنة القارئ يرجوه بها إلى إقامة إسقاط معاكس يستوعب به إشارة الآية استيعابا انقلابيا ضديا مخالفا لطريق الهدى نحو الضلال.

ويرسم الإبراهيمي صورة كنائية أخرى يعبر فيها عن ظلم فرنسا وكل ما يتولد عنها من تجبر وطغيان وإساءة وحرمان وإهانة وعدوان مختصرا كل ما يحيط بهذه المعاني من إجحاءات ودلالات في كلمة "الحنظل" حيث يقول: «هذه هي فرنسا التي نعرفها، أو هذا هو الجانب الذي نعرفه من جوانب فرنسا، قلنا فيه ما نعرف، وشهدنا بما نعلم فإن كان لها جانب غير الذي عرفناه، فسلوا عن العسل من ذاقه، أما نحن فقد ذقنا الحنظل، فوصفنا الحنظل»⁽²⁾.

إنها صورة كنائية مجسدة في هذا الطعم المر للحنظل، أراد بها الإبراهيمي إخفاء المعنى الصريح الذي لا يريد البوح به، والذي يتجسد في كل ما يحمله العدو لخصمه من إساءة تبعث

(1) عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في بيان كلام المنان، دار الهيثم، ج2، القاهرة، 2002، ص 593.
 (*) وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجدتم النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، المرجع السابق، ص 593.
 (2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 413.

فيه الإحساس بالمرارة المشابهة لذوق الحنظل، فسخر هذا اللفظ بكل ما يحمله من دلالات لغوية اختصاراً للطريق بينه وبين المتلقي، وتقريباً لغيظه النفسي الدفين من فرنسا، فأثبت بذلك معاني عديدة دون ذكرها حين سخر طاقة لفظ الحنظل لحملها معتمداً على ثقافة القارئ ومعرفته القبلية بذوق الحنظل وإلا فلن يتحسس تلك المرارة، وبالتالي يقف عاجزاً على إسقاطها على أفعال فرنسا الشنيعة، ولذلك فهو يدعم قوله بلفت نظر القارئ إلى حلاوة العسل في دعوة صريحة إلى السؤال عن هذه الحلاوة، لأنه يدرك استحالة توفر هذا العسل الذي يرمز إلى الجانب الإيجابي من أفعال فرنسا، وهي بذلك صورة مكملّة لصورة الحنظل في المناقضة للواقع صورها الإبراهيمي في شكل إشارة كنائية خفية توحى بأن العدو يظل عدواً، ولن تذوق منه إحساناً تماثله بالعسل، بل أكثر ما ينبعث منه ذوق مر مرارة الحنظل.

ومن روائع تصويره الكنائي قوله: «هذا هو الجهاد الأكبر الذي لا يعذر المصلحون في العالم الإسلامي في التخلف عن ميدانه، وهو في حقيقته وواقعه معركة بين الإيمان والكفر على شبابنا، فمن ظفر فيها غنمه،... والجولة الأخيرة ستبتدئ من الصبية قبل الشبيبة، فعلى المصلحين أن يبادروا بتلقيهم "بالمصل الوافي"»⁽¹⁾.

لقد كنى الإبراهيمي في هذا النص عن التربية الإسلامية الصحيحة الكاملة بعبارة "المصل الوافي"، بحيث سخر هذه العبارة لحمل معنى آخر صرح به مباشرة بقوله "ما هو إلا التربية الإسلامية الصحيحة" ربما لأهمية نوع هذا المصل وضرورته لإعداد الشباب إعداداً صالحاً رأى

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص27.

الإبراهيمي أنه من الضروري أن يكشف عن المعنى الذي أخفاه ضمن عبارة المصل الواقعي، لأنها قضية مصيرية لا يجب أن تترك لتعدد القراءات كي لا يضع القارئ احتمالات قد تحول دون صلاح ركيزة المجتمع من الشباب، وهو نفس الأسلوب الذي نجده في نموذج آخر، بحيث يسرع الإبراهيمي في الإفصاح عن مكنونه رغبة في كسر الاحتمالات المتعددة كلما رأى أو أحس بواجبه نحو قيمة الموضوع الذي يعالجه، فيرسم صورته الكنائية بتسخير اللفظ لحمل المعنى الخفي الذي يخفيه في نفسه، ثم ما يلبث أن يفصح عنه إفصاحا مباشرا فيه من الجرأة والجدية ما يطمس كل القيود يقول: «هذا الاستعمار لعقولنا وأفكارنا هو أخطر أنواع الاستعمار علينا، وهو الذي مهد للطامة الكبرى التي هي مأرب الاستعمار، وهي هذه الوطنيات الضيقة المحدودة التي زينها لنا وحببها إلينا، ولو كانت خيرا لسبقنا هو إلينا في أمه وأوطانه، ولكنه يتكل ليقوى في نفسه، ويفرقنا لنضعف زيادة في قوته»⁽¹⁾.

لقد صور الإبراهيمي في هذا النص أخطر أنواع الاستعمار موظفا صورة كنائية جسدها في عبارة "الطامة الكبرى"، بحيث سخر كل المعاني المتفجرة عن هذه العبارة في تصوير تلك الوطنيات الضيقة التي حددها الاستعمار، والتي باح بها الإبراهيمي مباشرة بعد عبارته الكنائية "الطامة الكبرى" حرصا منه على توجيه القارئ إلى القراءة الصحيحة التي شحنها في كنياته، لأن تعدد الاحتمالات والايحاءات والقراءات "للطامة الكبرى" وارد بغزارة باعتبارها من أخطر مخلوقات الله على الإطلاق لما تحمله في أعماقها من سم قاتل.

(1) المصدر السابق، ج4، ص156.

وختاما فقد كانت هذه نماذج حاولنا من خلالها أن نبين قدرة الإبراهيمي في تقديم المعاني المقصودة من خلال تسخير معاني أخرى مرتبطة بها لتحمل رسالتها ضمن طياتها، فكانت الكناية ضربا من ضروب التصوير الإبراهيمي التي لا يمكن إغفالها لما تحمله من بلاغة الانتقال بالتعبير من معنى اللفظ المباشر إلى المعنى الذي أراده الإبراهيمي، وفسح مجال القراءة للقارئ الحاذق الذي يشترط أن يكون بارعا في فك الرموز، ومحللا ماهرا يعرف كيف يربط الألفاظ بمدلولات أخرى لا تخرج عن جنسها وإنما تملك من صدى الانفجار ما يوصلها إلى معان أخرى في ذات السياق بما يدفع نحو الإثارة والتشويق.

الفصل الثالث: الذوق البديعي

عند الإبراهيمي

الذوق البديعي عند الإبراهيمي:

توطئة:

لقد عرف عن الإبراهيمي أسلوبه القوي الجزل الذي يعتمد على السجع والمحسنات البديعية يرشها في كلامه بتلقائية ساحرة في شكل «ومضات رائعة بكل آفاقها وأبعادها»⁽¹⁾، فيأتي حديثه متأنقا جزلا متنوع الإيقاع لا يحس القارئ معه بالملل، خاصة وأن قدرته على توظيف المفردات توظيفا موسيقيا فاقت حدود الإبداع؛ لأنه يمتلك الموهبة في حسن الربط بينها وبين ما تحمله في مضمونها من معان وبالتالي يسمو بأسلوبه إلى حد الإبداع والتفنن، «لأن شخصيته موسوعية مشدودة إلى الماضي مستغرقة في الأساليب التراثية بفاعلية الحاضر، وموسوعية الأمس، في اتقان واتزان، وترو في اختيار الجمل التي تتماسك، وتتناسق، وتتجاوب في إيقاع موسيقي هادر»⁽²⁾ يبعث في النفس الإنفعال والتأثر.

ولذلك حفلت آثاره بالعديد من صور المحسنات البديعية التي كان لها إيقاعها الحاضر في مختلف أشكال نثره الفنية بحيث «لا يكاد يخلو منها فن، بل فقرة أو نص، فقد عدت من ثوابت أسلوبه المتأنق، ومن وسائل إبداعه الفني فلمعت في فنه كأنها الريشة والأصباغ في يد الفنان الماهر، لا يتخلى عنها ما دام يريد تعبيرا عن فكرة أو تنويرا لرأي»⁽³⁾.

(1) محمد زغبنة، المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 80.

(2) نفسه، ص 81.

(3) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 106.

إن للإبراهيمي أسلوباً ساحراً يحمل لغة راقية نجمت عن موهبة ودراية وخبرة، فالدارس لنثره «لا يرى في محسناته أي تكلف ولا أي سذاجة، وإنما يرى الجمال والإبداع، يرى السجع الفني، والجناس المحلي، والطباق الذي يخدم المعنى»⁽¹⁾ ويزين المبنى بوقعه الموسيقي.

ولما كان المقام لا يسمح باستقراء جميع المحسنات البديعية في آثاره النثرية، فقد اقتصرنا على جملة معينة من تلك المحسنات اللفظية والمعنوية وهدفنا أن نستجلي محاسنها في تجلية المعنى، ونتبين جمالها في وقعها النفسي وما يبعث به من آفاق في الانفعال الذهني، ومن ثم التجاوب الأدبي مع الفكر الإبراهيمي.

1- المحسنات اللفظية:

1-أ- الاقتباس من القرآن الكريم:

لا يخفى على أحد ما للقرآن الكريم من فصاحة وبلاغة وقفت أمامها العقول عاجزة عن الإتيان بمثله، فما كان للكتاب سوى «الانتفاع بحسن سبك هذا النظم القرآني العجيب في إثراء نصوصهم، وتزيينها بذكر آية تصريحاً أو تلويحاً»⁽²⁾ أو اقتباساً بحيث يسعى كل مبدع إلى تنوير إبداعه بالإغتراف من هذا المنبع الأصيل الذي لا ينطفئ نور كلماته ولا إشعاعها على مدى

(1) المرجع السابق، ص 108.

(2) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في لسان الدين بن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية) ص 253.

العصور، فمتى خلي منه الكلام كان عاطلا عن المحاسن عاريا من المفاضل لأنه بحق الحجة التي تدحض والحقيقة التي لا ترفض⁽¹⁾.

والاقتباس عند الدارسين والبلاغيين هو أن يضمّن المتكلم كلامه شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف دون أن يشعر المتلقي بذلك⁽²⁾، فإن صرح المقتبس بذلك «فلا يكون اقتباسا، بل يكون استشهادا أو استدلالا»⁽³⁾.

وقد تنبه الإبراهيمي -الذي حفظ القرآن الكريم وتذوق حلاوته وفهم قواعده وفقه أصوله فهما عميقا- إلى قيمة هذا السيل القرآني وانعكاسه المؤثر على الإبداع الأدبي، فاتخذ منا را لطريقه الإصلاحية، وحلّى به إبداعه الأدبي واتخذ منه نبراسا ينيره كلما استلزم السياق ذلك مراعيًا في استعماله بين الاقتباس والاستشهاد والتضمين، فلا يكاد يخلو مقال من الاقتباس القرآني الذي يدمج آياته ببراعة في وسط عباراته «ويوظفه توظيفًا رائعًا في الدفاع عن قضاياها، فلا يدرك كنهها وبعدها إلا العارفون المتضلعون في فن إعجازه البياني»⁽⁴⁾.

ومن أمثلة الاقتباس ما ورد في مقال جمعية العلماء: "أعمالها ومواقفها"⁽⁵⁾ في حديثه عن كثرة الأحزاب وسلبيات هذا التعدد الذي لا يعد إلا نقصا في القوة والوحدة ورغبة في نفس العدو تتحقق به، يقول: «إن كثرة الأحزاب في أمة عنوان يقظتها وانتباهها، وضمان وصولها إلى

(1) ينظر، أمين الدين أبو القاسم، القانون في ديوان الرسائل، لحق أيمن فؤاد، مصر، الدار المصرية اللبنانية، دط، 1990، ص8.
(2) ينظر، بيسوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط3، 2011، ص206.
(3) نفسه، ص260.
(4) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص6.
(5) نفسه، ص64.

حقها، ولكننا لم نرم تعدد الأحزاب إلا نقصا في القوة، ونقصا للوحدة، وتنفيسا على الخصم، واشتغالا من بعضهم ببعضهم، وتعاليت كلمة القرآن حتى لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجميع إلا في مقام الخلاف والهزيمة ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾⁽¹⁾ ﴿جُنُدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾⁽²⁾، ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ المفرد إلا في مقام الخير والفلاح ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾⁽³⁾، وإن حزب الله في الأمة الجزائرية هو جمعية العلماء، وإنها لمفلحة لا محالة⁽⁴⁾.

إنه اقتباس بارع يثبت عبقرية صاحبه في توظيفه وسط عباراته، بحيث زادها قوة وصلابة وتماسكا وجمالا وحجة وصلابة فاستطاع الإبراهيمي أن يلفت عقل القارئ ويجلب تركيزه بما لا يدع للشك طريقا في ذهنه عندما أدخل تلك الآيات وسط كلامه بحيث يقتنع القارئ كل الاقتناع بأن حزب الله في الأمة الجزائرية هو جمعية العلماء بكل أصولها وفروعها، وهو على يقين تام بأنها المفلحة لا محالة ربطا بما جاء في الآية الكريمة، وهو منهج في الخطاب قَدْ مَبْهُرٌ نادر مستميل يرسل أنواره في طريق القارئ بروحانية إسلامية تنفتح لها القلوب وتنشرح لها النفوس وتنقاد لها العقول.

ومن نماذجه الرائعة أيضا في الاقتباس ما ورد في مقاله المعنون بـ"ذكرى 1 ماي" في قوله:

«أمة كالأمم حلت بها ويلات الحرب كما حلت بغيرها، وذاقت لباس الجوع والعري

(1) سورة الزخرف، الآية 65.

(2) سورة ص، الآية 11.

(3) سورة المجادلة، الآية 22.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص66.

والخوف»⁽¹⁾ فيه اقتباس من الآية الكريمة: ﴿...وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾⁽²⁾، ولا يخفى ما لهذا الاقتباس من دور في تقوية المعنى وتنويره، بحيث «تبدو وسطه كالضياء اللامع، والنور المشرق»⁽³⁾.

ومن الاقتباس من القرآن قوله أيضا: «ولو آنست في ذلك العهد من جانب الطريقة نارا، لقلت في غير تردد: إني أجد على هذه النار هدى»⁽⁴⁾، وقد اقتبسه من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدى﴾⁽⁵⁾، وقد سبق التطرق إلى تحليل هذا النموذج في المبحث السابق في التصوير الكنائي.

وفي موضع آخر من مقال بعنوان "محنة مصر محتنا"⁽⁶⁾ يتحدث فيه الإبراهيمي عن مصر ويصور محتنها مع الإنجليز، وعزمها على تكسير قيوده ونفض غباره فاستفرغت لذلك كل جهودها، لأنها أدركت «أن ساعة العمل خير من ألف شهر في الكلام وأنها تمارس خصما إن استنجزته الوعد طاول، وإن تقاصرت أمامه تطاول»⁽⁷⁾، وهو اقتباس واضح من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ¹ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ² لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ³﴾⁽⁸⁾،

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 370.

(2) الآية 11 من سورة النحل.

(3) بيسوني عبد الفتاح فيود، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، ص 260.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 562.

(5) الآية 9-10 من سورة طه.

(6) عيون البصائر، ج2، ص 556.

(7) نفسه، ص 557.

(8) الآيات 1-3، من سورة القدر.

وهذه الإشارة الخفية تجعل القارئ يعظم ساعة العمل، ويدرك قيمتها الكبيرة في التغلب على العدو دون أن يخفى عليه مما زادته في سياق الكلام من قوة في المعنى وهيبة للعنصر المستهدف بالاعتباس، ويواصل الإبراهيمي توظيفه للسياق القرآني واقتباسه البارع منه في الموقف نفسه مصورا جدية مصر في تحطي الواقع مبينا تمسكها بقوة الخالق «فخطت هذه الخطوة واثقة مستبصرة، وتركت للأقدار ما وراءها، كما يفعل المظلوم المستئيس من إنصاف ظالمه، ومن نصر النضارة، يركب الحد الخشن، ويعتمد على نفسه، وينادي ربه: ((إني مغلوب فانتصر)))»⁽¹⁾.

إنها صورة مستلهمة من مشهد قرآني راسخ تمثل في نداء نوح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرِ﴾⁽²⁾ بعدما نفذ جهده وصبره، ويئس من استجابة قومه لدعوته، وهي إشارة ذكية من الإبراهيمي تحوي تلميحا خفيا للمصريين بوجوب رجوعهم إلى ربهم وطلب النصر منه، والتحلي باليقين في نصرهم، لأن تتبع السياق القرآني في ذات الموقف يصف استجابة سريعة لسيدنا نوح عليه السلام⁽³⁾، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾⁽⁴⁾.

وقد أتقن الإبراهيمي الربط بين هذا التلميح الذكي في نداء نوح عليه السلام وبين سياقه الإصلاحية الذي دعا فيه المصريين لمجابهة العدو والتصدي له متمسكين بالدعاء لنصرة الله عز

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 557.

(2) الآية 10 من سورة القمر.

(3) ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت مج6، ج27، ط1، 1983، ص 3430.

(4) الأيتان 11، 12، من سورة القمر.

وجل، ولا يخفى ما لهذا الاقتباس من «دعم نفسي، فيه شحذ الهمم، وبعث الأمل في النفوس، وفيه زرع اليقين في نصر الله»⁽¹⁾.

إن تأثر الإبراهيمي بالنظم القرآني جعله يستشهد به، ويقتبس منه في معظم كتاباته خاصة خطبه الدينية، وهو «ما جعل القارئ مبهوراً أمام اتساع وشمولية وعمق المعاني التي يوحى بها النص الإبراهيمي، وهو ما يعطي نكهة خاصة وسمّة مميزة لهذه النصوص»⁽²⁾ التي اكتسبت صفة الخلود بقدرتها على العبور نحو المستقبل، وإن هذا التأثير الشديد بالقرآن الكريم جعله يتجاوز الاقتباس إلى حد المحاكاة، كما ورد في مقالات "سجع الكهان"⁽³⁾، يقول «لا أقسم بذات الخفيف، والجنّاح الخفيف، المشاركة في جوها للخفيف، وبالسر المودع في التجاوب والتلايف، وبالمغيرات صبحاً عليها التجايف، والمغيرين على الحق كالعاهر ابن العفيف»^(*)، وبالسابغات والسوابغ من الدروع والجلابيب، وبالأخذين أمس من تل أبيب بالتلايب،... إن أبا الطيب المتنبي لمن موالينا، ومن تلقى الكهانة عن أولينا، وإنه ما دعي بالمتنبي إلا لأنه كان شاعراً كاهناً، ليناقض النبي الذي لم يكن كاهناً ولا شاعراً، وقد نفياً عن النبي مجتمعين، فثبتنا في المتنبي مجتمعين»⁽⁴⁾.

(1) محمد بن قاسم ناصر بوحجام، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 63.

(2) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ البشير الإبراهيمي في الفترة 1929-1939، ص 623.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 595.

(*) هو محمد بن سليمان علي بن عبد الله التلمساني، شمس الدين المعروف بالشباب الظريف، شاعر ابن شاعر، له نزعات شاذة في الاعتقاد.

(**) طعام معروف عند اليهود نقلاً عن عيون البصائر، ج2، ص 597.

(4) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 597.

ويبقى القرآن الكريم هو ذلك النظم الإلهي الذي لا يماثله شيء، فهو «ليس أسلوباً ونظماً وحسب، ولكنه شيء فوق الأسلوب والنظم، وفوق الموضوع أيضاً»⁽¹⁾، ولذلك باتت له حلاوته الخاصة وسهولته المميزة وموسيقاه العذبة وتأثيره المميز، ولا يمكن لبشر أن يناهضه في قوة تأثيره وحسن تنظيمه⁽²⁾ مهما أوتي من فصاحة وبلاغة، وإنما تظهر هذه الترسيبات من الحفظ له فتفيض على لسان الأديب دون أن يشعر وتنتال متأثرة بالأساليب التي علقت في ذاته بالحفظ.

وعموماً فإن الاقتباس من القرآن الكريم في آثار الإبراهيمي هو شعلة من نور تضيء فكره النير وتزيده عمقا وقوة وحلاوة وجمالا وتأثيرا، كما تكسبه بريقا من هيئته وجلاله في النفوس.

1-ب- الاقتباس من الحديث النبوي الشريف:

لم يقتصر تأثير الإبراهيمي بالقرآن ونظمه على ما أثرى به سياقات نصوصية في الفنون المختلفة من اقتباسات، بل تأثر أيضا بالحديث النبوي الشريف باعتبار «أقواله الفصيحة من أبلغ الأقوال وأقواها في الأداء والإيصال، مما جعلها تالية للنظم القرآني في البيان»⁽³⁾، وذلك بإجماع أرباب الفصاحة والبيان العربي لإحاطتها بالمعاني العظيمة والألفاظ العميقة، فصاحبها كان أفصح العرب بما أوتي من جوامع الكلم⁽⁴⁾.

وقد اقتبس الإبراهيمي مما تحزنه ذاكرته من غزارة الأحاديث الشريفة ما وشى به نصوص فنونه بحيث سحر ذاكرته وفطنته لاستغلال ذلك السيل النبوي الرائع الذي ينير النص ويزيده قوة

(1) عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، (دت)، ص 107.

(2) ينظر، نفسه، ص 107.

(3) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص 262.

(4) ينظر، نفسه، ص 261.

وجمالاً، ومن أمثلة ذلك نورد قوله في مقال: "الانجليز حلقة الشر المفرغة"⁽¹⁾ حيث يقول: «يا ضيعة الآداب الإسلامية بينكم، إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقد لدغتم من الجحر الإنجليزي مرات فلم تحتاطوا ولم تعتبروا»⁽²⁾، وهو اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»⁽³⁾، وقد اقتبس نفس الحديث في موضع آخر في قوله: «وقد جربت الأمة هذا النوع من النواب، ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»⁽⁴⁾.

ومن روائع اقتباساته من السنة قوله: «وإن كل من حضر هذا الحفل العظيم، وكان في قلبه مثقال ذرة من حب المصلحة العامة، أو كان في قلبه شيء من الاعتزاز بالمجد القومي، وكل من شاهد مشهدنا هذا وكان في قلبه فتيل من إيمان فإنه لا يخرج من هذا المشهد إلا كيوم ولدته أمه طاهر القلب طاهر الضمير طاهر اليد واللسان...»⁽⁵⁾، فيه اقتباس من الحديث الشريف: «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»⁽⁶⁾.

ومن الاقتباس الوارد في بعض الخطب قوله: «وسيعلم المتمادون على العناد أننا محضنا النصح والدين النصيحة، وأنا وفينا والدين أمانة، وأن الذي أوجب علينا النصح، أوجب عليهم الانتصاح»⁽⁷⁾، فالأقتباس وارد في قوله: الدين النصيحة، وهو يعكس براعة الإبراهيمي في الاقتباس، وحسن السبك بحيث يجعل القارئ غير المطلع على الأحاديث يعتقد أن كل الكلام

(1) الإبراهيمي، عبون البصائر، ج2، ص 509.

(2) نفسه، ص 510.

(3) رواه البخاري برقم 983 مسلم 7690،

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص 192.

(5) نفسه، ج2، ص 352.

(6) صحيح البخاري، ص 152.

(7) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 139.

منسوب إلى الإبراهيمي، ويعود ذلك إلى تمكنه الشديد من السبك والنسج بحيث يتقن وضع الاقتباس وسط عباراته في مكانه المناسب حتى يخيل للقارئ أنه منسوب إليه من شدة التماسك بينه وبين ما جاوره من عبارات، فانظر إلى قوله: «وفي الختام، أرجوك أن تسني هذه السنة الحسنة فإن "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"»⁽¹⁾، فهو يخاطب الأمة لتقوم بواجبها، وأدخل الحديث الشريف بين عباراته بطريقة يكاد يبدو فيها منسوباً إليه لولا دراية القارئ وشهرة الحديث.

وختاماً فإن للإبراهيمي عبقرية في اللغة تسمو به سمو البيان العربي الساحر الذي يأسر القلوب ويبهز النفوس، فقد أبدع في توظيف كتاب الله وحديث نبيه إلى حد البراعة، فكانت فطنته بارزة مكنته من هذا التوظيف المتقن، فهو يعرف متى يوظف الحديث، ومتى يقتبس من القرآن ومتى يستشهد بهما، وكيف يقتبس منهما ومتى يضمّنهما في حديثه، وقد استطاع أن يخلد هذه الفنون بفضل هذا الاقتباس البارِع إضافة إلى استشهاده ببعض أقوال الخلفاء كعلي بن أبي طالب في قوله: «عباد الله: لو كانت كلمة الحكمة توازن بالذهن أو تقدر بالمال والنشب لكانت كلمة علي بن أبي طالب هي تلك الكلمة، وهي قوله رضي الله عنه: قيمة كل إنسان ما يحسنه»⁽²⁾.

كما أن للشعر العربي قديمه وحديثه تأثيره الكبير في نصوص الإبراهيمي، بحيث نجده يضمّن الكثير منه، إمّا من صدر البيت أو عجزه، ولا يشير إلى اسم الشاعر في غالب الأحيان،

(1) المصدر السابق، ج2، ص189.

(2) نفسه، ج1، ص64.

ومن أمثلة ذلك نورد قوله: «فإذا خلا من العمل خلا من المعنى وما أخليت نفسك يا عبدُ ولكننا أخليناك، وما ظلمتنا ولكننا ظلمناك، وما عبتنا ولكننا عبتنا»⁽¹⁾، فيه تضمين في قول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

وهذا البيت: للإمام الشافعي لم يذكره الإبراهيمي لغرض تضميني يسوق به القارئ إلى الفكرة دون أن يشوش ذهنه بهذه التفاصيل، بحيث تأتي أفكاره تلقائية كما لو كانت جزءاً منسوباً إلى النص في صورة طبيعية.

2- السجع:

إن تأثر الإبراهيمي بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وبنفائس التراث الإسلامي مكنه من ناصية اللغة، فأبدع في تسخيرها لخدمة فكره بأسلوب فيه من القوة والرصانة والفخامة ما يفتح للقارئ آفاقاً واسعة للتصور والتخيل، فقد لانت له الألفاظ والتراكيب بتلقائية مبهرة تحمل معها -إضافة إلى فصاحة الكلمة- حلاوة الإيقاع في أصالة تعكس سحر البيان وتجسد قيمة البلاغة في تصفية الصورة للقارئ، وإثراء أجزائها؛ لأن الإبراهيمي لم يقطع صلته بالتراث العربي الأصيل رغم ارتباطه الشديد بقضايا عصره، ولذلك تجده يسمو بالجملة العربية إلى الفخامة والرصانة تأثراً بالأدباء العرب القدامى ومناهجهم في الكتابة والتي تجمع بين الفصاحة وبلاغة التعبير وسحر

(1) المصدر السابق ، ج5، ص91.

البيان⁽¹⁾، ولذلك مالت كتاباته إلى السجع ميلاً متألقاً لا يكاد يفارقه في نص أو قطعه، ويعد هذا الأمر طبيعياً بالقياس إلى أديب حفظ أجزاء من نهج البلاغة ومتون المقامات وأحاديث الأعراب، وقد دبح فصولاً كثيرة في هذا المجال منها ما ورد في الفصول التي حبرها بعنوان "سجع الكهان"⁽²⁾ ورسالته "مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة"⁽³⁾ والكثير من المقالات "كتحية غائب كالأيب"⁽⁴⁾ و"دمعة على المنصف"⁽⁵⁾ وغيرها.

والسجع ظاهرة ملازمة لنثر الإبراهيمي، يرصّع بها كلامه كما يرصع الثوب بالوشى، فيزيده جمالاً ويزيد الناظر إليه جلبة وتعلقاً، ولذلك فهو يعكس قدرة الكاتب على التحكم في اللغة والتصرف فيها لإمتاع القارئ فإذا بنفثاته قطع من الموسيقى اللفظية الجميلة التي تفوح بالموهبة⁽⁶⁾؛ لأنه في الأغلب الأعم ينثال عليه عفو الخاطر، وهي الخاصية التي تُميز سياقات الإبراهيمي، فتُقاس بالجودة لبعدها عن التكلف، لأن علماء البلاغة اشترطوا أن تكون الألفاظ في تركيبها تابعة للمعنى، وأن تكون تلك المعاني مألوفة وغير مستنكرة⁽⁷⁾ بحيث يتناسب سياقها مع وقعها الموسيقي في اتصال بعملية الإبداع الفني.

والسجع في رأي الإبراهيمي نوع من الأناقة في التعبير، وبلاغة يشفي بها غيظه وينفس عن روحه إزاء ما يعيشه جراء ظروف بلده، وصرح بذلك عندما قال «...وكانت هذه الأسجاع

(1) ينظر محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي، نضاله وأدبه، ص 136.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج 3، ص 518.

(3) نفسه، ج 2، ص 53.

(4) نفسه، ج 4، ص 181.

(5) نفسه، ج 3، ص 555.

(6) ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، ص 344.

(7) ينظر رجاء عيد، في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، دار غريب للطباعة القاهرة، د ط، د ت، ص 272.

شفاء لغيضي...»⁽¹⁾، ولذلك باتت ضرورة ملازمة له يقتضيها المستوى الفكري الذي يتمتع به، فهي أداة صاخبة تترجم ما يختلج في ذهنه، وتصور ما يضطرب في نفسه الحزينة، ولذلك أضحي السجع تنفيساً لهذا الاضطراب النفسي اتخذته الشيخ «أداة شعرية للتعبير عن عواطفه الجياشة الفياضة الهائجة كالبركان الذي يقذف بالحمى»⁽²⁾ في حال الألم والحزن، وكالمسك الذي يفوح بالعطر في حال الحب والاعتزاز والتودد.

وإذا أردنا أن نسوق مثالا يصور قمة غضبه بسجع ساخط ناغم على العرب المفرطين في فلسطين نورد قوله: «ثار للغرب في فلسطين، لم تنبت عليه شجرة من يقطين، وشياطين تنزو للإغراء إثر شياطين، ويوم في أعناقكم بيوم حطين، تنسيه غريزة الماء والطين، فتذكره نعمة الجنس والدين، أنسيتم يوم تنادوا مصبحين وتعادوا مسلحين، وتداعوا مصلحين،.... أين كنتم يوم أعطوا العهود لليهود؟ أم أين كنتم يوم جاؤوكم بالفهود، وفي المهود؟ أم أين كنتم يوم آمنوا بإسحاق وكفروا بيهود؟ كل ذلك وقع وأنتم شهود، ولكنهم كانوا أيقاظا وأنتم رقود....»⁽³⁾.

إنه نموذج يعكس القدرة الإبداعية التي يمتلكها الإبراهيمي، ويصور غضبه الشديد لما آلت إليه فلسطين جراء سكوت العرب في وقع موسيقي مؤلم موشج بمختلف أنواع الجناس والسجع والمقابلة والطباق...

(1) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص 136.

(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 345.

(3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 609-610.

ونعرض لنموذج آخر بنعمة ذاتية ملؤها الاعتزاز بالنفس والمواساة لتونس في مصابها: «يعز على هذا القلم الذي لا يكاد يحف مداده، ولا تنقطع من القريحة أمداده، أن تصاب تونس العزيزة في مناط أملها، بل في نياط قلبها،...»

يعز على هذا القلم الذي براه الباري لينضح العسل المصفى للمقسطين وينطف الصاب والحنظل للقاسطين، ويرسل الحمم مدرارا على المستعمرين...»⁽¹⁾.

لقد تمكن الإبراهيمي من إيصال اعتزازه وافتخاره بعروبه في جو موسيقي ينبض بالحب والوفاء لهذا البلد الشقيق ويصور في الوقت ذاته اعتزازه وافتخاره بأسلوب مسجوع يوحى بالقوة في غير تكلف ولا إجهاد.

والحقيقة التي نود تأكيدها أن الإبراهيمي تفنن في توظيف السجع عبر نصوصه تفننا ظاهرا، يوحى بالاختيار الدقيق لأجمل الألفاظ وأطربها في «تركيز صوتي جاء تبعا لتركيز فكري»⁽²⁾، فإذا بالانسجام يحدث بين الأذن والذهن معا، فانظر إليه في سرحات الفكر مخاطبا العيد: «يا عيد: لو عدت على قومي بالخفض والدعة، أوجدت عليهم باليسر والسعة، لوجدت مني اللسان الخافق بذكرك، والقلم الدافق بشكرك، ولكنك عدت عليهم بنهار كاشف الشمس، ويوم شر من الأمس، فاذهب كما جئت، فلست منك، طاعنا ولا مقيما، وعد كما شئت، فلست مني، حميدا ولا ذميما»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 636.

(2) شكرى فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع87، 1985، ص 197.

(3) الإبراهيمي، ج3، ص 480.

لقد أبدى الإبراهيمي براعة فائقة في الأخذ بمحاسن السجع فتفنن في استعمال ألوانه بمهارة أضفت حيوية مبهرة في سياقات فنونه النثرية، بحيث يزرعها حبوبا متألثة عبر حديثه فتلمع ببريقها المتناسق في تماسك واضح بينهما وبين المعنى، بحيث لا يؤثر ذلك التوافق الوارد في الحرف الأخير من الكلمة⁽¹⁾ بما يحمله السياق العام من المعنى، وهو الأمر الذي يشترطه الكثير من النقاد والبلغاء كمعيار لجودة الكلام «بحيث يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ، وإلا كان كظاهر مموه على باطن مشوه»⁽²⁾.

والإبراهيمي يحسن التوفيق بين اختيار اللفظ المسجوع، وبين ما يحتاجه السياق من معنى، والنموذج الآتي من خطبة جُمُعِيَّة⁽³⁾ يوضح هذا الترابط السجعي مع ذلك التماسك في المعنى: «الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة من آمن به وأخلص توحيده، واعتمد عليه في كل أموره فرجا وعده وخاف وعيده، ورفع أكف الابتغال والضراعة طالبا لطفه وتسديده، وفضله وتأييده، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله إتماما لنصاب العقيدة، وتنويعا بمزايه الحميدة، كما نصر الحق وأكثر عديده وخذل الباطل وأبلى جديده، وتمم مكارم الأخلاق بصفاته الحميدة وأقواله السديده، وبعث آخر الأنبياء فكان لبينة التمام وروي القصيدة، صلى الله عليه وسلم»⁽⁴⁾.

(1) ينظر أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 404.

(2) عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ت، د ط، ص 216.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج 1، ص 29.

(4) نفسه، ص 30-31.

إنه نموذج شيق يصور مهارة فائقة في التحكم في ناصية اللغة، فالقارئ الحاذق يحس أن الكلمة المسجوعة التي اختارها الإبراهيمي هي الكلمة المطلوبة في المعنى، فمثلا كلمة "الحميدة" في السياق الذي وردت فيه جاءت لتصف مزايا الرسول عليه الصلاة والسلام فأى لفظ يصلح في هذا الموقف لهذا النبي الكريم لولا كلمة حميدة المواتية للفظ العقيدة؟ ثم لتتأصل سياقه: «فرجا وعده وخاف وعيده»، ماذا يرجو العبد المؤمن من ربه لولا ذلك الوعد بالجنة؟ وماذا سيخاف لولا ذلك الوعيد بالنار، فانظر كيف فرضت كلمة الوعيد نفسها بقوة في هذا السياق تناسقا مع الرجاء وتوصلا في المعنى مع الخوف؛ إنها عبقرية اللغة في انصياح مطلق لفنان تعرض له الألفاظ نفسها بثقة كاملة استعدادا لأخذ مكانها المناسب في السياق المناسب حتى وكأنها تبدو «كحبات اللؤلؤ، التي تنتظم في عقد واحد، بحيث تأخذ كل حبة حيزها المكاني فيه، فلا تطفئ واحدة على أخرى»⁽¹⁾، ولا تأخذ الواحدة مكان الأخرى حتى لا تبدو دخيلة زائدة غير مرغوب فيها، والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى نورد منها مثلا آخر في حديثه عن الشباب كما يمثله له خاطره: «أتمثله واسع الآمال حد الخيال، ولكنه يزجيه بالأعمال إلى حد الكمال فإن شغف بحب وطنه شغف المشترك بحب وثنه، عذر الناس في التخيل لإذكاء الحب، ولم يعذر فيه تغطية الحقيقة.

أتمثله مصاولا لخصومه بالحجاج والإقناع، لا بالحجاج والإقذاع، ومرهبا لأعدائه بالأعمال، لا بالأقوال»⁽²⁾.

(1) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي، نضاله وأدبه.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص516.

إن هذا المثال يجسد قيمة المعنى لدى فكر الإبراهيمي، فالسجع عنده وسيلة لإبراز المعنى، وأداة لجلب القارئ نحو فكره فإذا ما أحس أنها ستحول بينهما -أي بينه وبين القارئ- تخلق عنها وعاد إلى إجلال المعنى، فكلمة "الحقيقة" في المثال السابق دليل قاطع على تخليه عن السجع وجرسه الموسيقي ورغبته في إيصال الفكرة دون اصطناع، لأن القارئ الذي يتبع هوى أذنه يحس برغبة في كلمة تنتهي بحرف الباء كسابقتها أو بحرف الهاء الوارد في وسط السياق أو بحرف اللام الوارد في أوله، ثم إن الإتيان بإحدى هذه الكلمات لم يعجز الإبراهيمي لأن ثروته اللغوية كبيرة، وإنما هي ضرورة فرضها السياق فطاوعه الإبراهيمي حرصاً منه على المعنى، كما أن البنية الإيقاعية لأسجاعه تساعد على تأدية المعنى، لأن ألفاظه المسجوعة ترد متناسلة مع بعضها البعض في سر صوتي حسي ينبثق من «أسرار العربية لا يعرفه ولا يحسن استعماله إلا روادها وخبرائها»⁽¹⁾.

وقد استعمل الإبراهيمي في سياقات حديثه أنواعاً مختلفة من السجع نذكر منها السجع المتوازي، وهو الذي تتفق فيه اللفظة الأخيرة من الكلام مع نظيرتها في الوزن والروي مما يحدث جرساً موسيقياً عذبا تأنس له الأذن.

(1) عبد الملك بومنجل، النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، ص 11.

ومن هذا الضرب أيضا سجعه في المقامات في وصفه للكاهن: «نحن الكهان، أفراس رهان منا السابق المصلي، ومنا الأبق المولي، كنا إرهابا للنبوة، ودليلا للضعف إلى القوة»⁽¹⁾، فقد وردت هذه الأسجاع متوازية بإيقاع واحد.

كما استعمل ضربا آخر من السجع فقرته الثانية تطول عن الأولى، ونثبت من ذلك قوله: «لا أقسم بذات الحفيف، والجناح الخفيف، المشاركة في جوها للكفيف، وبالسر المودع في التجاويف والتلافيف، وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف»⁽²⁾، إنه أسلوب يحاكي القرآن الكريم، وقد رأى عبد الملك مرتاض أن هذا السجع قليل الجودة؛ لأن القرآن الكريم "شيء فوق الأسلوب والنظم"⁽³⁾ وإذا تأملنا النموذج جيدا نجد أن طول عبارة "وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف" قد أحدثت خللا موسيقيا لدى القارئ، وانظر موقع المغيرات صبحا في سورة العاديات: بسم الله الرحمان الرحيم: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾⁽⁴⁾، كيف انحلت واعدوذبت، وكيف استقرت في مكانها حتى كأنها بنيت فيه بنيانا مرصوصا؟ وانظر إلى موقع العبارة ذاتها في أسلوب الإبراهيمي، نجدتها مقحمة قلقة بين هذه الأسجاع، وبالمغيرات صبحا عليها التجافيف "كيف اخشوشنت واثقوقلت وكيف بنا بها المقام حتى كأنها بنيان معلق على جناح الفضاء؟"⁽⁵⁾.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص518.

(2) نفسه، ج3، ص520.

(3) عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص131.

(4) سورة العاديات الآية 1-2.

(5) ينظر، عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص135.

فالسجع الذي تطول عبارته الموالية عن العبارات السابقة يحدث اضطراباً في الموسيقى والدليل على ذلك أن «القسمين الأوليين هما وحدهما اللذان استقرا فيما كان ينبغي لهما أن يستقرا فيه من مكان فهما مطمئنان، ثابتان مستقيمان، بل رائعان»⁽¹⁾، وأما ما تلاهما من فقرة مطولة فقد بدا كأنه تعسفاً عن الواقع طلباً للمعنى.

وكذلك استخدم في سياقات سجعه ألواناً أخرى للتحسين اللفظي والموسيقي في إبداع تصويري عميق ومؤثر خاصة ما ورد في مقامة «مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة»⁽²⁾، بحيث أبهر القارئ بذلك التناسق اللفظي الصوتي المنسجم مع المعنى الفكري في بيان ساحر زاده السجع قيمة تصويرية حسية تحمل في ثناياها صفة العدوى الفنية بحيث يهتز لها كيان القارئ لقوة صدقها وعذوبة نطقها:

«سلام يتنفس عنه الأقاح بإزهاره وإيراقه ويتسم عنه الصباح بنوره وإشراقه، وثناء يتوهج من عنبر الشجر عبيره، ويتبلج به عن بدر التمام، على الركب الخابط في الظلام، منيره، وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان وتحيات زكيات تنزل بها من - الملائ الأعلى - الملائكة والروح، ونفحات ذكيات تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدق برهان الحق قولها الشارح بفعلها المشروح»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ص 136

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، ص 625.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج 2، ص 54.

فالسجع واضح في هذه المطالع بموسيقاه العذبة التي يلفها الحزن والألم على فراق الصديق الغالي "ابن باديس"، ورغم أنه كتبها سنة كاملة بعد وفاة العلامة، إلا أنها حين أرسلت من منفاه إلى المشرفين على الذكرى الأولى لابن باديس، وتليت في حفل مختصر أبكت العيون وجددت الأسى⁽¹⁾، وهي لا تزال إلى يومنا هذا تحمل وقعا حزينا ترحف عنده الأصوات، وهذا هو الخلود بعينه.

والحق فقد شهد الزمان للإبراهيمي بقدرته المتميزة في أسجاعه البليغة يذكر بك بديع الزمان في مقاماته، فقد كانت الأسجاع تستقيم أمام قلمه استقامة لا يجحدها القارئ في أذنه، ولا ينكرها النص في متنه، وهي على تنوعها واختلافها لم تجن على المعاني التي رام لإيصالها، وبل ساعدت بوقعها على إجلالها ودلت على أن الإبراهيمي «يملك فعلا زمام اللغة العربية، إذ أنه استطاع بجدارة أن يوظف في مواضع كثيرة من نتاجه الأدبي مفردات اللغة توظيفاً صوتياً، كان من نتائجه الإمتاع الفني بحسن الإيقاع»⁽²⁾، بحيث استطاع أن يجعل القارئ يتمتع بإيقاع السجع في وقفة لا تضيع المعنى الحامل لفكره الساحر.

3- الجنس:

الجنس من أبرز فنون البديع اللفظية، وهو يعني «تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى، وهذان اللفطان المتشابهان نطقاً مختلفان معنى يسميان "ركني الجنس"»⁽³⁾، وله أقسام

(1) ينظر، المصدر السابق، ص 54.

(2) عبد الحميد بوزينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي (دراسة وصفية تحليلية فنية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص 126.

(3) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 196.

وفروع كثيرة يعتمدها الأديب للانتفاع بخاصيته في تحسين الكلام وتحميله، لأن «الجمال ليس إلا القيمة المحددة للتعبير، وبالتالي للصورة»⁽¹⁾ الكلية التي رسمها الأديب بخياله، وترجمتها اللغة بعبريتها، غير أن البحث عن هذا الجمال يظل مقتصرًا على إمكانيات كل أديب في تطويع اللغة بحيث يتقن ترصيع كلامه بجلب ما يلزم من الظواهر البلاغية المصاحبة للمعنى، فإذا فقد السياق معناه ذم النص، بخروجه عن صميم العمل الأدبي، وأصبح كالحمرة في خد المرأة المتأنقة أو الشاحبة التي افتقدت إلى حمرة الصحة والعافية، والأمر مشابه للحسن والجمال الذي يكون في الأدب⁽²⁾.

وقد عنى الإبراهيمي في مختلف فنونه بهذا المحسن فكان ينثره كحبات القمح عبر سياقاته ويسقيه بما يحمله السياق من معان، ولذلك بدت ثمرته واضحة لدى القارئ عندما يسمع حفيفه ضمن النصوص التي ترد في معظم الأحيان مبتدئة «بالسجع المصاحب - في الغالب - للجناس، وقد يستمر ذلك في معظم الفقرات الأخرى للنص»⁽³⁾، بحيث يشعر القارئ بعفوية الإبراهيمي في هذا الاستعمال الذي تباركه عبقرية اللغة، وينميه سحر بيانها، كما يشعر -طورا آخر- بذلك التصيد الجميل الذي يفعل فعلته في الإيقاع.

(1) بند توكرونتشه، المجلد في الفلسفة الفن، ترجمة، ديسامي الدروب، دار الفكر، القاهرة، 1948، ص 65.

(2) ينظر، الفكر العربي، مجلة الإنماء للعلوم الإنسانية عدد 46، ص 43. نقلا عن حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، ص 683.

(3) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الفترة من 1929 إلى 1939، ص 647.

ومن أمثلة ما جاء في الجنس نذكر ما ورد في "سجع الكهان"⁽¹⁾ على اعتبار أنه ورد بكثافة كبيرة فيما دبحه الإبراهيمي من أسجاع يقول: «كلام الكاهن ليس بالواهي، ولا الواهن، كأنما وخزه الماء أو لامسته السماء، ففيه من الماء إيراق؛ وفيه من السماء إشراق»⁽²⁾.

لقد وشح الإبراهيمي سياقه بمختلف أنواع الجنس التي تطرب لها النفس فيحسن وقعها في الذهن، فالماء والسماء، والإيراق والإشراق، كلمات لها وقعها في السياق لما فيها من تجانس في الحروف، والمتمعن في أماكنها في السياق يلحظ أن كلا منها ورد في مكانه المناسب، وكأنها خلقت لتوضع هناك، فنلمس عفوية الإبراهيمي في توظيف هذه الأسجاع التي أجلت المعنى وزادت في تلوين الصورة، ومن ذلك نورد أيضا قوله: «إن أبا الطيب المتولي لمن موالينا، ومن تلقى الكهانة عن أولينا، وإنه ما دعي بالمتني إلا لأنه كان شاعرا كاهنا ليناقض النبي الذي لم يكن كاهنا ولا شاعرا، وقد نفيا عن النبي مجتمعين، فثبتا في المتني مجتمعين»⁽³⁾ وقوله أيضا: «أيتها البحيرة مالك في حيرة؟ فقد شهدت لبدر بن عمار بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوة؟... وحديثي الولي يا (ولية)، أيهما كان عليك بلية؛ ذاك الذي وردك زائرا، أم هذا الذي وردك خائرا؟»⁽⁴⁾.

إنه كلام مزين بالسجع والجناس مثقل بالألفاظ الموسيقية الحادة التي تحمل حيرة الإبراهيمي في وقع حزين، ينثال بين العبارات بتناسق شديد يأسر الفكر بوقعه الموسيقي، فالفرق بين لفظ

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 518.

(2) نفسه، ص 519.

(3) نفسه، ص 520.

(4) نفسه، ص 518.

"البحيرة" و"الحيرة" في النطق هو زيادة حرف الباء، وهذا النوع يسمى الجنس الناقص⁽¹⁾، أما الفرق بين كلمة الفتوة والنبوة في النطق فهو الاختلاف في الحرف الأول بين النون والفاء ويسمى هذا النوع من الجنس جناسا لاحقا كما يسمى عند بعضهم بالجناس المضارع⁽²⁾.

ولم يكن هذا اللون البديعي مقتصرًا على سجع الكهان فحسب بل نجده أيضا موزعًا على مستويات مختلفة عبر سياقات فنونه الأخرى كفن الخطابة بحيث يظهر هذا اللون بكثافة وبصورة «أكثر فأكثر في البدايات أو في النهايات، فالخطب عنده تبدأ بالحمد والثناء في صورة جمل قصيرة مسجوعة ومشملة في الغالب - على أنواع من الجنس»⁽³⁾، ونورد من ذلك نموذجًا من "خطبة عيد الأضحى"⁽⁴⁾، يقول في مستهلها: «الحمد لله المبدئ المعيد، الولي الحميد، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضد ولا نديد، شهادة مخلص في التوحيد، راج للحسنى والمزيد، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله لبنة التمام وبيت القصيد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته والتابعين، والناصرين لسنته بالقول والفعل إلى يوم الدين»⁽⁵⁾.

إنه نموذج غني بأنواع البديع اللفظي من سجع وجناس وطباق، وهو يبين سمة تلازم السجع والجناس مع بعضهما في نصوص الإبراهيمي رغم أن لكل منهما سماته الخاصة، إلا أننا في الغالب العام نجدتهما متلازمين في ذات السياق بصورة عفوية جميلة توحى بسحر البيان على لسان

(1) ينظر عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 260.

(2) محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني، المؤسسة الحديثة طرابلس، لبنان 2008، د ط، ص 118.

(3) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الفترة من 1929 إلى 1939، ص 684.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 405.

(5) نفسه، ص 405.

الإبراهيمي، ويكثر هذا التلازم خاصة في الخطب الدينية، وكذلك في نفثات الأدعية: «...وشرع فيه الأضحية لنوسع فيها على العيال، وندخل الفرح على النساء والأطفال، ونتصدق منها على الفقراء والسُّؤال، وبهذا يشترك المسلمون كلهم في هذا اليوم في السرور، ويتقارب الأغنياء والفقراء بالرحمة وتتواصل أرواحهم وأجسادهم بالأخوة والمحبة، ويتذكرون جميعا ما أتى به الدين الحنيف من خير وصلاح ومعروف وإحسان»⁽¹⁾.

وقد استطاع أن يصل باستعمالاته الكثيرة لأنواع الجناس المألوفة أن يخلق جَوْاً من الموسيقى في النص بحيث لا يشعر القارئ بالنفور عند قراءتها، بل يشعر بحلاوة انسيابها الطبيعي في أجواء النص باعثا معه شوقا خفيا في تتبع المزيد من أثر هذا الواقع المسجوع: «ثم أرجع البصر في الدنيا وقوانينها التي يسوسنا بها الاستعمار، تجد ذلك المعنى لائحاً في كل حرف منها، فائحا من كل كلمة من كلماتها، واضحا في كل تأويل من تأويلاتها، بينا في كل تطبيق من تطبيقاتها...»⁽²⁾.

وانظر كذلك روعة الإيقاع في قوله: «إن موت العظماء حياءً لأممهم، فإن كانت في غربة زادت جلالاً، فإن كانت نتيجة للظلم زادت جمالا، فإن كانت في سبيل الوطن كانت جلالاً وجمالا، فإن صاحبها سلب العز والملك كانت حلية وكمالا»⁽³⁾.

ولا يخفى على أحد ما لوقع اللفظ من موسيقى تضيفي على الصورة بعدا آخر يعمق في ألوانها، ويومئ إلى إيحائها فيعطيها نفسا خاصا ولونا مميزا، وبعدا فنيا وفكريا وروحيا، وهذا الجرس

(1) المصدر السابق، ص 405.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 403.

(3) نفسه، ج3، ص 556.

له قوانينه ومسبباته التي لا يتقنها إلا الأديب العارف بأسرار اللغة والحاذق لفنياتها، والمحسنت اللفظية أحد هذه التقنيات التي تجلب القارئ بوقعها وخاصة ما تعلق بالسجع والجناس، والمقابلة والطباق، فهي إضافة إلى المتعة الفنية التي تبعثها في المتلقي تحمل معها ذلك التناسق الذي يجسد الصورة الكلية خاصة إذا أتقن صاحبها التوشيح بها بعفوية طبيعية، فانظر كيف يمتعنا الإبراهيمي بهذا الوقع الذي تتذوقه الأذن: «آمال فساح، في الفوز والنجاح، وتباشير صباح، باليسر والإسجاح، وتوق وطماح، إلى السؤدد اللماح، وكد وإلحاح، من أصلاء في العز أقاح، وعزيمات صحاح، في الذيد والكفاح، ومغدى ومراح، في الحق الصراح، وشباب نضاح، عن الشرف الوضاح...»⁽¹⁾.

وكذلك قوله: «تلك هي حلية الصدور، وزينة المجالس في العرش المحمدي العلوي.

وذكريات من المجد التليد تثار، وآفاق من الفخر الطريق تنار، وسمات من مخايل البطولة تشهر، وصفحات من تاريخ العظمة تنشر، ولمحات من الشرف العلوي الفاطمي تشع فتشيع»⁽²⁾.

وختاماً فإن استعمال الجناس في سياقات الإبراهيمي لم يكن هدفاً في حد ذاته لتزيين الكلام وترصيعه بقدر ما كان أداة بات يرجو بها تنوير فكره، وهو يعكس بقوة جودة اللغة لدى الإبراهيمي، ويصور جلالها حين تقع على لسان أديب بحق.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2 ص 442.

(2) نفسه، ص 442.

4- لزوم ما لا يلزم:

لزوم ما لا يلزم لون من ألوان التحسين البديعي قديم في العربية، عُرف أيضا بالالتزام، وهو «أن يجيء قبل حرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع»⁽¹⁾، ومعنى هذا أن يلتزم الأديب بحرف أو أكثر قبل حرف الروي، يقول الدكتور بدوي طبانة في معناه الاصطلاحي: «أن يلتزم النثر في نثره أو الناظم في نظمه قبل صرف الروي أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في السجع، مثل التزام حرف أو حركة يحصل السجع بدونه»⁽²⁾.

وما يعاب على هذا المحسن اللفظي أن الكاتب يجد نفسه ينساق وراء ذلك الوقع الموسيقي الناجم عن اللازمة التي التزمها، وهذا ما يفرض عليه في الكثير من الأحيان اختيار الألفاظ المنطوية على اللازمة، وبالتالي ينفلت منه المعنى فيقع في شباك التكلف والافتعال، ولذلك نجد الكثير من الكتاب الذين عهدوا إليه لم يفلحوا فيه من جميع جوانب الإبداع، وعلى رأسهم اليازجي في مقاماته التي عنوانها بـ "مجمع البحرين" والتي قلد فيها الحريري ولم يفلح فنيا⁽³⁾، لأن الإلحاح في غياب الملكة والموهبة يكشف التكلف، ومع ذلك «فقد عده ابن المعتز - على الرغم مما فيه من الاعنان من محاسن الكلام، واحتفل به أبو العلاء المعري احتفالاً كبيراً، فألف في بابه ديوانه اللزوميات، وجاء بعده من الكتاب والشعراء من أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري وأبو عباد البحتري وابن الرومي فحلوا به إبداعاتهم»⁽⁴⁾.

(1) عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 233.

(2) معجم البلاغة 2، ص 793 نقلا عن د. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، ص 279.

(3) ينظر عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص 348.

(4) محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، ص 279.

أما قلم الإبراهيمي فلم يقف عاجزا أمام تعنت هذا المحسن اللفظي بل إن حبه سال في بحره فبدا «كأنه الحريري بُعث من قبره أو السرقسطي دبت إلى قلمه الحياة من جديد، فكان لا يرضى بالسجعة البسيطة التي تتمثل في الفاصلة المؤلفة من حرف واحد، حتى تأثير مؤلفة من حرفين أو أكثر، فتمرق من دائرة "السجع" إلى دائرة "لزوم ما لا يلزم"»⁽¹⁾، لأن موسوعية الكلمات في ذكرياته فاقت كل الحدود، وبالتالي لا مناط من العجز في إحداث لذة لفظية بانتقاء ألفاظ بلازميتين في حضان المعنى الذي يسعى لتصويره.

ونورد فيما يلي بعض ما وقفنا عليه من مظاهر هذا الالتزام التي وشح بها العديد من سياقات فنون نثره، فلمعت في غير تكلف، بل بعفوية رائعة نستشعرها عندما نحس بذلك التناسق والتكامل لأجزاء الصورة الكاملة المسخرة لحمل هذا المعنى المسطر، ومن ذلك نورد قوله: «ومن حكم الله في هذا العرش أنه لم يزل حارسا للغة الضاد، من الأضداد، حاميا للدين، من المعتدين، ولم تزل في مقتعديه أمثال مضروبة، في النضج عن الإسلام والعروبة، اختلفت بها الأنساب بين يعرب ومازيغ، ولم تختلف بهم الأسباب في رعاية العلم وتقدير البيان»⁽²⁾.

ففي هذا النص يتنوع لزوم ما لا يلزم بتنوع الفواصل الأخيرة التي اختارها الإبراهيمي، فقد ماثل الإبراهيمي بين عدة ألفاظ في الوزن والفواصل الأخيرة، ونوع هذه الأخيرة فتنوع الالتزام الواضح في مصطلحات (لغة الضاد، الأضداد)، (الدين، من المعتدين)، (مضروبة، العروبة)، فقد

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر من 1931 إلى 1954، ص 349.

(2) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 443.

اتحد بنبرها وتغير في الوقت ذاته من سياق لآخر، وصاحبه تغير الواقع بتغير النبر على طول السياق.

والحقيقة أن تنوع هذه الفواصل يزيد في تنوع الإيقاع في النص كما يزيد القارئ شوقا بحثا عن نمط آخر من الإيقاع الذي يحدثه هذا التنوع في الفواصل، أنظر قوله: «أيها الأخوان بالمغرب العربي، نحبيكم على بعد الدار، وحيلولة الجدار، ومعاكسة الأقدار، تحية ود، لا تقابل، ونهنيكم بهذا العيد السعيد، تهنئة الغريق لمن بالساحل، والمبعد لمن طويت له المراحل»⁽¹⁾.

ونلاحظ هنا أن الشيخ قد اصطنع ما يحسن كلامه من لزوم ما يلزم باستخدام فاصلتين مؤلفتين من حرفين متحدي النبر وهما "ار" في أول السياق، ثم وقف عند الفاصلة الواحدة في سجع (ود، رد)، وكأني به يعزف بنبرة ضعيفة لأخرى أكثر قوة بحيث استخدم بعدها ثلاثة فصول متحدة النبر تمثلت في "اح"، وهذا يثبت قدرته على اصطناع التحسين اللفظي مهما كانت الظروف في إطار لا يتجاوز المعنى مهما تجاوزت الفواصل حدودها.

ومن نماذج هذا المحسن اللفظي أيضا نورد قوله في حديث عن "دولة القرآن"⁽²⁾ في توضيح لأسباب ابتعاد المسلمين عن قرآنهم: «هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة، وما تبعها أو لازمها من عوامل فرعية، هي التي باعدت بين المسلمين وبين قرآنهم، فباعدت بينهم وبين الخير والسعادة والعزة، وأصبحوا - كما يرى الرائي - أذلة مستعبدين، ولا يزالون كذلك ما داموا مجانبين لسنن القرآن، معرضين عن آياته وإشاداته، غافلين عما أرشد إليه من السنن الكونية، ولو أنهم توادوا

(1) المصدر السابق، ص 443.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 228.

على الاستمساك به في هذه القرون الأربعة عشر لكانوا هم السابقين بإرشادهم إلى اكتشاف أسرار الكون»⁽¹⁾.

والشواهد التي تعيننا في هذا السياق هي المفردات (مستبعدين، مجانين، معرضين، غافلين، السابقين)، وهي تحمل في تركيبها تماثلاً يتحد في الفاصلتين المؤلفتين من حرفين متباينين هما "الياء والنون"، ويلاحظ الدارس أن هذه المصطلحات في معظمها تحمل غضبا دفيناً في نفس الإبراهيمي، وتصب في معناها في إطار واحد هو ذلك العزوف عن القرآن الكريم، وياء الجمع هنا وردت شاملة مؤكدة لعدم الاستثناء، وشاملة لكل المسلمين، وهذا يعني أن الإبراهيمي يلجأ أحياناً إلى تحسين لفظه باستخدام مختلف الأدوات لذلك كلزوم ما لا يلزم في هذا السياق ليوصل أفكاره ويؤثر في القارئ حينما يعبر بصدق عما يجول في خاطره وعما تخفيه نفسه الحزينة إزاء حال الأمة الإسلامية قاطبة، فيجعل من المحسن اللفظي وسيلة لنقل الشعور وتحلية المعنى، ولذلك «كان الشيخ يصطنعه لإشباع رغبته الحادة من الموسيقى اللفظية، ولإقناع الخصم أو تبكيته، أو تصوير ذكرى من الذكريات الكبيرة، أو وصف عاطفة من العواطف الجياشة»⁽²⁾.

ورغم ما يظهر لهذا المحسن اللفظي (لزوم ما لا يلزم) من تكلف إلا أنه يتكرر كثيراً في نثر الإبراهيمي، فيصور مدى تمكنه الشديد من فنية القول بعفوية طبيعية تشعر بها أثناء القراءة، فانظر مثلاً قوله: «إيه أيها الرفاق، هل تذكرون ما أذكر من تلك الليالي التي كانت كلها سمرا كما قالوا في ليل منبلج؟ هل تشعرون بما أشعر به من تفاوت بين تاريخ الفراق وتاريخ التلاق؟ هل

(1) المصدر السابق، ص 228.

(2) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، ص 352.

تشعرون كما أشعر بأننا في هذا الفراق الطويل أشبه بالميت أغمض عينيه عن الدنيا وفتحهما على الآخرة؟ هل تحسّون كما أحس بأن مدة الافتراق كانت صفحات كلها عبر ووخز إبر، وجمل من الحوادث سمعنا بمتداها وما زلنا في انتظار الخبر؟⁽¹⁾.

لقد ألفينا الإبراهيمي يصطنع لزوم ما لا يلزم في هذا النص الأخير في بداية السياق بوساطة مقطع "اق" وفي نهاية السياق بوساطة مقطع "بر"، فإذا عدنا إلى المقطع الأول فإننا نلاحظ محسنا لفظيا آخر إضافة إلى لزوم ما لا يلزم وهو الطباق في لفظتي الفراق والتلاق، والتمعن في السياق يوحى بعفوية الإبراهيمي، وملكة التحكم في اللغة؛ لأن القارئ يشعر بأن تاريخ التلاق هو اللفظ الذي يجب أن يكون في ذلك الموضع بالذات، وهذا الشعور يثبته السياق الإبراهيمي ببراعة تقتضي المعنى المراد تلازما مع الصوت اللفظي، ونهاية السياق تؤكد ذلك ببراعة، فحينما نقف عند سياقه: "جُمِل من الحوادث سمعنا بمتداها ولا زلنا في انتظار الخبر؟" نشعر بروعة هذه الخاصية في تحسين اللفظ والوقع معا التزاما في المعنى، وإذا حذفنا كلمة "الخبر" وحاولنا تعويضها بكلمة أخرى فإننا نحس بأنها هي الكلمة المطلوبة في السياق؛ لأن المبتدأ يقتضي بالضرورة خبرا ولا يقتضي شيئا آخر، فكلمة الخبر هي التي تزيع الضباب عن الصورة، وهنا نتساءل في استغراب عن هذه الصدفة التي جعلت كلمة "خبر" تحمل الباء والراء لتقوم بمهمة لزوم ما لا يلزم في السياق؟ وحينها تتجلى لنا عبقرية الإبراهيمي في امتلاك الملكة، ونشعر بالسليقة والفترة تقطر من المعنى فتتكشف فحولته في حلبة الأفكار.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 124.

وعموما فإن استعمال الإبراهيمي للزوم ما لا يلزم لم ينقص من أسلوبه بقدر ما حلّى سياقاته ونورّ معانيه وأفكاره في صورة تعكس بجدارة سليقته وملكته «بعد أن مارس هذا الأسلوب زمنا طويلا وبعد أن مكّن له فيه محفوظ الأدبي الغزير الذي اعترف له به من خالطوه وعاشوه، ويثبت له هذه الفحولة القوية التي توجد فيه، وهذه الجزالة الفخمة التي تختص بها ألفاظه»⁽¹⁾، وهذه القوة الرابطة بين كل ذلك والمعنى الذي يروم إليه، فتلتقي هذه الأدوات مجتمعة في صورة فنية بديعية ساحرة خالدة.

2/ المحسنات المعنوية:

1- الطباق:

يعد الطباق من المحسنات البديعية المعنوية التي يستعملها الأدباء والشعراء في كتاباتهم بكثرة لإضفاء لمحة جمالية عليها، والطاق في مفهومه هو «الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى» بمعنى قرن الشيء بضده لإيضاح الفكرة، وعرفه أبو هلال العسكري «بأنه الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة»⁽²⁾، ولا يخفى ما للأضداد من تجلية المعنى وإبصال الفكرة في وقع صوتي يزيد من التأثير في القارئ.

وقد تحدث البلاغيون عن الطباق فألمعوا إلى أنواعه بحيث بينوا أنه قد يكون موجبا أو سالبا، كما قد يكون لفظيا أو معنويا، كما ألمعوا إلى طرفيه بأنواعهما الاسمي أو الفعلي أو الحرفي

(1) عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، ص 3530

(2) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر للنشر والتوزيع، دط، 1988، ص 266.

سعى في كل ذلك إلى تصوير قيمته الفنية في تحسين الكلام، وأبعاده البلاغية في تجلية الفكرة من خلال خاصية التضاد التي يتضمنها⁽¹⁾.

والطباق عند الإبراهيمي وسيلة لتحسين اللفظ وتصوير المعنى، وهو وسيلة لعرض صور التناقض في الحياة بشكل عام، وفي حياة الجزائريين مع أعدائهم بشكل خاص في إشارة منه إلى وضعين متناقضين، ومن ثم التنبيه إلى أسباب التناقض بينهما⁽²⁾ في معالجة لأنواع مختلفة من القضايا العالقة أثناء الاحتلال في مختلف المجالات.

ومن أمثلة الطباق التي نستمتع بجمالها الفني والفكري في سياقات الإبراهيمي نتوقف عند هذا النموذج الرائع الذي يتحدث فيه عن المولد النبوي في كلمة أملاها على ابنه أحمد طالب الإبراهيمي والذي ألقاها بدار الحديث⁽³⁾، يقول: «ليس السر - أيها السادة - في مولود ولد ... إنما السر الذي يجب أن يتبينه السامعون الواعون هو أن هذه الليلة ولدَ فيها الهدى الذي محق الضلال، وولد فيها الحق الذي محى الباطل، وولد فيها النور الذي نسخ الظلام، وولد فيها التوحيد الذي أَمات الوثنية وولدت فيها الحرية التي انتقمت من العبودية وولد فيها التساوي الذي قضى على الأثرة والأنانية، وولد فيها التآخي الذي أبطل البغي والعدوان، وولدت فيها الرحمة التي قضت على القسوة والجبروت وعلى البخل وآثاره، وولدت فيها الشجاعة التي تنصر الحقيقة وتمهد الطريقة، وبالإجمال ولد فيها الإسلام وما أدراك ما الإسلام»⁽⁴⁾.

(1) ينظر، عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 76، 77، 78. وكذلك ينظر جواهر البلاغة، معجم البلاغة، وكتاب الصناعتين.

(2) ينظر، محمد العيد تاورثة، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الفترة 1929-1939، ص 662.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص 315.

(4) نفسه، ص 317.

لابد أن القارئ لهذا النص الإبراهيمي يتمتع بما فيه من ذوق رفيع وحس مرهف وجودة عالية في التعبير لا تنبع إلا من عملاق في الفكر والأدب، فالنص كله طباق يحق ما في هذا الكون من تناقضات، ويعكس قيمة الهدى في إنارة الكون، ولا بد أن القارئ يشعر في هذا النص بالذات من ضرورة هذه الموازنات بين ما يحمله الباطل من بطلان وبين ما يحمله الحق من حقائق وأنوار، ولا شك أن القارئ أيضا يخرج من هذا النص بفكر مثقل لوزن أفخم مما يتصوره العقل لنبي الهدى، لأن الجمع بين كل ما ورد من طباق في النص يرسم الصورة الكبيرة للنبي الكريم، ويزيل كل الضباب لتتجلى الصورة كاملة بضلالها وألوانها واضحة جلية نيرة، وحينها تدرك قيمة هذا المحسن اللفظي في تنوير الفكرة وإجلاء المعنى.

والحقيقة أن سياقات الفنون الثرية ثرية بهذا المحسن البديعي الذي يكشف بحق عن براعة فائقة للإبراهيمي، فلا يكاد يخلو نص من نصوصه من هذه الأداة البارعة التي تبرز الصورة الفكرية وتزيد في تعميق ألوانها، خاصة فيما يتعلق بالنصوص الدينية، ففي ذات المجال في ذكرى المولد النبوي الشريف كتب كلمة ألقاها في حفل أقيم بالقاهرة بمناسبة ذكرى المولد النبوي تواصلا مع النص السابق يقول: «ولكن ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالهدى ودين الحق، فهو مولد بكل ما جاء به محمد من الهدى ودين الحق، فهو مولد للصالح والإصلاح والهداية والرحمة والخير والعدل والإحسان والآخرة والمحبة والرفق، وهو مولد لجميع الشرائع السمحة التي غيرت الكون، وطهرت النفوس، وصححت الحدود بين الناس فوقف كل واحد منهم عند حده، ووضحت المعالم الملموسة بين الخطاء فوقف كل خليط موقف معاون لا موقف المعاكس، فالمرأة

والرجل، والأمير والمأمور، والحر والعبد، والكبير والصغير، والأب والابن والجار وجاره، والعربي والأعجمي، والأجير والمستأجر، والغني والفقير، كل أولئك أصبح راضيا بحاله، ناعما في عيشه، سعيدا في حياته آمنا من ظلم خليفه»⁽¹⁾.

لا شك أن القارئ يلاحظ أن الفقرة الأخيرة تعج بالكثير من المتناقضات والمتضادات التي تجسد بلاغة الطباق، وقد تعتمد الإبراهيمي أن يجمع كل كلمتين متضادتين مع بعضها، ثم نوع من تلك النماذج ليشري الفكرة التي كان بصدد مناقشتها والتي مفادها أن كل من في الكون قد أصبح سعيدا بقدوم نور الهدى، وما تركيزه على هذه المتناقضات إلا تأكيداً لشمولية هذا النور العظيم لكل من في الكون.

«أعيد الشباب المحمدي أن يشغل وقته في تعداد ما اقتطفه آباؤه من سيئات أو في الافتخار بما عملوه من حسنات بل يني فوق ما بنى المحسنون، وليتق عشرات المسيئين»⁽²⁾، ويبرز هذا التضاد واضحا في قوله: «سيئات وحسنات، والمحسنون والمسيئين»، فهو يجسد حركة نفسية ذهنية ترغب في محو أفعال مضت وبعث حياة جديدة، فالطباق ليس بالضرورة ضداً لفظيا فحسب، بل هو تعبير في أكثر الأحيان عن حركة نفسية متوهجة، وصراع بين ما هو كائن وما يستلزم أن يكون، وهذا ما دعا إليه الإبراهيمي في المقطع.

والمتتبع لنثر الإبراهيمي يجده يعج بما يرد من تضاد طرفاه اسمين خاصة عندما يقف الكاتب موقف مقارنة بين جواهر الحياة وثوابتها، والنموذج الآتي يجسد ذلك بدقة كبيرة: «إن الإسلام

(1) المصدر السابق، ص 142.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص 121.

والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان، والاستعمار وقوامه على الشدة والقسوة والطغيان، والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار والاستعمار يدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير والاضطراب»⁽¹⁾، فالإبراهيمي يميل إلى الأسماء في هذا الجانب من البديع في مقابلة ذهنية منطقية تفتح له آفاق التضاد لتعزيز أفكاره باستنطاق الثوابت ودفعهم بحركة ذهنية إلى التحرك لإثبات وجودهم.

وأما ما ورد الطرفان فيه فعلين، فنجد قوله مخاطبا الاستعمار في مقال كتبه بعنوان "القضية ذات الذنب.... الطويل"⁽²⁾: «واذكر الآن - بعد أن نبهناك - ما شئت من القضايا ذات الأذنان، فإنك ستنسى واحدة هي أطولهن ذنبا»⁽²⁾، والتضاد هنا يبرز في الفعلين (أذكر وستنسى)، وقوله أيضا: «فتن الاستعمار الغربي بعضنا عن بعض ثم فتننا عن أنفسنا، ومانا بمقوماته ومنوماته فأصمانا، رمانا بمقوماته من قوة وعلم وصناعة، ومنوماته من كل ما يضعنا ويرفعه، ويضرنا وينفعه»⁽³⁾.

(1) المصدر السابق، ج5، ص 68.
 (2) نشرت في العدد 175 من جريدة البصائر سنة 1951، عيون البصائر، ج2، ص 185.
 (3) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 185.
 (3) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 100.

وقد لاحظنا في قراءة سياقات فنونه النثرية أنه لا يأتي إلى طباق السلب كثيرا وإنما يستعمل فن الطباق بنوعيه طباق الإيجاب وطباق السلب، إلا أنه يلجأ بكثرة إلى النوع الأول لما له من إمكانات في الإبلاغ والتوصيل، وما يؤديه من دور في تقوية كفاءات أداء المراد⁽¹⁾.

ومما ورد في طباق الإيجاب في سياقات فن المقامات قوله في "سجع الكهان"⁽²⁾: «هذه فصول، إن لا تكن فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سجعه، ... وفيها من اللفظة الجامحة، وفيها العسل للأبرار، وما أقلهم، وفيها اللسع للفجار، وما أكثرهم...»⁽³⁾، ومن ذلك أيضا قوله: «فماذا نصنع؟ أنتقدم منذرين، أم نتأخر معتذرين؟ بل نخيي الاسم، ونميت - كما أمات الإسلام - الرسم»⁽⁴⁾.

وقد كان الإبراهيمي يدرك جيدا القيمة البلاغية لهذا التضاد الإيجابي في تعميق المعنى وتوسيعه، ولذلك كان يلجأ إليه عمدا ليضع القارئ أمام هذه المفارقات التي تجعله يفرق بين الخطأ والصواب فيقف على الرؤية المستهدفة من هذا الفكر الواسع، وأحسن مثال يجسد هذه المفارقة قوله في كلمة عن "الاستعمار"⁽⁵⁾ موضحا فيها معنى هذا اللفظ يقول: «وكلمة "الاستعمار" آتية من "عمر" ضد "خرب" مع أن التفسير العلمي لهذه الكلمة هو الخراب والتخريب، وليس فيها شيء من معنى الإعمار والتعمير»⁽⁵⁾.

(1) ينظر، حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، ص 601.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص 518.

(3) نفسه، ص 518.

(4) نفسه، ص 519.

(5) كلمة عن معنى "الاستعمار" وجدت في أوراق الإبراهيمي، المصدر السابق، ص 308.

(5) نفسه، ص 308.

لقد عمد الإبراهيمي إلى بلاغة الطباق الحاصلة في الجمع بين الشيء وضده لإيمانه الشديد بقوة هذه البلاغة في إعطاء رؤية واضحة حول معنى الاستعمار ترتسم في ذهن القارئ بمجرد أن يقرن معناه بما يعاكسه في الواقع، فتتجلى بذلك الصورة الحقيقية للفظ الاستعمار المقترن بالتعمير عندما نضعه في الجهة المعاكسة للفظ "خرب"، ويعد هذا الاستعمال الضدي من الأساليب التي يلجأ إليها الإبراهيمي في تنوير رؤية القارئ وجلب نظره نحو الفكرة المستهدفة.

ومما ورد في سياق رسائله من بلاغة الطباق الإيجابي نجد قوله: «... وإنما نقلتني هذه اللفظة الكريمة منكم من الشك إلى اليقين بأنه ما زال من أئمة الأدب من يكرم الأدب ومن أساطين العلم من يجل العلم بعد ما كنت على شفا يأس من ذلك»⁽¹⁾، ويبرز هذا الطباق الإيجابي في لفظتي "الشك واليقين".

وأمثلة الطباق الإيجابي كثيرة جداً في نثر الإبراهيمي، وهي تعكس ثقافته الواسعة، وثراء رصيده اللغوي، وتصور استيعابه لبلاغة هذا المحسن البديعي الذي يعد مقياساً للجودة عند البلاغيين.

وقد لاحظنا في قراءة سياقات فنونه النثرية أنه لا يأتي إلى استعمال طباق السلب بمثل إقدامه على استخدام الطباق الإيجابي؛ لأن الإثبات بضد الشيء في لفظ يكون أعمق فكراً مقارنة مع اللجوء إلى أداة النفي التي في الغالب ما توحى بضعف في لغة الكاتب، وقصر خفي في ثروتهم اللغوية، وهذا ما يندر عند عبقري في اللغة مثل الإبراهيمي، ولذلك فإن الباحث عن

(1) المصدر السابق، ص 304.

هذا النوع من الطباق في ثنايا خطابه النثري نادرا ما يجده في كتاباته، ونذكر من أمثلة ذلك ما ورد في حديثه -ساخطا- عن أفعال فرنسا وسيطرتها على الشعب الجزائري: «وإنها سارت بكم من دركة إلى دركة، حتى أصبحت تتحكم في عقائدكم وشعائركم وضمائركم، فالصلاة على هواها لا على هواكم، والحج بيدها لا بأيديكم، والصوم برؤيتها لا برؤيتكم»⁽¹⁾.

وطباق السلب في هذا المقطع واضح في قوله: (على هواها لا على هواكم)، وكذلك في قوله: (بيدها لا بأيديكم)، وعلى الرغم مما ورد من نفي في هذا الطباق إلا أنه في هذا المقطع بالذات يشعر القارئ أن العبقرى في اللغة لا يمكنه تحويل هذا السلب إلى إيجاب، لأن قيمته البلاغية فرضت نفسها سلبا بصورة إيجابية، لأن الإبراهيمي يسعى إلى تصوير سيطرة فرنسا على الشعب الجزائري وتحكمها في تصرفاته، ولكي ينفي الحضور الفعلي للشعب عليه أن يثبت الحضور القوي لفرنسا، وبالتالي فآداة النفي للمفردة الواحدة "هواها" أو "يدها" ضرورية لعلو واحدة على الأخرى، وبالتالي فإن لجوء الإبراهيمي إلى هذا التضاد السلبي ليس قصرا منه على الإتيان بطباق إيجابي، بقدر ما هو إدراكه الكبير بقيمة حرف النفي هنا في هذا الموضع بالذات، لأنها الأداة الوحيدة التي بإمكانها إعلاء كلمة مستهدفة عن الأخرى بصورة سلبية إيجابية في الوقت نفسه، وهو أسلوب يعطي جوا موسيقيا وصوتا جميلاً يعين القارئ على استيعاب الصورة السلبية بشكل إيجابي.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص 35.

ومن ذلك أيضا قوله في قضية فصل الدين عن الدولة: «...وقد يستسيغ العاقل من أعمال الحكومات أن تراقب كل شيء حذرا واحتياطاً، ولكنه لا يستسيغ منها أن تتصرف في كل شيء تحكما واستبداداً»⁽¹⁾، وطباق السلب هنا واضح في قوله (يستسيغ ولا يستسيغ).

لقد عمد الإبراهيمي إلى الإفادة من بلاغة هذا المحسن الذي يليق بالموقف المستهدف للكاتب إضافة إلى الجو الموسيقي الذي يضيفه في النص والذي يساعد على استيعاب الفكرة وتنويرها، خاصة عندما يحملها الكاتب بشحنات عاطفية تعبر عن أحاسيسه.

2- أسلوب التكرار:

لقد أعطى الإبراهيمي للغة الضاد خاصية جعلته يتمثل قوانينها ويحسن سبكها ويتفنن في صياغة تراكيبها بما يهبها من لمسة روحية منبعثة من مشاعره وانفعالاته، وبما يخضعها لحمل رؤاه وأفكاره، فكان هدفه الأسمى تطويع هذه اللغة وتسخيرها لتحقيق رسالته الإصلاحية، ومن أجل ذلك كان يخضعها لمختلف الأساليب التي تخدم مواقفه الانفعالية، ومن ضمن الخصائص الأسلوبية التي كانت تبرز بوضوح في أسلوبه الكتابي خاصية التكرار بكل ما له من دلالات فنية وأبعاد نفسية.

والتكرار هو إعادة الكلام وزيادته بذكر الشيء مرتين أو أكثر⁽²⁾ لغرض تأكيده، أو لفت النظر إليه، وهو بذلك وسيلة للكشف والتوضيح والتأكيد⁽³⁾، يستعمله الأديب ليعين اهتمامه

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص 177.

(2) محمد العيد تاورته، نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ص 653.

(3) عبد السلام ضيف، الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، ص 156.

«بموضوع ما يشغل البال سلبا كان أم إيجابا خيرا أم شرا، جميلا أم قبيحا، يستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاته»⁽¹⁾.

والتكرار خاصة أسلوبية يلجأ إليها الأديب إما عمدا «لأسباب نفسية ذاتية أو بلاغية أو حتى موسيقية أو ربما لعجزه اللغوي»⁽²⁾ أو بدون قصد لسهو أو قلة تركيز.

والتكرار عند الإبراهيمي خاصة أسلوبية لها أبعادها النفسية العميقة والمؤثرة في النفس، بل يعتبره في الكثير من المواقف ضرورة تقنية يؤكد بها مواقفه وآرائه متأثرا بالقرآن الكريم، وما استقاه من أساليب القدماء، وما عاشه من أحداث مؤلمة في بلاده، فتفنن في استعماله إلى الحد الذي جعله يعيد الحروف والكلمات والجمل ليسخر بها طاقاته اللغوية ويجعله وسيلة تستجيب لمواقفه وآرائه وانفعالاته.

والأمثلة المتعلقة بهذه الظاهرة في آثار الإبراهيمي سخية ومتعددة نذكر منها قوله: «أما والله لو أن هذا الهيكل المسمى بالاستعمار كان حيوانا لكان من حيوانات الأساطير بألف فم للإلتهام، وألف معدة للهضم، وألف يد للخنق، وألف ظلف للدوس، وألف مخلب للفرس، وألف ناب للتمزيق، وألف لسان للكذب وتزيين هذه الأعمال، ولكان مع ذلك هائجا بادي السوءات والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية»⁽³⁾.

(1) عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في شعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1980، ص67.

(2) نفسه، ص7.

(3) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص507.

لقد كرر الإبراهيمي لفظ "ألف" عدة مرات تكرارا يعكس حقه الدفين للاستعمار، ويصور الأرق النفسي الذي يعانيه منه، ولذلك تمثله حيوانا أسطوريا بألف فم وألف معدة وألف يد للخنق.

ثم إن إصرار الإبراهيمي على تكرار لفظ "ألف" بالذات تأكيد على فضاغة العدو وكشف عن صورته السيئة وحقيقته المرة والتي تعكسها ضخامة هذا الرقم "ألف"، ثم هي أيضا دعوة للقارئ ليتخيل بذهنه حيوانا أسطوريا له ألف فم، وهي كناية في الوقت نفسه عن نهب الاستعمار وطمعه وجشعه، وله ألف معدة وهي جملة أخرى لتوسيع المعنى السابق وتأكيد، ثم له ألف يد للخنق وهي كناية عن كل جرائم القتل التي يرتكبها الاستعمار في حق الشعب، وله ألف ناب وهي صورة مفزعة مرعبة تشعر القارئ بالاشمئزاز، والخوف والرغبة والحذر،... ويستمر الإبراهيمي في الكشف عن حقائق الاستعمار البشعة بصيغة مضخمة فيكرر رقم "ألف" ليؤكد على فضاغتها؛ ويلح على ضرورة أخذ الحيطة والحذر من المستعمر.

ولا يهتم الإبراهيمي بنوع الكلمة التي يكررها من حيث كونها فعلا ماضيا أو مضارعا أو من حيث كونها اسما بقدر ما يهتم اللفظ في حد ذاته ودوره التوكيدي الإيحائي الذي يهدف إلى إيصاله للقارئ، ومن ذلك أيضا نجد قوله: «أوصيكم بتقوى الله فهي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي مهبط الروح والطمأنينة، وهي متنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة

واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق وتربط على القلوب في الفتن»⁽¹⁾.

والتكرار في هذه الصورة جاء بالضمير "هي" والذي يجسد معنى "تقوى الله" فالإبراهيمي هنا يوصي بتقوى الله، ويوسع آفاق معانيها للقارئ في جمل اسمية قصيرة متوالدة من بعضها البعض، ومتناسقة فيما بينها لتعانق فكرة واحدة تصب في معنى "تقوى الله".

إن تكرار الضمير "هي" له دلالة عميقة وإيحاءات ذات ظلال وأبعاد نفسية ودينية وإيمانية؛ لأنه يجعل القارئ في كل مرة يستحضر ما يقابلها في مضمونها المتمثل في تقوى الله، وهو بذلك «يعطي دفعا لا شعوريا لنمو النص وتساعد أفكاره إلى ذروة الانفعال العاطفي»⁽²⁾، فهذا الضمير دعوة إلى التركيز الواسع، والإدراك الجيد لهذه الحقيقة الدينية التي يسير الكون لأجل إثباتها وترسيخها وتعميقها وغرسها في الواقع ومن ثم جني ثمارها.

ولا يهم الإبراهيمي إن كان العنصر المكرر اسما أو فعلا أو حرفا أو جملة بقدر ما يعتبره أداة يعبر بها عن أغراضه وأهدافه، ويعكس ضمنها عواطفه وانفعالاته، فقد يكرر عبارة كاملة كما فعل في نص "الانسان أخو الانسان"، بحيث كرر عبارة "أسست الجمعيات"⁽³⁾ عدة مرات للدلالة على تأخي البشر وتقرب الشعوب من بعضها.

(1) الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، ص291.

(2) محمد زغينة، فن المقال في كتابات أبي اليقظان، ص63.

(3) نفسه، ص61.

وقد كرر الإبراهيمي لفظة "استغاثت" عدة مرات في مقال "الإنسانية: آلامها واستغاثتها"⁽¹⁾ حيث قال: «استغاثت الإنسانية قديما بأبنائها الصادقين، على أبنائها المارقين، استغاثت من المفسدين لنظام الفطرة، والعاملين على تفريق هذه الأسرة فأغاثها الأنبياء والرسل والعباد الصالحين، واستغاثت من عباد المادة الحائدين عن الجادة، فأغاثها أنصار الروح، والمقدمون للروح، والقائلون بخلود الروح، واستغاثت من أعداء العقل المفكر، وعباد الحس والمحسوس، فأغاثها الحكماء الربانيون والفلاسفة الاشرافيون، واستغاثت من طواغيت الاستبداد وقياصرة الاستعباد فأغاثها دعاة الديمقراطية...»⁽²⁾.

وإذا تأملنا النص السابق نجد أن تكرار لفظ "استغاثت" نابع عن آلام عميقة في نفس الشاعر؛ لأن الاستغاثة يسبقها بالضرورة ألم وعذاب، ثم إن هذه اللفظة بالذات هي ركيزة هذا النص وعموده الفقري، ولذلك ركز الإبراهيمي على إعادتها عدة مرات؛ لأن التكرار أحيانا يعتبر «المفتاح الذي ينشر الضوء على الصورة لاتصاله الوثيق بالوجدان»⁽³⁾، ولا ارتباطه العميق بالنفس ومشاعرها.

وقد يأخذ التكرار بعدا جماليا يزيد الصورة جمالا ووضوحا، ويزيد المعنى اتساعا وعمقا، ويزيد النفس راحةً وهدوءاً، ومن ذلك قوله في وصف الشيخ مبارك المليي «... وروح كلها ذكاء وعقل، وعقل كله رأي وبصيرة، وبصيرة كلها نور وإشراق»⁽⁴⁾.

(1) الإبراهيمي، الآثار، ج1، ص27.

(2) نفسه، ص63.

(3) عز الدين علي السيد، التكرار بين المثير والتأثير، دار الطباعة المحمدية، دط، ص137.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص183.

وهناك صور أخرى للتكرار نلمسها في آثار الإبراهيمي تهدف إلى تقرير حقيقة وكشف واقع متستر، لأن « الكلام إذا تكرر تقرر »⁽¹⁾، ويستخدمه الإبراهيمي في تراكييه لينبه العقل إلى قيمته ويوجه الفكر إلى حقيقته، وهو تكرار تجتمع فيه ألوان المأساة كما تجتمع ظلال الحزن في نفسه على حال أمته: « فأين موضع الشبه منكم بزمانكم؟ زمانكم طائر، وأنتم واقعون، وزمانكم مصمم، وأنتم مترددون، وزمانكم سائر وأنتم جامدون، وزمانكم ضاحك مستبشر، وحظكم منه العبوس والحزن »⁽²⁾، وقد كرر الإبراهيمي لفظ "زمانكم" عدة مرات ليقرر بها حقائق لا مفر منها، وهي أنه سائر ماض في طريقه، وأن عدم استغلاله إضاعة للعمر كله، فيؤكد على ضرورة استغلالها ويصر على تنبيه العقل لهذه الكلمة العظيمة في حياته، « فاللفظ المكرر بوجه عام مصدره الثورة وهدفه الإثارة، حبا أو بغضا »⁽³⁾.

وهناك نوع آخر من التكرار يورد فيه الإبراهيمي الكلمة ثم يكررها شكلا ومضمونا أو بمعناها بتوظيف مرادفات التي تحيط بالمعنى العام الذي خطه الإبراهيمي في صياغة تراكييه، ومن ذلك نلمس قوله: « وكانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل في ما تحمل من معان أنها ثورة على الظلم والجور والاستعباد وتلك الشرور التي ضربنا الأمثلة على سائرها في هذه الكلمة »⁽⁴⁾، فقد كرر الظلم بما يوافق معناه من المفردات من الجور والاستعباد والشرور.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ج3، ط2، 1972، ص10.

(2) الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص421.

(3) عز الدين علي السيد، التكرار بين المثير والتأثير، ص137.

(4) الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص247.

وختاماً فإن التكرار سمة بارزة في أسلوب إبراهيمي يلجأ إليه ليشري الفكرة للقارئ، ويوسع مجال التنويع والتركيز لديه بألفاظ كثيرة متعددة متنوعة خصبة تصب في مجال المقام الذي يقتضيه الحال، والذي له مجاله النفسي والموضوعي بصفة عامة.

الختامة

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذه الأطروحة التي كانت سببا في قراءة آثار الإبراهيمي كاملة حسب علمي، وقد تبين لي من خلالها أهمية أعماله النثرية التي وجدتها ملتحمة بواقعه إلتحاما شديداً، والتي أوقفني البحث فيها إلى مجموعة من النتائج ألخصها في الآتي:

- محمد البشير الإبراهيمي أديب موسوعي، ألهمه واقعه تصوراته وإبداعاته، فجاءت كتاباته مرآة عاكسة له، وسيلته في ذلك لغته القوية، وأسلوبه الراقي.
- إنّه ذات الواقع القاسي الذي أحاط بالإبراهيمي في فترة مرت بها البلاد؛ حين خيم الاستعمار على جميع مجالات الحياة، فساد الظلم والألم أرجاء الوطن، فكان أن فاضت نفسه حسرة وغيرة على وطنه، وسال قلمه كثيرا معالجا وناقداً في شتى المجالات، وبخاصة تلك التي مسّت قلب الأمة في كرامتها وعزتها ولغتها ودينها، فجاءت آثاره إبداعا خالداً كان له أثره إلى يومنا هذا.
- كما كان لهذا الواقع أيضا صدهاء في صدق إحساسه وعمق نظرته إلى جلّ القضايا التي تناولها بالدراسة والنقد والتحليل بأسلوب يعتمد الحجاج والبراهين، ويعكس أصالة اللغة على لسانه.
- الإحساس بالمسؤولية كان له الأثر الفعال في إبداعاته التي اتسمت بالعفوية والواقعية، ما يؤكّد تحمله الكبير لكل مشاكل الوطن؛ ولذلك فإن أجمل ما في قلمه أنه يتجاوز في الكثير من الأحيان أسرار ذاته ليمتد بتدفق معانيه ورؤاه إلى الإنسانية في أوسع معانيها في صور إيجابية عميقة، وهذا ما أكسب أفكاره سمة الخلود، فهي تملك قدرة الاحتواء الشامل للمستقبل بفضل

أسلوبه المميز، وبفضل محتواها الخالد، والدليل على ذلك أن العديد من مقالاته لا تزال تملك قدرة معالجة الواقع خاصة القضايا الاجتماعية كالطلاق على سبيل المثال.

- روح الانتماء الى الوطن وصدق عواطفه وعمق رؤيته إلى مختلف القضايا في مختلف المجالات كانت وراء الأثر الفعال؛ فالقارئ لآثاره يحس وكأن مشاكل الوطن هي مشاكله الخاصة؛ لأنه يكتب بانفعال شديد، ويحلل بحرقه محسوسة، وينقد بجرأة وسخرية، ولا يهاب أحدا.

- أفكار الإبراهيمي اتسمت بعمق الرؤية، وبعد النظر، وسعة الإطلاع، وجودة التحليل، وحسن السبك، كما كانت روحه المتألمة تطفو عبر آثاره من خلال رؤاه الإصلاحية التي دمجها عبر فنون النشر الأدبي. فكتب في فن المقال بكل أنواعه حتى تألق نجمه في سماء هذا الفن، فأصبح من أكبر رواده، كما لم يغفل عن تصوير الواقع عبر فنون أخرى كالرسالة والخطابة والمقامة والرواية والسيرة، وكانت كل هذه الكتابات في عمومها تتسم بالسهولة والوضوح ومسايرة الأحداث الوطنية الداخلية والخارجية.

- ففي فن المقال وجدناه قد أبدع في تصوير الواقع إلى حد البراعة متبعاً في تحليله لقضايا وطنه المنهجية الدقيقة والعرض المنطقي، فكان يحلل الفكرة ويناقشها ويدعمها بمختلف أنواع الحجج العقلية والأدلة المنطقية، ثم يلخص محتوى المقالة بموقف يكسوه بعقريّة فذة خاصة الخلود.

وقد اتسمت مقالات الإبراهيمي بأفكاره المنظمة والمرتبطة كحبات اللؤلؤ في العقد الفريد جامعة في تراكييها جمال الصياغة وحسن التعبير الذي غالبا ما يحمل في ثناياه سخرية حادة في لهجة عنيفة عند المناقشة.

- وفي فن الرحلة كان وصّافا ماهرا، يجذب القارئ إلى تخيل الرحلة بطريقة مغناطيسية، فيتفاعل معه، ويشاركه أحداثه، ومغامراته بخياله دون أن يشعر، فأسلوبه الجذاب يجعل القارئ ينجذب بصورة ساحرة إلى عالمه، فيتجاوب مع أحداثه، ويشاركه التجربة؛ لأن الرحلة عنده تسجيل للواقع وتصوير للأحداث بآلة اللغة.

- وأما في فن الخطابة فقد كان خطيبا ماهرا، يسترجل خطبه بلغة ساحرة، وفكر أصيل، ومنهج سليم، فيستميل القارئ ببراهينه المنطقية وحججه العقلية، وبأسلوبه الفذ الذي يركز على المنهج السليم، ويستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فيسمو بذلك سمو يجعلك تشعر بالروعة، وتحس بحلاوة اللغة العربية وعذوبتها، وكأنها انسابت على لسان أدباء اللغة العربية في أرقى عصورها.

- وعن فن المقامات فقد أبهرنا الإبراهيمي بقدرته الكبيرة في التلاعب بألفاظ اللغة، فجاءت مقامات سجع الكهان استرسالا لغويا متألقا، ساحرا في شكل سبحات فنية يصعب نحت مثلها على الرغم من أن هذا الفن لم ينل حظا كبيرا من بين فنونه، ومع ذلك فإن ما وصلنا يعد درة من الدرر التي لا يستهان بها ضمن المكتبة الجزائرية؛ ولعل قلة اهتمام الإبراهيمي بهذا الفن تفسر جديته الصارمة في إصلاح واقع بلاده؛ وهو الأمر الذي صوب فكره نحو فنون أخرى أكثر ارتباطا بالواقع خاصة فن الخطابة.

- وأما عن فن السيرة، فقد كتب الإبراهيمي سيرته في عنوان "من أنا" عالج فيها سيرته الذاتية بشكل صريح، واصفا تارة، ساردا تارة أخرى، مستعينا بذاكرته القوية في أسلوب متفرد.

- وينطلق الإبراهيمي في فنونه النثرية من خلفية معرفية إسلامية أصيلة، بروح تفيض إيمانا بالطموح الحضاري، فكان يسعى لغرسه في نفوس قرائه بأسلوب أقل ما يقال عنه أنه ساحر.

- إن للإبراهيمي قدرة خارقة في استعمال اللغة في كل كتاباته، تجعل القارئ مبهورا بفصاحته، مشدودا لمفرداته المستقاة من تراث عربي إسلامي يحمل الكثير من آثار الثقافة التراثية الإسلامية الأصيلة اقتباسا وتضمينا، كما ساعده أيضا احتكاكه بالبلغاء في المشرق من تحصيل سعة كبيرة من محفوظ اللغة ومفرداتها أكسبت أسلوبه قوة خارقة بخاصة عندما يلفها بحسن الربط بين المفردات والمعاني، وقد جاءت لغته رفيعة المستوى قل أن يحاكيها بارع.

- وأخيرا فإن الإبراهيمي عالم مصلح قبل أن يكون أدبيا متفرغا للأدب، مكنته عبقريته في اللغة من صياغة أفكاره بأسلوب أدبي راق، فيه من السحر والبيان ما يذهل العقول، ويستميل النفوس، وقد حاولت هذه الدراسة لفنونه النثرية أن تعطي صورة وجيزة لأفكاره الإصلاحية التي بثها بأسلوب أدبي، وهذا العنوان يعد في حد ذاته موسوعة كبيرة لا يمكن تغطيتها من كل الجوانب، وإنما هي محاولات لإبراز أهم العوالم في آثاره.

ولا نحسب أننا قمنا بتغطية شاملة لكل صغيرة وكبيرة في الموضوع، لأن الكمال صفة لا يتصف بها سوى الخالق عز وجل، ونرجو أن تجد أفكار الإبراهيمي مجالها الواسع في الدراسات الأدبية لأنها تستحق ذلك بكل افتخار.

وأحمد الله مرة أخرى، وأشكره وأتوب إليه، وأصلي وأسلم على نبيه محمد

صلى الله عليه وسلم والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر

والمراجع

قائمة ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم: رواية ورش.

قائمة المصادر

- (1) الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج1، بيروت، 1997.
- (2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج2، بيروت، 1997.
- (3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج3، بيروت، 1997.
- (4) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج4، بيروت، 1997.
- (5) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج5، بيروت، 1997.
- (6) عيون البصائر، ج1، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- (7) آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، ط1، الجزائر، 1987.
- (8) في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، دط، 2007.

- (9) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
- (10) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دت.
- (11) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمته إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دط، دت.
- (12) ابن المعتز، أبو عبد الله بن المعتز، البديع، دار المسيرة، بيروت، ط1، 1982.
- (13) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، دط، دت.
- (14) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) تحقيق علي محمد البخاري، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاته، القاهرة، دط، دت.
- (15) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان، دار الرسالة بغداد، دط، 1981.
- (16) جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، 136/2.
- (17) الخطيب القزويني، الايضاح، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط4، 1975.
- (18) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة بيروت، ج3، دط، 1972.
- (19) سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخارجي، القاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط2، ج1، 1983.
- (20) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، المدني جدة، مطبعة مدني القاهرة، ط1، 1991.
- (21) دلائل الإعجاز، تحقيق د. محمد رضوان الدايدة ود. فايز الدايدة، دط، دت.

(22) دلائل الإعجاز، شرح عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة القاهرة، مطبعة

الفجالة الجديدة، دط، 1969.

(23) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت،

دط، دت.

قائمة المراجع

(24) إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

(25) أبو عيسى فتحي محمد معوض، الفكاهة في الأدب العربي، دراسات (ووثائق)، الجزائر، دط،

1970.

(26) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، الجزائر، ط3، 1983.

(27) دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، ط2، 1988.

(28) أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الدار التونسية للنشر، دط، 1978.

(29) إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، دت.

(30) فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، دط، دت.

(31) أحمد بوقرورة، بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي، قراءة في ظل البنية والمتغير،

المكتبة الوطنية، دار الهدى، دط، 2004.

(32) أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، الجزائر،

1985.

- (33) أحمد طالب الابراهيمى، مذكرات جزائري، دار القصة للنشر، ج1، 2006-2007.
- (34) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1964.
- (35) أحمد شرفي الرفاعي، الشعر الوطني الجزائري، دار الهدى، 2010.
- (36) أحمد مطلوب، الصورة في شعر الأخطل، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1985.
- (37) فنون بلاغية (بيان وبديع)، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، 1975.
- (38) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج2، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986.
- (39) الصورة في شعر الأخطل، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1985.
- (40) فنون بلاغية (بيان وبديع)، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، الكويت، 1975.
- (41) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ج2، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986.
- (42) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر للنشر والتوزيع، دط، 1988.
- (43) أحمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة، البديع والبيان والمعاني المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان، دط، 2008.

(44) أحمد محمد الخوني، بلاغة الإمام علي، دار النهضة، مصر للطبع والنشر، القاهرة، دط، 1977.

(45) الأمير عبد القادر الجزائري، كتاب المواقف، ج1، دط، دت.

(46) أم سهام (عمارية بلال)، شظايا النقد والأدب (دراسات أدبية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989.

(47) أمين الدين أبو القاسم، القانون في ديوان الرسائل، لحق أيمن فؤاد، مصر، الدار المصرية اللبنانية، دط، 1990.

(48) أندري دي لنجو، في إنشائية الفواتح النصية، ترجمة سعد بن إدريس، دورية نوافذ.

(49) أنطيوخس بطرس، الأدب تعريفه - أنواعه - مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2011.

(50) أنيسة بركات درار، أدب النضال في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

(51) باعيز بن عمر، من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس د محمد البشير الإبراهيمي، منشورات الخبر، بني مسوس، الجزائر، ط2، 2006.

(52) بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط3، 2011.

(53) بند توكروتشة، الجمل في فلسفة الفن، ترجمة د. سامي الدروب، دار الفكر، القاهرة، 1948.

(54) تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ج2، عالم الكتب، ج2، ط2، 2006.

- (55) جابر عصفور، الصورة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط¹، 1992.
- (56) ج كولر، ما النظرية الأدبية، ترجمة هدى الكيلاني، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط³، 2009.
- (57) جوليان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسيير، ترجمة تونس، الدار التونسية، دط، 1976.
- (58) حامد صالح خلف الربيعي، مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، د ط، 1996.
- (59) حامد الهوال، السخرية في الأدب الجزائري الحديث 1925-1962، جمعية التراث، الجزائر، 2004.
- (60) حسن إسماعيل، شعيرة الاستهلال عند أبي نواس، دراسة في بنية التناسب النصي، دار العلوم، جامعة الميناء، دت، دط.
- (61) حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط²، 1983.
- (62) دايل كارنيجي، فن الخطابة، المملكة الأردنية الهاشمية، ط³، 1983.
- (63) رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية الشائرة، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، دط، 1992.
- (64) رجاء عيد، في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، دار غريب للطباعة القاهرة، دط، دت.
- (65) ركن نجيب محمود، فلسفة النقد، دار الشروق، بيروت، ط²، 1983.

- (66) روز غريب، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط¹، 1971.
- (67) رومان ياكسوه، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، دط، دت.
- (68) زكي حسام الدين، أصوات تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط¹، 1988.
- (69) زكية خليفة مسعود، الصورة الفنية في شعر ابن المعتز، منشورات جامعة فان يونس، بنغازي، ط¹، 1999.
- (70) السجستاني، أبو داود سليمان الأشعث، صحيح سنن مصطفى، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.
- (71) سحر هادي بشير، الصورة في شعر نزار قباني دراسة جمالية، دار المناهج للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، ط¹، 2011.
- (72) سليمان محمد سليمان، رؤى نقدية في دراسات أدبية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2004.
- (73) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط⁵، 1983.
- (74) في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، مج6، ج27، ط¹، 1983.
- (75) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 136/2.
- (76) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الأندلس، بيروت، دط، دت.
- (77) المقامة، دار المعارف، مصر، ط²، 1964.

- (78) في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر، ط3، دت.
- (79) صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثورية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.
- (80) صبحي اليستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، (الأصول والفروع)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1986.
- (81) صلاح العقاد، المغرب العربي، المكتبة الأنجلومصرية، ط3، 1969.
- (82) طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، دار المعارف، مصر، ج1، ط2، 1968.
- (83) الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.
- (84) عبد الحميد بن باديس، آثاره، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، ج3، قسنطينة، ط1، دت.
- (85) عبد الحميد بوزينة، بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، دت.
- (86) عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1980.
- (87) عبد الحميد حسين، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1964.
- (88) عبد الرؤوف المنيادي، كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، دار الكتب العالمية، القاهرة، ط4، 1954.

(89) عبد العزيز عتيق، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دت.

(90) عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، دط،

1983.

(91) عبد القادر رزق الطويل، المقالة في أدب العقاد، الدار المصرية اللبنانية، ط¹، 1987.

(92) عبد الكريم الياني، دراسات فنية في الأدب العربي، مطبعة الحياة، دمشق، سوريا، دط،

1972.

(93) عبد الله ركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، دط، 1982.

(94) فلسطين في الأدب الجزائري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر،

دط، دت.

(95) عبد الملك بومنجل، النشر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط¹،

2009.

(96) عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية،

الجزائر، دط، 1983.

(97) نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، الشركة الوطنية

للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

(98) عثمان بدري، قسم ونماذج من الأدب العربي الحديث، دراسات تطبيقية، الجزائر، دط، 2001.

(99) عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، دط، دت.

(100) الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية والمعنوية) دار العودة، بيروت،

لبنان، ط3، 1981

(101) عز الدين علي السيد، التكرار بين المثير والتأثير، دار الطباعة المحمدية، دط، دت.

(102) علي بوملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة العربية للطباعة والنشر، صيدا، لبنان، 1970.

(103) علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005.

(104) عمار الطالب، ابن باديس حياته وآثاره، عمار الطالب، ج1، دط، دت.

(105) عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما)، ديوان المطبوعات

الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، دط، 1995.

(106) عمرو خالد، خواطر قرآنية، نظرات في أهداف سور القرآن، الدار العربية للعلوم، ط1،

2004.

(107) عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، مصر، ط3، 1997.

(108) فاخر عاقل، معالم التربية، دار العلم للملايين، بيروت، ج3، دط، دت.

(109) فايز الداية، جماليات الأسلوب، مطبوعات جامعة حلب، دط، 1982.

(110) فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المغرب، دط، دت.

- (111) الفضيل الورثياني، الجزائر الثائرة، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، دط، 1992.
- (112) كامل محمد عويضة، مقدمة في علم الفن والجمال، سلسلة علم النفس، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
- (113) كمال عيد، فلسفة الأدب والفن، دار النشر، دط، دت.
- (114) مالك بن نبي، في مهب المعركة، مطبعة دار الجهاد، القاهرة، 1972.
- (115) محمد ابراهيم عبد العزيز شادي، الصورة بين القدماء والمعاصرين (دراسة بلاغية نقدية)، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1911.
- (116) محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته، دار النشر، دط، دت.
- (117) محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، دط، 1981.
- (118) محمد حسين، الإتحافات الوطنية في الأدب المعاصر، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دت.
- (119) محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، القاهرة، 1983.
- (120) محمد دراجي، المشرق العربي (مواقف الإمام الإبراهيمي)، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع، ط1، 2009.
- (121) محمد زغينة، المقالة الوجدانية في نشر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1926-1953)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2005.

- (122) شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، دط، 2005.
- (123) فن المقال في كتابات أبي اليقظان، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، دط، 2005.
- (124) محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
- (125) محمد غنيمي هلال، النشر الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت، دط، 1973.
- (126) محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، شركة شهاب، الجزائر، ط1، دت.
- (127) محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- (128) محمد طهاري، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1992.
- (129) محمد مسعود جبران، فنون النشر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب، (المضامين و الخصائص الأسلوبية)، ج1، دار المدار الإسلامي، طرابلس، 2004.
- (130) محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1988.
- (131) محمد الملي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، دت.
- (132) محمد ناصر بوحجام، الشعر الجزائري الحديث، دار النشر، دط، دت.
- (133) - المقالة الصحفية، ج2، دط، دت.

(134) - دراسات في الأدب الجزائري الحديث، جمعية التراث الجزائري، ط1،

2011.

(135) - السخرية في الأدب الجزائري الحديث (1925-1962)، جمعية

التراث، الجزائر، 2004.

(136) محمد يوسف نجم، فن المقالة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، دط، دت.

(137) محمود حجازي فهمي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1974.

(138) مختار عطية، علم البيان وبلاغة التشبيه في المعلقات السبع، دراسة بلاغية، دار الوفاء للطباعة

والنشر، الاسكندرية، دط، 2004.

(139) مدحت سعد محمد الجبار، الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي، الداري العربية للكتاب،

ليبيا، دط، 1984.

(140) المسدي، الأسلوب والأسلوبية، دار النشر، دط، دت.

(141) مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954-1962) دراسة موضوعية

فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، 1989.

(142) مصطفى صادق الرفاعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت، ج3، دط، دت.

(143) مصطفى العلايبي، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صدا، بيروت، ج2، ط34،

1997.

(144) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط3، 1983.

(145) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، المكتبة العصرية، صدا، بيروت، ط1، 1964.

(146) ميشال عاص، الفن والأدب، مؤسسة نوفال، لبنان، ط5، 1980.

(147) نعمان محمد أمين طه، السخرية في الأدب العربي، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ط1، 1979.

(148) نور الدين السد، القطبية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب، دار النشر، دط، دت.

(149) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981.

(150) نيكولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962.

(151) وجدان عبد الإله الصائغ، الصورة البيانية في شعر أبو ريشة، دار مكتبة الحياة، مؤسسة الخليل التجارية، بيروت، لبنان، ط1، 1997.

(152) يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، قسنطينة، ط1، 1987.

المراجع الأجنبية:

(153) Jean Dubois et autres, Dictionnaire du linguistique.

(154) Spengler : the decline of the west, val.

المجلات والجرائد:

- (155) أحمد العماري، نظام اللغة في الأدب الإصلاحي عند الإبراهيمي، نص الإنسانية: آلامها واستغاثتها "أنموذجا"، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، عدد 29، 2013.
- (156) أحمد محساس، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 65، 1985.
- (157) حجية شيدخ، المرأة في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد 2، 2010.
- (158) سعدون حمادي، الأدب والوعي القومي آراء فيما يجب أن يكون، مركز دراسات الوحدة العربية، مجلة دور الأدب في الوعي القومي، بيروت، ط 1، 1980.
- (159) شاهين بن عباس، صورة تعامل المرأة قبل الإسلام في القرآن الكريم، دراسة استقصائية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مؤسسة الطباعة الصناعية - باتنة -، عدد 26، 2012.
- (160) شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، مجلة الثقافة، عدد 87، 1985.
- (161) عبد الحفيظ بورديم، روعة البيان في كتابات الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد 2، 2010.
- (162) عبد الرزاق قسوم، فلسفة الحب عند عفيف الدين التلمساني، مجلة الوعي (تلمسان عاصمة الثقافة)، عدد (3-4)، 2011.

- (163) عبد القادر فضيل، التربية عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (164) عمر أحمد بوقرورة، خصوصية الفكر عند الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (165) عمر جيدل، أسس بعث الفعالية في فقه الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (166) عمر محمد الطالب، الادب والشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية، مجلة الوعي القومي العربي، مركز دراسات الوحدة 138، بيروت، ط3، فبراير، 1984.
- (167) مبروك زيد الخير، الإمام الإبراهيمي في شعر محمد العيد آل خليفة، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (168) محمد إبراهيم الكتاني، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (169) محمد الصالح الصديق، الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.
- (170) محمد بن قاسم بوحجام، من أساليب السخرية في أدب الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.

(171) محمد دراجي، الإصلاح العلمي ومكانته في التجديد الإسلامي عند الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.

(172) محمد منصوري، بلاغة الفواتح والخواتم النصية في أدب الإبراهيمي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، المركز الجامعي، غرداية، عدد2، 2007.

(173) مسعود فلوسي، مقياس الرجولة والعظمة في نظر الإمام الإبراهيمي، مجلة الوعي، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، عدد2، 2010.

الرسائل الجامعية:

(174) بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، ج1، جامعة منتوري، 2010/2009.

(175) عبد الكريم بوصفصاف، الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسياسية في حركتي محمد عبدو وعبد الحميد بن باديس، أطروحة دكتوراه، ج1، جامعة تونس الأولى، 1996-1997.

(176) هند سعدوني، قراءة سيميائية مدينتي، منشورات النادي الأدبي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001.

(177) عبد السلام ضيف، الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، 2005/2006، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب الحديث.

(178) عيسى مدور، الخطابة في النشر الجزائري (موضوعاتها وخصائصها) (1931/1954)، 2005/2004، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب الحديث.

(179) كمال قادري، التركيب النحوي في الآيات المدنية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير.

(180) محمد زرمان، الأسس النظرية لمنهج التغيير عند محمد البشير الإبراهيمي، أطروحة دكتوراه.

(181) محمد زرمان، المقال في أدب مصطفى صادق الرافعي، رسالة الماجستير في الأدب العربي

الحديث، 1987.

(182) محمد العيد تاورته، نشر الشيخ البشير الإبراهيمي في فترة (1929-1979)، مذكرة مقدمة

لنيل درجة الماجستير.

المعاجم:

(183) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد1، ط3، 1960.

(184) محي الدين فيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة (ك،ي)، مكتبة مصطفى البابي، ط2، 1952.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ-ط
المدخل: لمحات من عصر الإبراهيمي	13
لمحات من عصر الإبراهيمي	14
أولاً: الوضع السياسي في الجزائر	16
ثانياً: الوضع الاجتماعي في الجزائر	19
ثالثاً: الوضع الثقافي في الجزائر	22
الباب الأول: الأنواع النثرية ومجالاتها في كتابات الإبراهيمي	27
الفصل الأول: الأنواع النثرية	28
أولاً: فن المقال	29
توطئة	30
فن المقال	31
1- المقال في أدب الإبراهيمي	32
2- خصائص المقال عند الإبراهيمي	34
ثانياً: فن الخطابة	37
توطئة	38
1- أنواع الخطابة عند الإبراهيمي	39
2- خصائصها	41
ثالثاً: فن الرسالة	45
توطئة	46
فن الرسائل عند الإبراهيمي	47
رابعاً: فن المقامات	53
توطئة	54
المقامات عند الإبراهيمي	55

58	 خامسا: فن السيرة وأدب الرحلات
59	 أولا: فن التراجم والسير
62	1- الترجمة
62	أ- الترجمة الذاتية
62	ب- الترجمة الغيرية
63	2- فن السيرة عند الإبراهيمي
67	 ثانيا: أدب الرحلة عند الإبراهيمي
68	 رحلات الإبراهيمي
72	 الفصل الثاني: مجالات الأنواع النثرية عند الإبراهيمي
73	 أولا: المجال الاجتماعي
74	 توطئة
76	1- قضايا الأسرة
86	2- التعاون الاجتماعي
93	3- قضية المرأة
101	 ثانيا: المجال الديني
102	 توطئة
106	1- الإبراهيمي وفهم القرآن الكريم
114	2- الإبراهيمي وتحديد العقيدة الإسلامية
121	3- الإبراهيمي والثورة على البدع والخرافات
129	 ثالثا: المجال السياسي
130	 توطئة
131	1- السياسة الخارجية
132	أ. القضية الفلسطينية
143	ب. قضايا المشرق الإسلامي
150	ج. قضايا المغرب العربي
159	2- السياسة الداخلية

160	أ. قضية الاستعمار
165	ب. قضية فصل الدين عن الحكومة
178	رابعاً: المجال الثقافي والتربوي
179	- توطئة
181	1- مكانة اللغة عند الإبراهيمي
187	2- التربية والتعليم عند الإبراهيمي
199	3- الإبراهيمي والتعليم العربي الحر
207	الباب الثاني: البناء الفني لنثر الإبراهيمي
208	الفصل الأول: البناء اللغوي لنثر الإبراهيمي
209	توطئة
210	1- روافد اللغة الإبراهيمي ومكوناتها
214	2- البناء اللغوي
217	3- طبيعة اللغة الإبراهيمية
218	4- ظاهرة المفردات عند الإبراهيمي
235	5- التراكيب
238	أ. بناء الجملة عند الإبراهيمي
239	ب. الجمل الفعلية
245	ج. الجمل الاسمية
249	6- الخصائص الأسلوبية في آثار الإبراهيمي
251	أ. أسلوب السخرية
252	1- الأسلوب الاستفهامي
258	2- أسلوب التصوير الهزلي (الكاريكاتوري)
260	3- أسلوب الاستهزاء والتهكم
264	ب. أسلوب التعريض
266	ج. أسلوب التنويع والتفصيل
270	د. جمالية الفواتح والخواتم

281	 الفصل الثاني: البناء البلاغي لدى إبراهيمي
282	 توطئة
283	1- مفهوم الصورة الفنية
283	أ- الصورة عند القدماء
287	ب- الصورة عند المحدثين
292	2- أنواع الصورة البيانية
294	أ. الصورة التشبيهية
305	ب. الصورة الاستعارية
317	ج. الصورة الكنائية
326	 الفصل الثالث: الذوق البديعي عند إبراهيمي
327	 توطئة
328	1- المحسنات اللفظية
328	1-أ- الاقتباس من القرآن الكريم
334	1-ب- الاقتباس من الحديث النبوي الشريف
337	2- السجع
346	3- الجناس
352	4- لزوم ما لا يلزم
357	2- المحسنات المعنوية
357	1- الطباق
365	2- أسلوب التكرار
372	 الخاتمة
377	 قائمة المصادر والمراجع
391	 فهرس الموضوعات